نهال تجدّد



الرومي: نار العشق



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

نهال تجدّد

الرومي: نار العشق

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

نهال تجدّد، الرومي: نار العشق، رواية

ولدت نهال تجدّد في طهران عام ١٩٦٠، وهي تعيش في فرنسا منذ عام ١٩٧٧. ودرست تجدّد التي لُقِّنَت أصول الصوفية منذ طفولتها، في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية المعروف، حيث أجرت بحوثاً في النصوص المانوية وماني، نور بوذا، وحازت على الدكتوراه باللغة الصينية. وقد اشتهرت تجدّد بترجمتها لأشعار الرومي إلى اللغة الفرنسية، وهي تعمل كذلك باحثة في مركز البحوث الوطنية الفرنسي، وأصدرت عدة أعمال عن التاريخ. وكتبت رواية «جواز سفر على الطريقة الإيرانية»، وهي تعيش في فرنسا مع زوجها، كاتب السيناريو والناقد السينمائي، جان كلود كارييه.

نهال تجدّد: الرومي: نار العشق، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى ماهين جاهان بيغلو- تجدّد، أمي التي، كجزء من جميع البدايات، كانت السبب في انطلاق هذا الكتاب، وإلى ابنتي، كيارا كارييه، الثمرة.

ملاحظة

معظم الحوارات والتفسيرات والتعليقات الواردة على لسان الشخصيات الرئيسية في هذا الكتاب مستمدة من أعمالهم:

الرومي: ديوان شمس التبريزي والمثنوي وفيه ما فيه.

شمس التبريزي: مقالات شمس التبريزي

سلطان ولد: ولد نامه

كما استخدمتُ معلومات مستمدة من السيرة الذاتية للرومي وحاشيته «مناقب العارفين» الذي كتبه الأفلاكي (شمس الدين أحمد الأفلاكي، المتوفى سنة ١٣٦٠) بين الأعوام ١٣١٨ و١٣٥٣ بناء على طلب حفيد الرومي.

أمسيتُ ميتاً، فأصبحت حيّاً،
كنت باكياً، فأصبحتُ ضاحكاً،
جاءت دولة العشق،
فصرتُ دولة خالدة.

الرومي

كتاب شمس التبريزي

أنا الرجل العجوز في البرد

كان طويلاً نحيفاً، يكاد أن يكون هيكلاً عظمياً، متدثراً بمعطف أسود من الكتان عريض الأردان. بعد زخات المطر، تدلت خصلات شعره من ثنايا قبعته التي كانت في شكل قارب، زرقاء بلون السماء. كان يغذ الخطا غير عابئ بما يدور حوله في المدينة - الدكاكين والناس والحيوانات - وكانت عيناه تشيان بأنه زائر جديد إلى هذه المدينة. وبين الحين والآخر، كان يتوقّف أمام أحد المحلات الصغيرة، وعيناه تطوفان فوق السلال المصنوعة من القصب والقشّ. وعندما عرض عليه صانع السلال أن يشتري سلة من القصب، لاذ بالصمت ولم يحر جواباً، لأن من النادر أن يسأله أحد شيئاً.

هبّت ريح باردة على وجهه الضامر المتغضّن مثل رقّ يلامس النار. عقد حاجبيه محاولاً أن يكيّف نفسه مع البرد، البرد القارس الذي هبط على قونية في نهاية تلك السنة.

«أنا الرجل العجوز في البرد»، قال لصانع السلال.

لم يتوقف الرجل عن عرض بضاعته.

«انظر إلى مقابض السلال هذه، تحسس قعرها. لا يوجد لهذه السلال مثيل في المدينة كلها. يمكنها أن تُصعِد رجلاً إلى السماء».

«لستُ بحاجة إلى سلالك حتى أصعد إلى السماء».

عندما وقعت عيناي عليه لأول مرة، هو شمس التبريزي - قبل فترة وجيزة من لقائه الشهير بمولانا الرومي - كان في الستين من العمر، مثل عمري الآن.

ها قد أصبحت الآن ذلك الرجل العجوز الضعيف البنية، ولم أعد أتوقف عن تكرار عبارة شمس المعهودة «أنا الرجل العجوز في البرد». لأن الموقد المتوهج في الحجرة التي أكتب فيها قصّة سيدي وأستاذي لا يدفئ عظامي الواهنة، وقد طعنتُ في السن وأصبحتُ أكبر من كل الذين أعرفهم. لقد أضحى ذلك المريد الشاب المتحمّس في الماضي، المفعم بالحيوية والممتلئ بالروح المرحة، حكيماً يأتي الآخرون لاستشارته وسماع مواعظه. لقد بلغت سنّ الوقار. لقد أصبح ذلك الشاب الرياضي الذي كان يكسر الجليد المتشكل فوق سطح البحيرة ليستحمّ في عزّ الشتاء، يمضي وقته الآن أمام الموقد لا يبرحه. ركبتاي تؤلمانني، يداي ترتعشان قليلاً.

بعد أن طعنتُ في السن واعتراني الوهن، أحاول أن أتخيّل شمس قبل أربعين سنة. أراه يهرع مبتعداً عن محل صانع السلال. أراه يسير في شوارع قونية وأزقتها، أول مدينة تنبثق من الطوفان، المدينة التي مرّ بها بولس والرسول برنابا والحواري توما. مقر مجالس المسيحية الأولى التي نهبها الصليبيون وعاثوا فيها فساداً قبل أن تصبح عاصمة سلاطين السلاجقة في القرن السادس للهجرة.

ولم تتمكن هجمات المغول من إطفاء شعلة هذا القلب النابض بالتجارة. هذه المدينة التي يقطنها أتراك ويونانيون وعرب وهنود وفرس وإفرنجة وأرمن وإيغور وفينيسّيون، بل حتى صينيون. وفي الصباح الباكر من كلّ يوم، كانت الجلبة التي يحدثها السقّاءون الذين يملأون قِربهم المصنوعة من جلد الماعز من القنوات الواقعة

خارج المدينة، وينقلونها على ظهور الجمال، توقظ سكان المدينة من نداءاتهم المرتفعة لبيع الماء العذب؛ وأصوات غاسلي الثياب في ذهابهم وإيابهم بين النهر وبيوت زبائنهم، الذين تنوء بغالهم وحميرهم بالألبسة الوسخة، والذين يعودون بعدها بأكداس الثياب المغسولة، النظيفة، المطوية، المعطّرة، وعمّال البناء الذين يجلسون عند مفارق الطرق الرئيسية، ينتظرون مرور مقاول في الصباح الباكر يبحث عن بنائين مهرة. ومن مواقع البناء الكثيرة - فقد تملّك السلطان هوس البناء - يمكن سماع الضوضاء المنبعثة من البكرات والحبال التي ترفع العمّال في سلال إلى قمم المآذن حتى غروب الشمس. أما في الأحياء السكنية، فيبدو أن نداءات جامعي الأشياء العتيقة الذين يجوبون الشوارع لا تتوقف. ومن باحات المدارس، دبيرستان، يمكن سماع أصوات الأطفال الذين يرددون بلا كلل، بأصواتهم الحادّة والرتيبة، آيات من القرآن. وفي الليل، يتناهى إليك من نوافذ المارستان المنُارة، أصوات حوارات غريبة لأحد المجانين، يعبّر فيها عمّا يدور في رأسه بصوت عالٍ وبلغة لا يفهمها أحد سواه.

وكانت تغلف الحمّامات العامة سُحب بخار الماء الحار المعطّرة بروائح ذكية، وتفوح من كهوف الأرمن رائحة النبيذ المعتقة الخدرة، غير عابئة بصليل سيوف المغول. أما العرّافات اللاتي يرفعن في أيديهن طاسات الماء، فكنّ يكشفن من خلال السائل المتجمع، عن وجه الحياة الخفي للنساء المذهولات المتحلقات حولهن.

دأب الأجانب القادمون من الغرب على القول إن قونية مدينة ضخمة تشبه مدينة بعيدة تقع وسط سهل خصب في الضفة اليسرى من نهر عريض، يطلقون عليها اسم كولونيا، أما الأجانب القادمون من

الشرق، فقد اعتادوا على تشبيهها ببغداد، لا بل بمدينة هامبي الأبعد مسافة.

قبل وصوله إلى الأناضول، «المشرق»، أو أناتول كما يلفظها صديقي اليوناني، ذريانوس، لم تكن تتملك شمس التبريزي سوى رغبة واحدة، وهي اللقاء بأستاذ حقيقي، أستاذ روحي. لذلك راح يطوف في أرجاء البلاد وينتقل من بلد إلى آخر. كان شمس قد تعلّم في تبريز، مسقط رأسه، على يد شيخ يعرف باسم «حائك السلال»، وكان كلّ ما يعرفه ينحصر في ما علّمه إياه ذلك المعلم الأول. لكن لم تمض فترة طويلة حتى تركه شمس ليبحث عن معلّم قادر على «رؤية» شيء فيه لم يره حائك السلال، ولا أي شخص آخر.

ومثل حيوان برّي لا يكفّ عن البحث، انطلق شمس من مدينة إلى أخرى، فصلاً بعد فصل، لعله يعثر على صيّاده. وقد قاده هذا الطواف الدائم إلى بغداد حيث التقى بشيخ معروف. وسرعان ما انتشرت الكلمات التي تبادلها معه وبلغت بلاط الخليفة، وانتشرت في الحمّامات العامة والحانات حيث ينال الجنود قسطاً من الراحة قبل أن يخرجوا حتى تُقطع رؤوسهم على يد المغول. لكن شمس كان نافد الصبر. ففي أثناء لقائهما الوحيد والقصير جداً، سأل الشيخ ماذا يفعل، فأجاب الشيخ، «إني أرى القمر في ماء الطست»، فعرف شمس على الفور أن هذا الشيخ لا يصلح له، وأجابه ساخراً، «إذا لم يكن في رقبتك دُمَّل، فلماذا لا تنظر إلى القمر في السماء مباشرة؟»

بهذه الكلمات حطّم شمس حماسة هذا الشيخ الحالم، وتوسل الشيخ الذي كان يتوق إلى أن يصبح أستاذاً لهذا الرجل، لأن يبقى، وأطلق عليه اسم «المتيقظ»، «المرشد»، «الرفيق». لكن هذا الغريب

الغامض، لم يوافق، فأجهش الشيخ على كتفه، وهمس حزنه في أذنه، ومزّق ثوبه، ودفع صدره العاري إلى الأمام كي يراه شمس. لكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح. فقد كان من رابع المستحيلات الإمساك بشمس «الطائر».

مع أن شيئاً من السعادة قد اعتراه من الردّ المؤثر للرجل الذي كان دراويش بغداد يعتبرونه آنذاك «نور الخلافة»، عرف شمس أنّه يضيّع وقته سدى مع شخص تافه كهذا.

«إنك لا تنفع لشيء. إنك لست جديراً برفقتي».

كانت تلك كلمات شمس الأخيرة قبل أن يولي ظهره للشيخ ويغادر بغداد. لم يعرف أحد تماماً من هو، فلم يكن يجيب عن أي سؤال شخصي عنه. كان يكسب رزقه من تعليم الأطفال القرآن وأصول الدين، وكان يعمل أحياناً في البناء أو في أعمال الدهان أو طلي الجص، لكنّه لم يكن يرغب في أن يُعرف عنه بأنه صوفي أو معلّم أو عامل غير ماهر، بل كان يعرّف نفسه بأنه شخص أجنبي، عالق في حركة العالم. وكان كلما وصل إلى مدينة جديدة، يمكث في خان مع مسافرين آخرين، وكان يفضل أن يعرّف نفسه بأنه تاجر وليس رجل دين أو معلّماً مبجلاً.

ولأن معرفته، شأن غريزته، كانت مدهشة، فقد كان يُطلب منه غالباً أن يمكث في خانقاه، تكية الدراويش، أو في مدرسة، محاطاً بأقرانه. لكنه كان يرفض تلك الدعوات ويجيب بما أنه غريب فعليه أن ينزل في الخانات، أماكن العبور. أما الذين يعرفون هذا المسافر، فكانوا يطلقون عليه اسم *الطائر*. ويقال إنه جاب أنحاء العالم قبل أن يصل إلى قونية حيث يعيش جلال الدين محمد البلخي، المعروف باسم الرومي، لأنه أمضى شطراً طويلاً من حياته في هذه المدينة

التابعة للقياصرة، والذي كان تلامذته يدعونه باسم «مولانا»، وكان شمس يشير إليه بالحرف م فقط.

إن يدي تحترق عندما أكتب ما رأته عيناي، لكنني لا أريد أن أواصل الكتابة بسرعة. في ذلك الوقت، كانت الدروب والطرق لا تزال خطيرة. ولم تكن مطروقة كما هي في أيامنا هذه، أثناء كتابتي هذه السطور. فقد زحف أبناء جنكيز خان على هذه الأرض. ذلك الزمن الذي أطلق فيه المحارب تشورماغان العنان لقطعانه الذين يزيد عددهم على ثلاثين ألف رجل فعاثوا فيها فساداً وسلبوا ونهبوا وقتلوا وذبحوا سكّان المدن القديمة الذين بدا أنهم، بدلاً من الدفاع عن أنفسهم، كانوا يقدمون أنفسهم علفاً لهم.

كان تنقّل شمس يعتمد كثيراً على تحركات جيوش المغول الغازية غير المنتظمة. ففي ذلك الحين، كانت جميع الأراضي الممتدة من السند حتى مضيق القسطنطينية مهدّدة. كان شمس في الخامسة والثلاثين من العمر عندما أحرق المغول مسقط رأسه، تبريز، وخلال تجواله، كانت تتناهى إليه أصوات صراخ الأهالي المذعورين وعويلهم، وغالباً ما كان يكرّر عبارة التقطت مثل ثمرة موسميّة من على قارعة الطريق: «يأتي المغول فيحطّمون ويحرقون ويقتلون وينهبون ويسلبون ثم يغادرون».

حُكيت له قصّة تقول إن فارساً مغولياً دخل قرية مأهولة وقتل جميع سكانها، الواحد تلو الآخر، من دون أن يجرؤ أحد على رفع إصبعه في وجهه. وفي مكان آخر، حُكي له أن بربرياً أعزل أمر أحد الأسرى بأن يستلقي على الأرض ولا يبرح مكانه، ثم انطلق المغولي يبحث عن سيف بهدوء ثم عاد وقطع رأس الرجل المنكود الذي لبث ساكناً، لم يبرح مكانه، منتظراً حتفه.

في أحد الأيام، وصل شمس إلى دمشق حيث سمع مرة أخرى عن ذلك الاستسلام الغريب في وجه الغزاة.

«قال له أحدهم: كنّا مجموعة من ثمانية عشر مسافراً، وفي الطريق صادف مغولي قافلتنا وأمرنا بأن نقيّد أنفسنا معاً. بدأ رفاقي يقيّدون أنفسهم ببعض بهدوء، وكنت أنا الوحيد الذي رفض هذا الأمر القاتل. فقلت لهم إننا ثمانية عشر في مواجهة رجل واحد، لكن عبثاً، واستمروا يقيّدون أنفسهم. استللت خنجري فجأة وحززت حنجرة هذا المغولي، فمات في الحال هذا الإلتشي، الرسول المغولي، ولذنا بالفرار، وتركنا وراءنا الحبال والقيود. لكن بدا أن بعض رفاقي في القافلة قد ندموا لأنهم ظلوا على قيد الحياة».

في دمشق، عندما كان في الخامسة والأربعين من عمره، لقي شابّاً تتحلّق حوله مجموعة من الأصدقاء المبتهجين. انحنى أمامه وقبّل يده وقال: «يا صرّاف عالم المعاني، أدركنا». لا شك أنه استخدم عبارة «صرّاف»، كما لو أنه كان يبدّل عملة بأخرى.

نعم، لقد التقى بأبرز طلاب العلم في المدينة. إنه الرومي الشاب، كما سأطلق عليه من الآن فصاعداً، الذي قدم إلى دمشق لدراسة علوم الدين والشريعة. بعيداً عن مشاركة غبطة الغريب الذي طلب منه أن يمسك بيده، سحب الرومي يده التي تبللت بلعاب قبلات هذا المتضرع الندية، وانحنى ليساعد الرجل الجاثي أمامه على النهوض على قدميه. لم يكد ينهض حتى ابتعد بسرعة، تاركاً الرومي الشاب في حالة ذهول. بعدم مبالاة شاب في عمره، لم يعلّق الرومي أي أهميّة على هذا اللقاء الغريب. أما الشخص الآخر، فقد فهم أن هذا الطالب المنهمك في التهام الكتب، لم ينضج بعد وأن عليه أن يعود مرة أخرى. وأعني بالشخص الآخر، شمس التبريزي، «الطائر».

لا، لم يكن الرومي قد نضج بعد. وسيستغرق الأمر خمس عشرة سنة أخرى. وذات يوم خريفي، بينما كان يهمّ بمغادرة مدرسة سوق القطن، التقى مرّة أخرى، وبمحض الصدفة، بشمس الذي كان خارجاً من خان تجار السكّر، هذا اللقاء الذي قلب حياته رأساً على عقب. سأعود لاحقاً إلى رواية هذا اللقاء.

يصعب عليّ تدوين الكلمات على الورق لأصف ببساطة أستاذي، الرومي، الرجل الذي دخل حياتي ولم أكد أبلغ العشرين من العمر، ولم يغادرها قط. الرجل الذي جعل شعره تعبيراً خالصاً عن العشق والمحبة، الطريق المباشر إلى الله. لكن هذه هي مهمّتي. الواجب الذي يتعين عليّ أن أؤديه في نهاية حياتي. وإن لم أفعل ذلك أنا، فمن سيفعله؟

اسمه الحقيقي جلال الدين محمد، ولد في بلخ، شرق إيران، في سنة ٦٠٤ للهجرة (١٢٠٧ م). كان والده يحمل لقب «سلطان العلماء» لأنه كان يقال إن علمه كامل. لكن بعد جدال مع فيلسوف البلاط «باديشاه»، نشأ خلاف مع أهل المدينة حول لقبه، وربما خوفاً من جيوش المغول، اضطر إلى مغادرة مسقط رأسه في عام ٦١٨ هـ، عندما كان ابنه، أستاذي لاحقاً، لا يزال في الرابعة عشرة من عمره.

كانت رحلتهما طويلة، لكنها مثمرة. وفي بغداد، التقى الأب والابن الشاب بالإمام العالم العارف السهروردي. أمام بوابة عاصمة الخلافة، سألهما الحرّاس، كما دأبوا على سؤال جميع الأجانب، من أين أتيا وإلى أين هما ذاهبان؟ فأجاب سلطان العلماء، والد الرومي: «من الله وإلى الله ولا قوة إلا بالله». عندما بلغت هذه الكلمات سماع الشيخ شهاب الدين السهروردي، هرع للقاء الزائرين. حيّا الوالد باحترام وقبّل ركبة ابنه، الرومي مستقبلاً،

الممتطي ظهر حصان. ويقال إن سيدي يحتفظ، كتذكار عن هذا اللقاء - وهو أمر قد لا يكون حدث إلا في مخيّلة بعض الرواة - ببضع شعرات حمر من لحية الإمام العارف التي التصقت بثوبه عندما قبّله.

بعد ذلك، عندما بلغ السهروردي السادسة والثلاثين من العمر، قتله حاكم مدينة حلب، ابن صلاح الدين، الذي كان يدّعي أنه أحد أتباعه المخلصين. لكن حماية أقوى أتباع الإمام العارف لم تجدِ نفعاً أمام الاتّهامات بالزندقة التي كالها له رجال الدين في البلاط، ولم يتمكن الإمام العارف من حماية نفسه من مشاعر الكراهية التي كانوا يكنّونها له. فبين الأب السلطان والصديق الذي يؤمن بالغيبيات، اختار حاكم حلب والده السلطان، وأمر بإعدام معلّمه العالم بقلب مكلوم.

على طريق الهروب الطويل، التقى الرجل الذي سيصبح أستاذي، ابن سلطان العلماء، في نيسابور، بفريد الدين العطّار، الشاعر الصوفي الفذّ الذي كان يعمل عطّاراً. فقدم له العطّار نسخة من كتابه «أسرار نامه» الذي يضم أشعاراً لم يتوقف الرومي عن قراءتها، والاقتباس منها وترديدها، على الرغم من أنه فاق، هو نفسه، عبقرية العطّار الروحية والشعرية، من حيث الشكل والمضمون. وسمع جميع من حضروا ذلك اللقاء العطّار يقول لسلطان العلماء: «إن ابنك سيضرم النار سريعاً في هشيم العالم». وحتى لو لم يقل العطّار ذلك، وحتى لو كان ذلك مجرد كلام منمق أو مختلق، فقد أضرم الرومي حقاً ولا يزال يضرم، بدقة وبكل ما في الكلمة من معنى، العالم الروحي الذي قد يكون هو العالم الحقيقي.

وقيل أيضاً إنه عندما غادرت القافلة نيسابور، قال العطّار عندما

رأى الفتى يمشي وراء والده: «سبحان الله، إني لأرى المحيط يمشي وراء البحر».

في إحدى البلدات التي توقّفا فيها أثناء هروبهما، تزوّج الرومي، وهو في الثامنة عشرة من عمره، جوهر ابنة أحد أعيان مدينة لارندة. سأتذكّر دائماً اسم هذه المدينة، لأن سيدي امتدح في بعض قصائده طعم فاكهتها الذي لا يمكن أن ينسى، وخاصة «الشفتالو» أحد أصناف الخوخ الريانة.

أنجبت له جوهر ولدين، الأول سلطان ولد الذي قال الرومي إنه شديد الشبه به. وأصبح سلطان ولد ظلّ أبيه وكان يساعده في اتخاذ جميع قراراته، مهما كانت متناقضة أو متهورة، أما علاء، الابن الثاني، الابن العاق، فقد أصبح أيضاً «ظلّ» أبيه، لكنه كان ظلاً مظلماً، مليئاً بمشاعر الضغينة والعداء. وفي أحد الأيام، كان علاء سبب مغادرة، «اختفاء»، وقال البعض اغتيال «إله» والده، شمس التبريزي.

إنه شمس نفسه الذي، كما كتبتُ، وجد نفسه في قونية بعد عشرين سنة، في ٢٦ جمادى الآخرة ٦٤٢ هـ (٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٤٤ م)، عند باب خان تجار السكّر، يبحث، مثل أي تاجر ماهر، عن أندر السلع.

بدا أن وجود كلا الابنين عند وفاة الرومي يمثّل الصراع الأبدي بين الخير والشر. فقد كانا يشبهان جناحَي الملاك جبريل، جناح النور - الجناح الأيمن - الذي تنبثق منه الطبيعة المثالية (وهو سلطان ولد)، وجناح الظلّ - الجناح الأيسر - بمعنى آخر، الروح التي تهبط إلى العالم السفلي، ويجسّده علاء.

ذات يوم انتهى هروبهما. فلم يعد البحر يمشي، وبدأ المحيط

يتدفق. وبناء على دعوة وجّهها لهما السلطان كيقباذ، بارك الله روحه، شقّا طريقهما صوب قونية واستقرّا فيها طويلاً، وأصبحا في مأمن من فرسان السهوب الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، ومن الأشخاص الجاحدين.

انحسر البحر وفاض المحيط. بدأ الرومي يدرس علوم والده ومعارفه. وعندما مات الوالد لم يكن مولانا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. حزن الشاب كثيراً على الخسارة التي لحقت به، لأنه لم يفقد والده فقط، بل فقد أفضل معلّم له. فسيظل تعليمه ناقصاً، ويتعين عليه أن ينتظر قدوم معلم آخر. وانتظر الرومي سنة كاملة مترقباً.

مثل حد سكين يقص الحرير، تقدم المغول باتجاه غروب الشمس، فلاذ الإيرانيون بالهرب قبل أن تهرب جيوشهم، ووجد الكثير منهم مأوى في قونية. وقال البعض إنهم سمعوا كيف أن الفقيه المعروف في مدينة بلخ، برهان الدين الترمذي، قطع درسه فجأة، ثم تنهد وصاح: «وا أسفاه! فقد ذهب شيخي سلطان العلماء من عالم التراب إلى العالم الطاهر. إن ابنه ينتظرني بلهف، ولا بد من أن أذهب إلى قونية وأسلّمه هذه الأمانة التي أودعها شيخي عندي».

من الطبيعي، في ذلك الزمن الذي عمّت الفوضى فيه كل مكان، أن تنتشر الرؤى والمعجزات والمصادفات الغريبة والنبوءات في أرجاء العالم. وعندما كان الرومي يسمع بها، لم يكن يعيرها أي اهتمام ولم يكن يجد فيها أي ذرة من الحقيقة. في أي نظام قال الترمذي هذه الكلمات، في أي شكل، في أي زمن؟ لم يعر الرومي أي اهتمام لهذه الأمور، لكنّه كان يعرف، بلا ريب، بأن الترمذي سيأتي ويكمل تعليمه الذي قلّ كثيراً منذ وفاة والده. أما الترمذي

فكان يعرف أن الرومي بحاجة إلى معلّم وأن من واجبه أن يذهب إلى الابن الحزين بأسرع ما يمكنه، وأن يعلّمه معنى كلمة «الأمانة»، لأن هذا التعليم هو أثمن هدية يمكنه أن يقدمها له.

ملأ وصول المعلّم العجوز إلى قونية الرومي برغبات جديدة. فقد اختبره الترمذي في صنوف العلوم، وفي نهاية الاختبار، قال له: «لقد تجاوزتَ في جميع العلوم الدينية واليقينية مرتبة والدك بمائة درجة، لكن والدك العظيم كان كاملاً في علم القيل والقال وعلم الحال».

«أريدك الآن أن تسلك في علم الحال»، قال لسيده الجديد، «وقد وصل إليّ هذا المعنى من والدك، فحصّل ذلك مني، لكي تكون، ظاهراً وباطناً، وريثاً لوالدك، وتغدو عينه».

كان الترمذي محقّاً. فقد كان الرومي يفتقر إلى العلوم الأخرى التي لا يمكن تعلّمها من قراءة الأطروحات العرفانية، بل بواسطة التأمل والاعتزال. وأسلم نفسه إلى مرشده الجديد مثل الميت كي يبلغ الحياة الأبدية، وكي يطلق طائر روحه جناحيه في فضاء الطهارة والصفاء. ثم وصف ابنه المحبوب لديه، سلطان ولد، هذا الانصهار بالأبيات التالية:

صار مريداً له من أعماق الروح وطأطأ الرأس،
ورُفع كالميت بين يديه،
وعندما مات بين يديه أحياه،
بكاؤه عليه هو الذي أضحكه.

وهكذا أرسل الترمذي مريده الشاب إلى حلب ودمشق للدراسة. وفي ميدان دمشق، بينما كان في طريقه إلى المدرسة ذات يوم، التقى

الشاب، لأول مرة، بدرويش نحيف، رجاه أن «يمسك بيده». وكما قلتُ سابقاً، لم يثمر اللقاء وعاد الرومي إلى رفاقه، بينما أدرك الدرويش، شمس التبريزي، أن الشاب لم «ينضج» بعد، وكان لا يزال «غراً».

كان الرومي يعرف ذلك. ولدى عودته إلى قونية، قام بثلاث خلوات متتاليات، بأمر من الترمذي، امتدت إلى ألف يوم ويوم، وهو عدد، وفق القيمة العددية للأحرف، يمثّل الرضا.

في نهاية هذه التجربة الطويلة، قدّم للترمذي وصفاً مفصّلاً لرؤاه الباطنية العديدة. ففي إحدى هذه الرؤى، قال: «رأيتك. كنت تستمع إلى تعاليم أبي. كانت النار تلتهمك ووضعت كلتا قدميك فوق الموقد وسحبت بيدك الجمرات المحترقة».

قبّل المعلّم تلميذه، وقال له «أصبحتَ تمتلك الآن جميع أسرار الباطن وسر سير أهل الحقائق ومكاشفات الروحانيين ورؤية المغيبات». عندها انتهت فترة تعليمه، فسلّمه «الأمانة». فها هو التلميذ يبزّ أستاذه الآن.

بعد أن أقام الترمذي في قونية عشر سنوات، قرّر الذهاب إلى مدينة القيصرية، ربما لأنه أدرك أن الظمآن أصبح بحاجة إلى جدول يتدفّق من نبع لم يعد له، فطلب من تلميذه السماح له بالمغادرة، لكنه لم يجبه على طلبه. فاضُطر المعلّم إلى عدم إطاعة الرومي وغادر من دون موافقة الرجل الذي تعلّق به كثيراً.

في طريقه إلى القيصرية، جمح حصان الترمذي ففقد السيطرة عليه وألقاه فكسرت قدمه. وعندما اضطر إلى العودة إلى قونية للعلاج، التقى بتلميذه الذي أصرّ على أن ينزع له حذاءه بنفسه. وسأله الرومي وهو يداعب أصابع قدمه المكسورة، «لماذا تتحاشانا؟»

فأجابه العارف العجوز، «إن أسداً ضارياً يقترب. إنه أسد، وأنا أسد أيضاً. فلن نتوافق».

تغلغلت تعاليم الترمذي التي تشرّبها الرومي وسرت في أعماقه، في كلّ عرق من عروقه، رسائل ناقل الحقّ هذا، وسمح للحكيم العارف العجوز، البئر، بأن يغادر. فقد أصبح الآن مهيئاً لاستقبال شمس التبريزي، الأسد المتنبّأ به، وفهمه.

ولكن قبل أن يصل ذلك الوحش إلى قونية، نصّبت المدينة، ابن سلطان العلماء الذي بلغ السادسة والثلاثين من العمر، وريثاً شرعياً لأبيه. فقد بلغه المجد، وبدأ الناس يدعونه «مولانا». ولم تفرغ المدرسة التي كان يلقي فيها دروسه من المريدين قط. فقد كان يحضر في يوم واحد أربعمائة طالب، من بينهم علماء دين وحكّام وأمراء، بل حتى السلطان نفسه، كان يحضر دروسه. وأصبح الرومي الذي يحترمه ويبجله الجميع، رجلاً تقياً لا يبزّه أحد في علمه وتعليمه. قمّة، نوراً لا نظير له.

كان مربوع القامة، رقيق الأنف، عيناه واسعتان هادئتان يجللهما حاجبان كثيفان قليلاً، وقد بدأ الشيب يخط شعر رأسه ولحيته. وكانت شفته العليا تشكّل قوساً رائعاً. كان يسير الهوينا، مستغرقاً في التفكير على الدوام، يجيب على الأسئلة التي تطرح عليه دائماً في أروقة المدرسة، وفي المسجد، وفي الشارع، وفي الحمّام. كان ودوداً، لكنه كان يحافظ على مسافة طفيفة من الشهرة التي تحيط بالرجل الذي كان يدرك قيمتها ومصدر مجدها. وفي بعض الأحيان، كان حجاب التأمل يجعله متجهماً كما لو أنه انكفأ سرّاً إلى داخل نفسه، وراح يبحث في تلافيف ذاكرته عن عبارة بعيدة، عن مثال، عن تفصيل لا يعرفه أحد غيره، مفاضلة، وميض مفاجئ.

لكنّ تلك اللحظات كانت نادرة. ففي معظم الأحيان، كان يتكلّم بحرية على شتى المواضيع، من دون أن يُسأل، وتتدفق الأفكار، الواحدة تلو الأخرى، في حديثه من دون أن يبدي أيّ جهد ظاهر، فيذهل مستمعيه، كما لو أن كلّ ذلك كان مسجلاً في رأسه. هذا هو الرجل الذي سيستدعي، في وقت لاحق من حياته، وفي أحيان كثيرة، الصمت ويحتفل به.

كانت بشرته شاحبة، ويداه بيضاوين، قلّما يحرّكهما عندما يتكلّم، كما لو كان صوته، في تلك اللحظات، لا يحتاج إلى أي شيء آخر ليعرب عن نفسه ويقنع مستمعيه. كان رداؤه أنيقاً ورزيناً.

وكان يشير إلى كتاب ويقول لأحد مريديه: «افتحه إلى أي صفحة تختار»، فيطيع المريد، ويقرأ أول كلمتين في الصفحة، ثمّ يقاطعه الرومي، ويكمل ما في الصفحة وعيناه نصف مغمضتين، بلا أي خطأ، ثمّ يفسّر له ما قرأه.

وعندما كان يزعجه أحد، كان يحافظ على هدوئه، مع أن تعليقاته كانت تتسم أحياناً بالحزم. وفي معظم الأحيان، كان ينسحب من الاجتماعات مبكراً، ويعمل حتى وقت متأخر من الليل، يقرأ كتباً جديدة ويحضّر دروسه. وفي أحيان كثيرة، كان يجلب معه أحد دواوين العطّار، الشاعر الصوفي الذي يدعوه أستاذه.

خلال كتابتي هذه القصّة، أتذكّر صديقي ذريانوس اليوناني، الرجل الذي أمسك يدي، وأدخلني الدائرة المغلقة جداً لمريدي الرومي. كنّا في أعمار متقاربة، في حوالي العشرين. كنا نمارس الرياضة ونلتزم ببهجة بقواعد المجموعة التي أصبح الرقص فيها شكلاً أعلى من أشكال الصلاة. حتى اليوم، بعد أن تقدمت بي السن ووهن العظم مني، لا يسعني إلا أن أتذكر تلك الساعات اللانهائية

من التمارين الرياضية التي أمضيتها مع ذريانوس. فبينما علّمني كيف أمسك بالعصا، عرّفني أيضاً على مبادئ الصوفية.

وبقدر ما أذكر، كان ذريانوس لا يبرح دكان الحلاق. فقد كان شعره غزيراً، وكان يبدو أنه كان ينمو أمام أعيننا في كل لحظة.

كان يُدين بحياته لمولانا. ففي أحد الأيام، بينما كان الرومي يعبر السوق على حصانه متجهاً إلى قبر أبيه، أبطأ قليلاً ليبدي إعجابه بخيول عربية أصيلة يقوم سائسوها بتنظيفها وفركها وتمشّطيها. ولاحظ في عيون الخيول إعياء السنوات الماضية والقادمة، وشمّ رائحة روث الخيل. فقد كان يستطيع أن يميّز بين الخيول المعدّة للحرب والخيول المعدّة للاحتفالات الرسمية وخيول السباق من صهيلها. وفي خضم تلك المعمعة والجلبة، سمع فجأة أن الجلادين سينفذون الإعدام في شاب يوناني.

«ماذا فعل؟» سأل الرومي، وتقدّم نحو الجنود.

تعرّف الجنود في الحال على الرومي الذي جلبت تعاليمه أكثر العلماء شهرة في العالم المتحضّر إلى قونية.

«إنه يوناني. لقد قتل أحدهم»، أجاب القائد.

ترجّل الرومي من على حصانه واتجّه نحو المجرم الذي ذكّره وجهه الخائف الشاحب بسهول قونية المكسوة بالثلج، قبل هجوم المغول. فرك يدي الرجل المنكود الباردتين النحيلتين اللتين بدتا مثل دودتين طويلتين ملفوفتين. ثمّ ألقى الرومي رداءه على جسد المجرم المرتعش. هذه البادرة كانت تعني أن اليوناني قد أصبح تحت حمايته، ولا يملك أحد - لا السلطان ولا الأمير ولا الوزير - السلطة لسحب حمايته هذه.

على الفور أرسل القائد الخبر إلى السلطان الذي أجابه، «أطلق

سراح السجين. فقد أصبح في حماية الرومي، قاضي القضاة. وبما أنه تدخّل لصالح هذا اليوناني فإنه يستطيع أن يحصل منّي على رحمة تكفي المدينة برمتها».

نزولاً عند أمر السلطان، فكّ الجلادون سلاسل السجين، وسلّموه باحترام شديد إلى رجال حاشية مولانا. عندها، جثا اليوناني أمام الرومي وقبّل الطين العالق في حذائه.

«ما اسمك؟» سأله الرومي.

«ذريانوس».

«من الآن فصاعدا، أصبح اسمك علاء ذريانوس»، قال الرومي الذي كان يأمل في سريرته أن يحلّ هذا الرجل الذي أنقذه من الموت بأعجوبة ومنحه اسم ابنه الثاني، محل ابنه علاء الذي انفصل عنه في كلّ شيء ماعدا رابطة الدم.

عندما خُتن ذريانوس بعد أن اعتنق الإسلام، وأتقن علوم الدين بإشراف أستاذه، وصار يصوم ويصلي، أصبح مثل معلمه مولعاً بتفسير القرآن وشرح الأحاديث النبوية.

في أحد أيام الشتاء، عندما توجّه ذريانوس إلى زاوية أستاذه الباردة المعتمة لأداء صلاة الفجر، وجد الرومي مستلقياً على الأرض نائماً في وسط كومة من الشموع الذائبة، وهو لا يزال ساجداً لحيته وشارباه تلامس بلاط الأرضية السداسي الشكل. اقترب اليوناني منه ولاحظ بضع قطرات متجمدة عند زاويتي عيني مولانا النائم، فعرف أن أستاذه الذي أمضى الليل كله في صلاة التهجد، كان يبكي. أيقظه بلطف وطلب منه أن يسمح له أن يصبّ ماء دافئاً على وجهه ليذوب الجليد، فقبل الرومي وقدّر اهتمام الشاب اليوناني الذي أخذ يبكي. وبعد أن أصبح ذريانوس واحداً من أكثر مرافقي الرومي إخلاصاً

وولاء، بدأ يرافقه إلى أي مكان يذهب إليه. وفي إحدى المرات، عندما كان يهمّ بمغادرة مسجد ميرام ذي القبة الزرقاء الصغيرة المصقولة التي تتحدّى سماء الصيف والتي ذكّر خزفها الأزرق الرومي ببعض مساجد بلخ، مسقط رأسه، التقى مولانا وذريانوس بالعارف الصوفي حيدري الذي ما إن وقعت عيناه على مولانا حتى غطّى رأسه بوشاح يمني كما تفعل النساء المحجبات عند رؤيتهن رجلاً. ويجب أن أضيف أن هذه الأوشحة كانت تعتبر في ذلك الوقت الأكثر نعومة وجودة في العالم، ولا ريب أنها لا تزال كذلك.

وعندما لامه مريدوه على تصرفه هذا، أجاب العارف، مشيراً إلى الرومي بإصبعه وقال: «أمام علوم هذا الرجل ومعارفه، على جميع الرجال أن يغطوا أنفسهم كما تفعل النساء، ويجب عليهم أن يمكثوا في بيوتهم وإدارة مغازلهم»، ثمّ ارتمى عند قدمي الرومي وانفجر في البكاء.

كان ذريانوس هو الذي علّمني أنا ومولاي اللغة اليونانية، فقد حُكيت لي مثلاً قصّة الوشاح بلغة الإسكندر.

أما بالنسبة إلى علم ذريانوس وسعة اطلاعه، فقد وصل إلى حد، كما تقول الأسطورة، يجعل أكثر العلماء والفقهاء يقفون صامتين أمامه. وبعد أن أصبح من أكثر مريدي الرومي قرباً، كان يتبعه في جميع كشوفه الروحية، وعندما كان مريدوه يسيئون فهمه، كان يضطر إلى مواجهة مشاعرهم العدائية. حتى أن ذريانوس كان قد مَثُل عدة مرات أمام القضاة متهمين إياه بأنه ادّعى بأن الرومي هو الله. وفي رده لهم قال إنه لم يدّعِ قط أن الرومي هو الله، لأنه هو الله حقاً.

«كنتُ كافراً لكنه أطلعني على المعارف العرفانية، وجعل مني

عالماً دينياً وقدم لي المعرفة وساعدني على أن أقدّر الله حق قدره. كنتُ رجلاً أنطقُ اسم الله، فجعلني رجلاً أعرف وجود الله».

قبل أن يموت ذريانوس ويتركني مع الحقيقة الحزينة والقاسية بأن عدد أصدقائي الذين انتقلوا إلى العالم الآخر قد تجاوز عدد الذين يعيشون الآن، روى لي حلماً رآه في حياته الأولى، عندما كان مسيحياً.

«ذات ليلة رأيتُ نفسي في حلم وأنا أدلّك قدمي رجل لا أعرفه. وفي فجر اليوم التالي، بعد أن غسلت يدي ووجهي، غادرت قريتي وتوجهت إلى المدينة. وفي الطريق، ظهر لي الرجل الذي كنت قد رأيته في الحلم، وسألني، «ذريانوس، كيف حالك بعد المشقة التي كابدتها ليلة البارحة؟» فأغمي عليّ من شدة الدهشة. وعندما صحوت، كان الرجل قد اختفى. كنت أعرف أن الحلم هو عن الرومي الذي أنقذني من الموت شنقاً عندما ألقى عليّ رداءه. نعم، كان الرجل الذي كنت أدلّك قدميه هو في الحقيقة مولانا، الرومي».

عندما تم اللقاء بين شمس والرومي، كنت أنا وذريانوس وابنا مولانا في حوالي العشرين من العمر. وكانت الرياضة التي كنا نمارسها أنا وذريانوس يومياً قد صقلت جسمينا، بخلاف أجسام الدراويش والحجاج الضعيفة. وكنت كلما رأيت سلطان ولد - وحتى اليوم، بعد أربعين سنة - لم يكن بوسعي إلا أن أعجب بالتقاء حاجبيه اللذين يشكّلان فوق أنفه رعشة يمتد منهما سهمان أسودان، لكنهما أصبحا رماديين الآن. كانت له عينا والده وكان تبسّطه وتلقائيته مع الناس تترك لدى الذين يلتقي بهم الانطباع بأنهم يعرفونه منذ سنوات. كان يبدو أنه الباب الذي يجب أن يجتازه كل من يرغب في ولوج حديقة والده، باب قد يكون، حسب الظروف، منفرجاً أو مغلقاً أو

موصداً أو مفتوحاً على مصراعيه. نعم، كان سلطان ولد آنذاك، عتبة الوصول إلى أبيه.

أما علاء، فقد كان يجسّد الزيف والبطلان. كانت روحه تعكس جسده: قبيح، كريه، مشوّه. ضئيل الحجم، عديم اللحية، حسير البصر، صوته يتغيّر عندما ينطق عبارة ما، ويتنقل من صوت يكاد يكون طفولياً وصريحاً إلى نبرة غليظة لرجل شرير. وكان يستطيع، في نفس واحد، أن يستخدم أشكالاً متطوّرة من التهذيب والإهانات الأكثر فظاظة وسوقية تفضي إلى نتائج غريبة، فعلى سبيل المثال عبارة، «أنت يا من تنحني السماوات أمامه، ضع مؤخرتك على الأرض». نعم، سمعت في أحيان كثيرة ابن الشاعر العظيم يعبّر عمّا يجيش في نفسه بهذه الطريقة.

ورزق الروميُّ من زواج ثان بطفلين، صبي وفتاة، سيتركان كما يخيّل إليّ انطباعات عديدة في الذاكرة. أما أمّهما، كيرا، فقد كانت الجزء الانثوي من قصّة امتلأت بالرجال. ولما كانت تصغر مولاي سناً، فقد تعين عليها أن تقبل، بصعوبة، تحوّله بعد لقائه بشمس. فقد اضُطرت إلى قبول هجر زوجها لحلقات التعليم الراقية التي تبحث في مسائل التوبة والإيمان بالله، وانتقاله إلى إقامة جلسات الرقص والموسيقى والدوران؛ وتعين عليها أيضاً أن تقبل غياب الرومي عنها، لانشغاله في استكشاف «مدن العشق السبع» مع رجل يكبره سنّاً.

كانت امرأة جميلة في نظر الغرباء، ولم يكن بوسع ذريانوس أن يمتدحها بأريحية. أما الفرس، فعلى الرغم مع أنهم كانوا مكشوفين أمام جمالها، لم يستطيعوا رؤيته. وادّعت أن الصينيين القلائل - ربما كانوا من التجار - الذين كانت تمر من أمامهم عند ناصية

الشارع، لم يكونوا ينظرون إليها بسبب الفروق الكبيرة بين قسمات وجهها وبين مثالهم في الجمال. فقد كان وجهها طولانياً، أما فمها الذي كنت أراه أحياناً بالرغم من حجابها المنسدل، ليغفر لي مولاي ذلك، فقد كان واسعاً، وذقنها ناتئة بعض الشيء. وعندما كانت تضحك، كانت تكسو وجهها تجاعيد بسبب تلك الليالي التي تمضيها وحيدة، ليالي الشكّ الذي كان ينهشها. أما بالنسبة لي، فقد كانت- لم يكن هناك شك حول ذلك، تمثّل الأمّ. وعندما كانت تبرز تعقيدات أو صعوبات، كانت عزلتها تمنحها السكينة والراحة. ولم يخفت حبّ الرومي واحترامه لها حتى نهاية حياتها. وكان الرومي شديد الغيرة عليها، حتى أنه لم يكن يسمح لها بأن تلتقي بنساء أخريات إذا لم تستأذنه. وفي أحد الأيام فعلت ذلك. وعندما عادت، تنبأ لها الرومي، كما لو أنها لعنة، بأنها ستعاني طوال حياتها من البرد. ومنذ ذلك اليوم، أصبحت كيرا شديدة الحساسية تجاه البرد. وأصبحت تتلفع بفراء الثعلب حتى في منتصف الصيف. وكنا نعرف جميعاً أنها في غرفتها لم تكن تبتعد عن الموقد. وعندما كانت تسافر، كانت تأخذ معها شمعة مشتعلة لتدفئ بها وجهها.

ولكي أكمل دائرة الأصدقاء المقرّبين، يجب أن أتحدّث الآن عن صلاح الدين، صائغ الذهب الذي التقى بالرومي للمرة الأولى في أحد أيام الجمعة في مسجد أبو الفضل في قونية، قبل لقاء الرومي وشمس التبريزي بفترة طويلة والتغيير الذي نجم عن ذلك، قبل أن أُقبل أنا في دائرة مريديه بفترة طويلة.

ففي أحد الأيام، بينما كان يلقي موعظته، سمع الرومي شخصاً يطلق صيحات مرعبة. راح ينظر إلى الرجل الذي أخذ يقترب من منبره، ثم خلع عمامته وأطلق شعره، وألقى بنفسه عند قدميه. توقف

الرومي عن إلقاء موعظته، وانتحى بالرجل «الممسوس»، وهدّأ من روعه، وجعله يتكلّم، ثم قدم له بيده كوباً من الشاي، شاي أحضره من الصين مباشرة أحد مريديه المخلصين، وهو تاجر دائم البحث عن سلع جديدة.

كان للرومي ولهذا الرجل الذي يدعى صلاح ذات المعلّم عندما كانا شابين صغيرين. وكان والد صلاح صيّاد سمك، أما هو فكان يعمل صائغ ذهب. هذا كلّ ما عرفه الرومي في يوم الجمعة ذاك، الرجل الذي ألقى بنفسه مثل جثّة عند قدميه، الرجل الذي حلّ بعد فترة طويلة، بعد اختفاء شمس، محل الشخص الذي لم يكن بالإمكان استبداله بالنسبة للرومي.

أبقى الرومي صلاح إلى جانبه، لكنه لم يشاركه اضطرابه. وعلى نحو يثير الفضول، فضّل صحبة هذا الشخص الجاهل الذي يكاد يكون أمّياً على صحبة العلماء. سأتحدث عنه ثانية في مناسبة أخرى.

أما أنا، فقد حان الوقت لأكشف عن اسمي. فأنا أدعى حسام الدين، وأتحدّر من أسرة عريقة. وقد توفي والدي قبل اللقاء الشهير بين شمس والرومي بفترة وجيزة.

كنت شاباً عندما توفي والدي. وقبل أشهر قليلة، عندما أدرك أنه سيغادرني في وقت قريب، ألحّ عليّ بأن أقترن بفتاة تنتمي إلى أسرة طيبة. وهكذا تزوّجت وانتقلت لأعيش مع زوجتي في بيت أسرتها في فاليراس التي تبعد مسافة ساعتين سيراً على الأقدام من قونية. ولم يكد أبي يموت، حتى جثا جميع رفاقه المسنين، بلحاهم البيض، ونعالهم المدببة عند أصابع القدمين، وقبعاتهم الطويلة المستطيلة على رؤوسهم، المسلّحين بخناجر مقوّسة بمقابضها المرصّعة بالفضة - الزيّ الذي يميّز طريقة الفتوّة «الآخيّة» - أمام هذا المراهق الذي كنته

آنذاك، وطلبوا مني أن أحلّ محلّ والدي المتوفى لرئاسة زاويتهم (صومعتهم)، أنا الذي لم أكن أفكر إلا بممارسة الرياضة والمبارزة بالسيف والمصارعة، لكنني شعرت بأنني بحاجة إلى تعلّم أكثر مما أعرف ورفضت تحمل هذه المسؤولية الثقيلة حتى على كتفي العريضين.

وبعد فترة وجيزة أحضرني رجل عجوز، مُقَدَّم في زاويتنا، إلى أشهر أهالي قونية، الرومي.

وفي اللحظة التي ألقيت فيها بنفسي عند قدميه، أمسك بيدي، اعتصرها ثمّ داعب لحيتي الحديثة النمو وطلب مني أن أطلقها. وعلى الفور لم أقرّر إطلاق لحيتي فحسب، بل قرّرت أن أحضر مدرسة أجلّ العلماء، وأبتهج بحضوره بقدر ما أستطيع.

وقد شجّع قراري هذا عدداً من أصدقاء أبي الآخرين فحذوا حذوي. وقررت أن أغلق زاوية أبي، وأكملت تعاليمها بتعاليم الرومي، وأضفت ميراث أبي إلى أموال مرشدي الجديد.

عندما حدث ذلك اللقاء، كنت لا أزال شاباً صغيراً ولم تكن تشغلني سوى فكرة تحسين قدراتي الجسدية، وكنت أمضي في حجرة سلطان ولد فترات أطول مما كنت أمضيها مع والده المشهور الذي كان يعتبرني شاباً ذكياً بين آلاف آخرين لكن الفرق هو أنني كنت أتبرع بانتظام إلى إدارة مؤسسته مما أثار حزن وفزع رفاق والدي. وبفضل تدخّل ذريانوس اليوناني والصداقة الخاصة جداً التي جمعتنا - فقد كان لدينا نفس الاهتمام بممارسة الرياضة - تمكنت أخيراً من ولوج دائرة الرومي الداخلية، والبروز من بين هذا العدد الكبير من الطلاب. كنت أجد متعة في ممارسة التمارين الجسدية، لكن الأهم من كل ذلك، أنني كنت أستمتع بكتابة وتدوين الحوادث اليومية.

بتتبع خطوات الرومي، كنت بالنسبة إليه القلم الرائع، غير المرئي، الدهشة، التحوّل، الاندثار، وسأكون كذلك، لكن بعد زمن، أصبحت كاتب المثنوي، ذلك العمل العظيم، الذي دأبت وشجعت على إنشائه.

كنا نُعرف بالصوفيين. لماذا؟ لا أعرف تماماً. يقول البعض لأننا نرتدي ثياباً بسيطة مصنوعة من الصوف، لكننا لم نكن كذلك. في واقع الحال، لقد قرّرنا أن نتبع داخل الإسلام طريقاً روحياً معيناً، لم نكن نسعى إلى تحصيل العلم، بل إلى تحصيل المعرفة، الفهم الذي يتضمن الإقرار بأن الإنسان غير قادر على إدراك الله، لأن المعرفة هي ما يأتي إلينا من الآخرين، أما الفهم فهو ما نكتسبه نحن بأنفسنا.

اليوم، بعد أن طعنت في السن ووهن العظم مني، يمكنني القول إن العجز عن الإدراك هو إدراك. اليوم، بعد أن أصبحت معلّماً، فإني أشرح لتلاميذي أنه بغية إدراك الأبعاد المختلفة للإسلام، يجب أن يتخيّلوا دائرة يمثّل محيطها الشريعة، الدينَ الظاهري، ويمثّلُ نصف قطرها الطريقةَ، الدينَ الباطني، والمركز هو الحقيقة، الحقيقة الإلهية. إن الشريعة والطريقة، المحيط ونصف القطر، يعكسان المركز، كلّ بطريقته. لقد اخترنا، نحن الصوفيين، الطريقة، المسلك الذي يقتضي أن يخطو المرء خطوة واحدة خارج نفسه لكي يبلغ الله. إنها عملية تقدم بطيئة، مسلك، حجّ. وثمة اسم آخر للصوفي أيضاً وهو «السالك» ويعني «الحاج». إن هدفنا النهائي هو أن نرتقي داخل أنفسنا، بدءاً من الخارج المعتم نحو الداخل المنير، ومن الداخل المنير نحو الله. في الأعماق داخل نفسه، يجد الباحث الله، وبهذا المعنى، أذكر أحد أشعار الرومي:

لا تظننّ أن هذا الرجل الفقير
يبحث عن كنز،
لأنه هو نفسه الكنز.

أما بالنسبة إلى الرومي، وهو أعظم صوفي في جميع الأزمان، وسيبقى كذلك، فإن العشق هو أسطرلاب أسرار الله. فمن خلال العشق ينحو الإنسان إلى العودة إلى مصدر وجوده. وعلى هذا الطريق، طريق العشق، فإننا نحتاج إلى معلّم، إلى مرشد، وهنا أذكر أيضاً فقرة من مثنوي الرومي الذي كان لي شرف تدوينه عندما أملاه عليّ، عندما ناداني، وقال:

يا ضياء الحق، يا حسام الدين،
خذ صفحة أو صفحتين،
واكتب عن طبيعة العارف بالله.
اختر بنفسك عارفاً،
لأن هذه الرحلة ستكون من دونه،
مليئة بالمعاناة والخطر والخوف.
لقد سافرتَ كثيراً على هذا الطريق،
بلا مرشد، واعتراك قلق في داخلك.
على طول الطريق لم تفهم شيئاً،
فلا تسافر وحدك، ولا تنكر المرشد.

بالنسبة إلى الرومي، لم يكن هذا المرشد، هذا الدليل، والده، سلطان العلماء؛ ولم يكن الترمذي الذي طلب منه أن يسافر إلى دمشق بحثاً عن المعرفة، وفرض عليه ألف يوم ويوم من الزهد

والتنسك. بالنسبة إلى الرومي، فإن المرشد، الحكيم هو شمس التبريزي، الرجل العجوز في البرد، الذي كشف له في لحظة، في لقاء واحد، العالم في داخله. أما بالنسبة إلي، أنا حسام الدين، فإن المرشد، العارف، لم يكن سوى الرومي. وخلال فترة كتابتي هذا الكتاب، كنت أنا نفسي، مرشد آلاف مؤلفة من الصوفيين.

منذ اللقاء الذي جرى بين الرومي وشمس، اشتُهرت طريقتنا بإقامة الرقصة الروحية، السماع، أو رقصة التنورة، التي يدخل فيها الراقص في حالة يدرك فيها لحناً سُمع من قبل، أُدرك خارج الزمن، وكان الرومي يقول: «ثمة طرق عديدة توصل إلى الله، أما أنا فقد اخترت طريق الموسيقى ورقص السماع»، وقد سلك هذا الطريق بعد لقائه بشمس. قبل ظهور شمس، كان الرومي يعيش في ظلّ المكتبات العامة يكابد آلام الزهد والحرمان والصوم. أما مع شمس فقد بلغ مرتبة العشق الإلهي.

أشعر بالندم والأسف لأنني لم أكن موجوداً عندما اختفى شمس، فلم أتمكن من حضور لقائهما الذي حُكي عنه الكثير وغُني ونُمق وعُلّق عليه، لكنّي كنت موجوداً عندما أمسك شمس بيد الرومي وقاده إلى الحجرة التي مكثا فيها أربعين يوماً وأربعين ليلة وحدهما.

وفجأة، رأيت...

أغلق باب غرفة نومه بحذر، مستخدماً ثلاثة أقفال. رجل غير معروف، ربما كان تاجر سكّر، غادر الحجرة المجاورة وألقى عليه التحية. رد التحية بصوت يكاد لا يكون مسموعاً ورافقه إلى صحن الخان، لكنه استدار فجأة وعاد بسرعة ليتأكد من أن باب الحجرة مقفل مع أنه لا يوجد فيها سوى حصيرة مهترئة وإبريق مكسور، وقطعة حجر تستخدم وسادة. تيقن من أن الباب مغلق بإحكام الآن. وضع المفاتيح بحرص شديد في كيس كبير مبقّع بالحبر، ثم ألقاه على كتفه كأنه صرة صغيرة.

لم يكن أحد يعرف عمره. يقول البعض إنه في الستين من العمر وأن اسمه محمد ملك داد، لكنه يُعرف باسم شمس. *الطير*. غادر الخان. أغلق خلفه الباب المزدان برسوم.

«أنا الرجل العجوز في البرد»، كرر شمس هذه العبارة، ثم جلس بعد أن سار مسافة فوق الجليد. لم يتمكن حائك السلال ولا أيّ تاجر آخر من إقناعه بشراء أيّ شيء أمام باب خان تجار السكّر الذي ينزل فيه.

في هذا الوقت من اليوم، ينهمك الجميع في أعمالهم. اقترب موعد صلاة الظهر. توجّه البعض إلى المسجد الجامع، الجامع

الكبير، وتلفّع آخرون بعباءاتهم وهم يحملون أرغفة خبز كبيرة في لفائف تحت أذرعهم، أرغفة طازجة خرجت للتو من الفرن، يغذون الخطا لكي يصلوا إلى بيوتهم قبل أن تبرد ويحترق الرزّ فلا يعود صالحاً للأكل. أما النساء المتلفعات بأحجبتهن واللاتي تتبعهن خادماتهن فكن يمشين بحذر شديد فوق الجليد، يخشين الانزلاق والسقوط، فيفسدن سحر مرورهن العابق برائحة الورد والمسك. وكان آخرون، رجال دين تعلو رؤوسهم العمائم، وأطراف أصابعهم مبقعة بحبر أسود، يشقّون طريقهم إلى المدرسة للاستماع إلى دروس الخطيب الكبير الذي قدم من أصقاع بعيدة، من أطراف المعمورة: الرومي الذي يطلق عليه الجميع اسم *مولانا*.

يراقبهم شمس. ينتظر، يرتعد من البرد. يقول لنفسه: لا يمكن لأحد أن يشكّل مشهداً كهذا إلا الله. فليس بإمكان أي فنان سواء أكان رسّاماً أم شاعراً أم مؤرخاً أم عالم رياضيات أن يتخيل هذا المشهد بتفاصيله الدقيقة، بهذا القدر من التلقائية والطبيعية والحيوية، بمثل هذه السهولة، تكاد تكون بلا مبالاة، لكنها بالرغم من كل شيء، شديدة التعقيد.

انتظر شمس. البرد يحيط به. تطلّع حوله.

ثمّ خرج رجل من مدرسة تجار القطن ممتطياً بغلاً ومريدوه وأتباعه يسيرون في ركابه. كان أصفر البشرة، نحيلاً، يعتمر عمامة بيضاء كبيرة ويرتدي جبّة من جلد الخروف فوق ثوب صوفي طويل، وينتعل حذاء جلدياً طويلاً مبطناً بالفرو لحماية قدميه من البرد القارس.

فتح شمس عينيه اللتين لفحتهما ريح قوية. ما إن وقعت عيناه على الرجل الممتطي ظهر البغل حتى عرف أنه هو الرجل الذي

يبحث عنه. لم يساوره أدنى شك في ذلك. فهو نفسه الطالب الذي كان قد التقى به منذ خمس عشرة سنة في الميدان الرئيسي في دمشق. ذلك الشابّ الذي لم يكن قد نضج بعد، ولم يعرف كيف «يمسك» بيده. أما اليوم، في السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ للهجرة، فإنه يبدو قد نضج. لقد تغيّر هذا الرجل الذي رفض الاستجابة لتوسل شمس، «يا صرّاف عالم المعاني، أدركنا». أما الآن، فها هو قد نضج. إنه الرومي. ربما حان الآن موعد اللقاء الذي طالما انتظره. لا بد أن اللحظة المناسبة قد حانت.

مرّ الرومي على بغله، يتبعه طلابه ومريدوه، من أمام خان تجار السكّر. قفز شمس أمامه وشدّ لجام البغل بعنف، فأوقف البغل وممتطيه.

سادت لحظة من الذعر لهذا الظهور المفاجئ العنيف. تحلّق المريدون حول سيدهم وحاولوا دفع هذا الرجل العجوز الذي لا يتصرف بعقلانية. نعته بعضهم بالمجنون. وبغية حماية سيده، دفع ذريانوس اليوناني شمساً بقسوة شديدة ووقف حائلاً بينه وبين الرومي، مسنداً ظهره الغليظ إلى البغل. متململاً فوق بغله، استعاد الرومي رباطة جأشه بسرعة. إيماءة واحدة بيده كانت تكفي لتهدئة هذا الاضطراب الذي حدث. لا خطر. دعوا الغريب يتكلّم.

انتصب شمس بقامته الطويلة، وسأل الرومي بصوت أجش: «من الأعظم، أبو يزيد أم النبي؟»

كان الرومي يعرف جيداً كلمات الصوفي العظيم أبو يزيد البسطامي وأعماله عن ظهر قلب. فقد قرأ كثيراً، وأعاد قراءة فقرات من كتاب «تذكرة الأولياء»، الذي أشار فيه العطّار إلى هذا الشخص غير العادي المعروف باسم «سلطان العارفين» و«حجة الباحثين» في

كتاب «الصلاة اللانهائية». وحتى الآن، عندما أعود إلى نسخة مولانا الشخصية، فإن الكتاب يُفتح وحده على الصفحات العشر التي تتحدث عن أبي يزيد والتي اهترأت من كثرة القراءة.

«أنفقت ثلاثين سنة وأنا أبحث عن الله. وفجأة رأيت: كان هو الذي يبحث عنّي». طالما كرر الرومي عبارة البسطامي هذه. جاثياً، كان يدعو البسطامي عند نهاية كلّ صلاة ويتأمّل ما ورد في كتاب «الصلاة اللانهائية» منذ قرابة أربعة قرون: «عندما تركتُ البسطامي، كما تنزع الأفعى جلدها، رأيت: الحبيب، العاشق، والعشق واحد. منذ ثلاثين سنة، جعلت الله مرآتي. أما الآن، فقد أصبحتُ مرآة نفسي».

أحياناً يبدأ الرومي بجملة تقول: «إن مثالي هو البحر الذي لا يُرى عمقه ولا بدايته ولا نهايته». قلة قليلة من الناس يعرفون أن هذه العبارة كان قد قالها البسطامي، وقلة قليلة تعرف ما يعقب ذلك: «أنا السماء التاسعة. أنا العرش القائم في السماء التاسعة. أنا إبراهيم وموسى ومحمد. أنا جبريل وميكائيل. أنا إسرافيل وعزرائيل».

«من أعظم، أبو يزيد البسطامي أم النبي؟» سأل شمس الرومي. لم يعد الرجل العجوز يشعر بالبرد، لم يعد يعبأ بالريح، وبالمريدين المضطربين. كانت عيناه تنتظران إجابة الرومي. في وقت لاحق، في إشارة منه إلى عمق هذا السؤال، قال الرومي إنه جعل السماء تنبسط فوق الأرض.

«محمد أعظم»، قال الرومي، وأحسّ كأن لهباً هائلاً انبعث من رأسه صوب الغيوم الواطئة، وتابع قائلاً: «لأن البسطامي أخذ جرعة واحدة فأخمد عطشه، وهو ما لا يتناسب مع وعاء فهمه. أما عطش محمد فكان عظيماً لا حدود له. كان عطشاً على عطش. كان دائم

العطش. وعندما وصل أبو يزيد إلى الحقيقة، شبع فوراً ولم يعد يبحث عن المزيد. أما محمد، فكان يتقدم يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، ولم يتوقف عن رؤية الأنوار الإلهية والجلال والأبهة والحكمة، لذلك كان يدعو الله ويقول إنه لن يستطيع أن يعرفه قدر حقه».

هنا غشي على شمس. إغماءة حقيقية. لاحقاً، قال إنه في تلك اللحظة، لم ير الرومي في الرومي، بل رأى نفسه. استلقى شمس على الأرض، وترجّل الرجل الآخر من على ظهر بغله، وطلب من مريديه أن يحملوا الغريب بعناية ويعاملوه باحترام شديد - وأصرّ قائلاً: «باحترام شديد» إلى المدرسة. شقّ سلطان ولد، أحد ولدي الرومي، الذي كان آنذاك في الثامنة عشرة من عمره، والمقرّب كثيراً من والده، طريقه في الحشد، ورفع رأس شمس، ثمّ جسمه. وبمساعدة المريدين الآخرين، أسند الجسد الضامر الهامد على ظهر البغل.

توجّه الحشد إلى المدرسة التي يدرّس فيها مولانا. اجتازوا الباب ودلفوا إلى الفناء المربّع. كان بيت الرومي يتألف من قسمين: المسكن والمدرسة. وفي وسط البيت، الجزء المخصص للأسرة والمريدين المقيمين، توجد حجرات النساء، «الحرملك». وتقع المدرسة قبالة الشارع. عندما خيّل إلى المريدين أن جسد شمس الغائب عن الوعي هو جسد مولانا، اندفعوا خارجين من حجراتهم، واصطفوا أمام جدران فناء المدرسة من الجهات الثلاث، وراحوا يحدّقون في البغل وفي الشخص المحمول عليه، مذعورين. غادر بعضهم الرواق المغطّى بجانب الغرف وتقدموا بضع خطوات وخرجوا إلى الفناء لعلهم يتبينون حقيقة ما حدث؛ وغادر العارفون

والعلماء الحجرة الكبيرة التي يلتقون فيها، واصطفوا عند الجهة الرابعة من الفناء؛ وخرج مسؤولو الحكومة الذين كانوا قد جاؤوا للاستماع إلى تفسير الرومي عن السلطة، من المكتبة القريبة، أكثر الأماكن ارتياداً في المنطقة. ويقال إن السبب الحقيقي والوحيد الذي دفع والد الرومي إلى الاستقرار في قونية هو رغبته في أن يتنشق، في الأمسيات العليلة، رائحة «كتاب خانة» (بيت الكتاب) هذا الذي قدمه السلطان هدية إلى ضيفه الجليل.

اندفعت النساء اللاتي لم يرين البغل ولا الرجل المحمول على ظهر البغل إلى الفناء الداخلي المليء بالأشجار التي تعرت من أوراقها في هذا الخريف البارد؛ وتجمّعت البجعات في زاوية البركة، وهو أمر لم يحدث من قبل. وفي وسط البركة نصف الفارغة، اهتزت نافورة متوقفة عن العمل كانت تنتظر بشوق حلول طقس أكثر اعتدالاً ودفئاً، وحتى مساكب الأزهار التي تترقب تناوب الفصول المعتاد ومجيء الربيع، ارتعشت لهذا الهياج المفاجئ الذي بدا أنه عكّر مؤقتاً التناسق الحتمي لهذه الحديقة الجميلة. حاول سلطان ولد أن يهدئ من روع الناس. لا، لم يكن والده، فهو يسير بضع خطوات وراء البغل. فالرجل الذي أغمي عليه هو رجل غير معروف، يبدو أنه درويش عجوز. تفرّق الحشد على الفور. ثم تقدم ذريانوس المتين البنية، وضم شمس بين ذراعيه وحمله إلى القاعة وأُغلقت الأبواب في وجه المريدين المذهولين.

بعد خمس عشرة دقيقة أفاق شمس على صوت الرومي الذي كان يحكي هذه القصة: «كان تاجر فارسي مشهور يعدّ العدة للسفر إلى الهند. قبل انطلاقه في رحلته، جمع جميع أفراد عائلته - الأسرة والخدم، بل وحتى الحيوانات الأليفة. ولمّا كان رجلاً كريماً،

سألهم ماذا يرغبون في أن يحضر لهم من هدايا، فأجاب كلّ واحد منهم وطلب طلباً مختلفاً. وعندما سأل كل واحد بدوره، قال الببغاء: «اذهب إلى الغابات، وعندما ترى الببغاوات من بني جلدتي، انقل لهم تحياتي واسألهم نيابة عني هل من العدل أن يعيشوا جميعاً معاً فوق أغصان الأشجار بينما أعيش أنا هنا وحيداً محبوساً في قفص. اسألهم هل من العدل أن أموت هنا، بعيداً ووحيداً».

عندما وصل التاجر إلى الهند توجّه إلى الغابة والتقى فيها ببغاء برّي ونقل له أسئلة طيره المحبوب. ولم يكد ينهي كلامه حتى بدأ الطير يرتجف وسقط عند قدميه، ولم يعد يتنفّس ومات في الحال. حزن التاجر كثيراً وأسف على ما قاله له. وعندما عاد التاجر وزّع الهدايا التي أحضرها على أفراد أسرته. وعندما جاء دور الببغاء، حكى له قصة موت الببغاء البري المؤسف. وما إن أنهى التاجر كلامه، حتى ارتعش الببغاء في القفص، واعترته برودة ثم سقط على أرضية القفص ومات. بكى التاجر طويلاً حزناً على موت طيره الذي كان له صوت رائع، رفيقه ومستشاره. وما إن فتح التاجر باب القفص وأخرج الطير الميت، حتى رفرف الببغاء الميت جناحيه وطار وجثم فوق قمة أعلى شجرة. فزعاً، سأل التاجر طيره الحيّ عن سبب تصرفه الغريب، فأجابه الطير، «لقد أخذتُ بنصيحة الببغاء الحكيم. فعندما تظاهر بأنه مات أراني كيف يمكنني أن أهرب. لقد آن الأوان لأن أصبح حرّاً طليقاً». فاستسلم التاجر الحزين لخسارته هذه وودّع أسيره السابق.

فتح شمس عينيه. أدرك أنه في غرفة يوجد فيها «كورسي» وهو عبارة عن طاولة طويلة واطئة عريضة مكسوة بالبسط، يمدّ الزوّار تحتها أرجلهم ويقربونها من موقد يوضع تحت الطاولة. وخلال الشتاء، تستخدم الحجرة التي يوجد فيها «كورسي» مقراً رئيسياً ينام

فيه الرجال ويأكلون ويشربون ويستقبلون الضيوف ويدرسون ويتحدثون، ويهرمون ثم يموتون أخيراً. مدّ شمس ساقيه تحت الكورسي. كان يسند رأسه إلى ركبة الرومي الذي يتّكئ إلى بعض الوسادات الكبيرة المكسوة بالبسط.

أما الرومي الذي انتظر طويلاً الرجل الذي سيوقظه - رجل لا يعرف من هو - فقد رأى الرجل الذي سيحرك جفنيه. قال له، كما لو كان يريد أن ينهي قصته عن التاجر والببغاء: «بالنسبة لي، فإن الحرية هي أن أدخل في قفصك»، ثمّ أضاف، «أصبحت هكذا فجأة عندما رأيتك».

وضع يده على شعر شمس الشائب ومسّده برقة. انتصب شمس في جلسته. رأى حول الكورسي دائرة من الرجال البارزين الذين زُيّن الجزء الأعلى من أثوابهم الحريرية - لأن الجزء السفلي مخفي تحت الغطاء الذي يكسو المنضدة - بأحجار من العقيق ومطرّزة بخيوط ذهبية، وأنواع من الأنسجة المطرزة بألوان متعددة تتطابق مع عمائمهم. كان يبدو أن هؤلاء الرجال يتردّدون كثيراً على بلاط السلاطين وقصور الأمراء. كان أحدهم يحمل في يده مسبحة من الياقوت، وكلما مرّر خرزة بين أصابعه، كان يردد أحد أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، وكان رجل آخر يمسّد حنجرة عندليب يقبع في تجويف راحة يده، وهو نفس الرجل الذي كان الرومي يحكي له قصة التاجر والببغاء.

كنت أنا وذريانوس هناك، مندهشين كالآخرين. هل يظن شمس أننا نحن أيضاً من طبقة النبلاء بالرغم من صغر سننا؟ هنا بدأ الأمر غير العادي، بإشارة بسيطة.

فقد لاحظ شمس عيون المريدين المشدوهة. كان يبدو أنهم لم

يفهموا موقف معلمهم. وكنت أعرف أنا، الأكثر تواضعاً بينهم، كيف أفكر. لاحظت أن ذريانوس، صديقي اليوناني، الجالس إلى جانبي، قلق. نهض شمس بقامته النحيفة مثل شراع سفينة غازية، وأمسك بيد الرومي وقاده نحو الباب وغادرا الحجرة التي يوجد فيها الكورسي. تبعناهما. دارا حول الرواق المغطّى، وتوقّفا أمام حجرة صغيرة.

سمعت شمس يقول لمولانا: «لقد دخلتُ صداقتك بوقاحة وبجرأة». ردد الرومي لسلطان ولد، ابنه البار، هذه الأبيات:

فوق عربة الفجر طلع قمر،
من العربة جاء يحدق بي.
مثل صقر يسرق طيراً،
سرقني القمر وجرى صوب العربة.

وأضاف: «لقد سُرقت».

أُغلق باب الحجرة وراءهما. لم يغادراها طوال أربعين يوماً. صاما مدة أربعين يوماً من أجل الاتحاد مع الحبيب.

قيلت أمور كثيرة عن هذا اللقاء الحاسم الذي أسفر عن خمسين ألف بيت من الشعر، تاج الأدب الصوفي. وقال بعضهم إن اللقاء جرى في مكان آخر، وفي ظروف أخرى. لقاء إعجازي وصفه بعض المؤلفين بالبراعة، شيء خارق للطبيعة. هل ظهر شمس حقاً أمام الرومي، من دون أن ينبس بكلمة واحدة، من دون أن يسأله أيّ سؤال ذي طبيعة روحية؟ وهل سقط الآخر، مثل ثمرة ناضجة من شجرة؟

يروي أحد كتّاب سيرة الرومي كيف حصل اللقاء غير العادي في

بيت مولانا، في مكتبته. وحسب ما ذكر ذلك الكاتب، فقد كان مولانا يناقش مع مريديه بعض المسائل الدينية. دخل شمس وسلّم وجلس على الأرض، ثم أشار إلى الكتب، وسأله، «ما هذا؟» فقال له الرومي: «أنت لا تعرف ما هذا؟»، ولم يكد مولانا يكمل هذه العبارة حتى اشتعلت النار في الكتب وفي المكتبة. فسأل الرومي، كما قال ذلك الراوي: «ما هذا؟» فقال شمس: «أنت أيضاً لا تعرف ما هذا؟» ثم نهض ومضى محوّلاً الرومي، هذا الرجل الصارم المتزمت الذي أمضى جلّ وقته حتى ذلك الحين في محراب المسجد، إلى عاشق مشبوب العاطفة، جوّاباً يطوف جميع الأماكن، أي مكان، ليحتفي برقصة الروح.

وحسب ما حكى كاتب آخر، حدث اللقاء قرب حوض ماء، كان الرومي جالساً بجواره يضع أمامه عدّة كتب. اقترب شمس من مولانا، وسأله: «ما هذه الكتب؟» فأجاب الرومي، «هذه يسمونها قيل وقال، أي شأن لك بهذه؟» فأخذ شمس الكتب ورماها كلها في الماء، فقال الرومي بتأسف شديد، «أيها الدرويش، ماذا فعلت؟ إن بعض هذه الكتب من فوائد الوالد، ويستحيل الحصول عليها مرة أخرى»، فغمر شمس يده في الماء وأخرج الكتب واحداً تلو الآخر. حتى أنها لم تكن مبللة، كما ذكر الراوي، ولم يؤثّر الماء في أي منها. فقال مولانا الرومي: «أيّ سرّ هذا؟» فأجاب شمس، «هذا ذوقٌ وحالٌ، إنك لا تعرف شيئاً عن هذا؟»

وروى دولتشاه، حكاية مختلفة، يمتزج فيها الكثير من الأسطورة والمجاز، عن اللقاء والاضطراب الذي حدث بعد ذلك. فقال كان مولانا راكباً حصاناً، فسأله غريب: «ما الغرض من هذه المعاناة، وإماتة الجسد، وتكرار العلم؟» فأجاب مولانا، «اتّباع السنّة وآداب

الشريعة»، فقال شمس: «العلم الذي لا يحررك من نفسك، فالجهل أفضل منه كثيراً».

نقل جميع هؤلاء الرواة قصصاً غريبة. وادّعى كلّ منهم أنه رأى أشياء بأمّ عينه، لكن لا أهمية حقيقية للظروف الحقيقية هنا، لأن ولادة كانت تتهيأ منذ سنوات، وقد رأيتها أنا تحدث. فقد كنت، أنا حسام، موجوداً عندما استوى شمس واقفاً، وأمسك بيد مولانا، وقاده إلى تلك الحجرة. نعم، كنت هناك وسمعت الرومي، قبل أن يلجأ إلى الخلوة، يقول لابنه البار: «لقد سُرقت». رأيت الباب يُغلق ويجثو سلطان ولد أمام الباب.

يصعب التحدث عن تلك الحماسة بكلمات بسيطة. سواء أكانت دهشة مولاي، مولانا، فقد كان الرومي صنيعة كتب التهمتها النار أو غمرت في الماء وعادت بمعجزة، أو بسبب حوار روحاني، حدث اللقاء بغتة، على نحو غير متوقّع، صادم. لقاء غير ممكن بين درويش غير معروف وعالم دين جليل تطبق شهرته الآفاق، ينتهي بأن يقول الرجل المذهول للرجل الذي أثار كل تلك الأمور بعبارة «لقد أصبحت هكذا فجأة بعد أن رأيتك».

في عصر ذلك اليوم في أواخر الخريف، كان يحدونا الأمل، نحن المريدين الذين كنا قد بدأنا نزداد تململاً، بأن يخرج من تلك الحجرة، على الأقل لساعة الدرس الذي كان مخصصاً في ذلك اليوم للحديث عن صعود النبي إلى السماء «المعراج» السلّم الذي يتماهى مع كيان الإنسان. لكنه لم يخرج. قلنا لأنفسنا إن مولانا الذي كان يحبّ أن يصلي المغرب مع مريديه. لا بد أن يخرج عند المغرب، لكنه لم يخرج أيضاً. شعر سلطان ولد، ابنه البار، أن هذه الخلوة لا تشبه أي خلوة من قبل. فأرسل في طلب زوجة أبيه، كيرا، التي

تزوّجها الرومي منذ سنتين، في زواجه الثاني. ففعلت شيئاً غير معهود، ودخلت إلى الحجرة التي يلتقي فيها الرجال ولم يكن حجابها محكماً، وهو أمر قد يؤدي إلى وقوع كارثة، وسألتهم عن حقيقة هذا الرجل الدخيل.

«هل يعرف أحدكم من هو هذا الرجل؟»

لم يردّ أحد.

هبط الليل. بدأ الرجال يتفرقون الواحد تلو الآخر.

طلب سلطان ولد من كيرا أن تعود إلى حجرتها. على الرغم من القلق الذي كان يعتريها، فقد نفذت طلب سلطان ولد. قبل أن آوي إلى الفراش، اقتربتُ من الحجرة بحذر شديد. ومثل جميع الحجرات الأخرى، كانت تعلوها قبة صغيرة مزخرفة. ألصقت أذني بالباب. لم أسمع أي جلبة، ولا حتى أي كلمة. كان الرجلان وحيدين، صامتين في الجانب الآخر من الباب.

في اليوم التالي، تجمّع المؤمنون وآخرون في المدرسة. زعم البعض أنّ شمس - فقد بدأوا يعتادون الآن على الاسم الذي أطلقه عليه الرومي عندما التقيا، مشعوذٌ، ليس إلاّ ساحراً. وأبدى بعض المريدين الذين قدموا من بغداد، ومن الشرق، ومن فرغانة، ومن سمرقند، ومن دلهي عن استيائهم وانزعاجهم.

«ما الجدوى من تجشم عناء كل هذه الرحلة لتكريم معلّم يختفي لمجرد رؤيته شخصاً تافهاً، لا يُعرف نسبه؟» مع رجل عجوز بالغ الحساسية، كما قال لنفسه ذريانوس الذي كان حاضراً عند لقائهما، ولاحظ سلوك شمس.

لم يجرؤ أحد على الدخول إلى الحجرة الموصدة وقطع خلوتهما. اقترح بعضهم بأن ننادي الرومي من وراء الباب لتذكيره

بتعاليمه وواجباته تجاه أسرته. وطوال الليل، لم يغمض لكيرا جفن، وهي تبحث عن سبب عزلة زوجها، لكن عبثاً. هل طلبت الكثير وهو يرغب في أن يكون في خدمة الله ورسوله؟ ألم تعد تثير شهوته؟ هل كبرت في السنّ فجأة وشاخت؟

أما علاء، الابن الأصغر للرومي، الشابّ الفظّ، الخشن الطباع، الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، فقد راح يصيح من وراء الباب في الغريب الذي يشاطر والده حجرته، «من أنت حتى تتجاسر على تلويث بيتنا الورع؟» ثمّ أضاف بصوت أوطأ، «يا خراء الكلب، أيها الحمار المخصي».

اقترب سلطان ولد، الابن الأكبر، من شقيقه وطلب منه ألا يزيد الطين بلة. رأينا، أنا وذريانوس، الجالسين بجانب بعضنا بعضا، كلّ ذلك. كان صديقي اليوناني يرفع عمامته من حين لآخر ويسوّي شعره المنفلت. لا بد أنه كان يقول لنفسه إنه سيذهب إلى الحلاق ما إن يغادرا الحجرة.

لم أستغرب مزاج الابن الأصغر، العنيف الذي قد ينفجر في أيّ لحظة. انحنى ذريانوس الذي تمكن خلال فترة قصيرة جداً من أن يصبح رفيقاً مخلصاً لمولانا وتعلّم منه أعمق أسراره، وقال لي إن علاء كان قد سرق عدّة أشياء ثمينة.

فقال: «كان سلطان ولد يبحث عن قطع ذهبية كان قد فقدها، لكنه وجدها أخيراً في أحد كتب شقيقه».

لم أصدّقه. فلا يمكن أن يحدث شيء كهذا تحت سقف بيت معلّم المعلّمين، مجد الأمجاد. في بيت يكلؤه اللّه بحمايته من خبث الرجال. وقال لي ذريانوس أيضاً إنه منذ تبنّاه الرومي، تعرّض لغيرة شديدة من عدد من المريدين الذين لم يستوعبوا كيف يمكن لمجرم

سابق أن يصبح فجأة الشخص المقرب من مولانا، ثم أضاف، «إنهم لن يفهموا مولانا قط».

رأيت تلك الغيرة تتحرك الآن، ليس نحو ذريانوس هذا المرة، بل نحو شمس. فقد اشرأبت من كلّ حجرة، أعناق، وجوه مألوفة وغريبة، ينهشها الفضول المرير نفسه، «لماذا لستُ أنا؟»

حاول سلطان ولد الذي كان على قناعة بأن هذه الخلوة ستستمرّ، إثناء الفضوليين. أما أنا فقد تمكنت من البقاء تحت ستار مناقشتي مع ذريانوس. ولاحظتُ. ورأيتُ كلّ شيء.

طاسة مليئة بالثوم المسحوق، وكسرة خبز يابسة، وحليب مخثّر، وصلت من المطبخ على صينية ووضعت أمام باب الحجرة. لم يجرؤ سلطان ولد الذي بدأ يزداد احتراماً، على إخبار المعتكفَين بأن الطعام جاهز. فقد خشي أن يقطع عليهما خلوتهما. ففضّل الابن البار أن يدفع قصاصة من الورق عبر شقّ الباب يشجعهما فيها على تناول شيء من الطعام. بعد قليل، فُتح شق الباب وسحبت يد الصينية إلى الداخل.

رأيتها، تلك اليد. نعم، رأيتها. هل كانت يد مولاي أم يد «سارقه»؟ عندما سألته، أجاب سلطان ولد إنه لم يميّزها، وأقسم ذريانوس الذي كان يجلس بالقرب من الحجرة عندما سحبت اليد الصينية، بأنها يد رجل ثالث. نعم أقسم: إنها يد ثالثة. لكن في الداخل لم يكن هناك سوى شخصين، لكن الأسطورة انتشرت.

في اليوم الثاني، جاءت كيرا، زوجته، مرة أخرى إلى المدرسة. هذه المرة كانت ترتدي ثياباً محتشمة. كان حجابها الحريري يتألف من قطعتين: القطعة الأولى تلتف حول خصرها مشكّلة تنورة، والقطعة الثانية تخفي ظهرها وكتفيها وتنسدل فوق جبهتها. كانت

طريقة ارتدائها لثوبها وخشخشة أساورها الفضّية تحكمان حركات ذراعيها. كان حجابها صغيراً من الشاش الدمشقي الذي ترتديه عادة نساء البلاط، وكان يخفي وجهها الذي خيّل إليّ أنه وجه متعب وقلق. وكما قال ذريانوس الذي يعرف كلّ شيء، إنه لم يغمض لها جفن في الليلتين الماضيتين. توجّهت عيناي إلى جوربها الحريري المطرّز، آخر صيحة في الأزياء وصلت مع الغزاة المغول من الصين البعيدة. أما بالنسبة للغنج الأنثوي، فلم يفاجئني شيء. فقد بدأت أرى في قونية بعض النساء الفارسيات الثريات يعتمرن قبعاتهن المطرزة بخيوط الذهب - مع أنهن كن لا يزلن مغطيات بحجاب - والتي تعلوها عدة أرياش متعدّدة الألوان، تشبه ألوان السهوب المنغولية.

حيّت كيرا بسرعة حفنة الرجال الذين تمكّن بعضهم، ومنهم أنا، من الذهاب بطلب من سلطان ولد. توجهت كيرا إلى الحجرة وجلست على الأرض. خلعت جوربها الصيني وسوّت حجابها. هرع ذريانوس ومدّ بساطاً على الأرض، ووضع موقداً أمام قدميها، ورتّب بضع وسائد حولها. بعد أن استقرت في جلستها بارتياح. بدا أن كيرا على استعداد للجلوس أمام باب الحجرة لفترة طويلة. جلب لها خادم شاي الناردين الذي عَرَفتُه من رائحته، وصينية عليها أقراص من عجينة اللوز التي أعدّها كبير الطهاة خصيصاً لسيدة البيت، وقليل من زيت وعصير اللوز. رشفت كيرا بضع رشفات من الشاي ولم تلق بالاً للمعجنات. كنت جائعاً إلى درجة أنه كان بإمكاني أن ألتهمها كلها بسرعة. فقد كنت في الثامنة عشرة من العمر، وكانت لديّ شهية كبيرة.

استندت إلى باب الحجرة، وألصقت أذنها بالباب الخشبي.

بينما كان جميع أفراد العائلة يتهيأون لأداء صلاة الظهر، غيّرت كيرا مكانها فجأة. ظلت جالسة، لكنها أدارت ظهرها تماماً باتجاه الفناء لكي تتمكن من النظر إلى داخل الحجرة من خلال شقّ الباب. ماذا رأت؟ كنت أنا الوحيد الذي رآها. كان الآخرون جميعاً منهمكين في الصلاة. لكي ترى على نحو أفضل، نهضت وسارت في المدرسة. اختفت زوجة الرومي عن بصري لحظة. عندما وصلت إلى واجهة المبنى الرئيسية حيث توجد الحجرة، تبين لي أنه أغمي عليها. كانت باقة ورد تقبع في حجرها.

هرعت نحوها ورفعت رأسها. جعلتها ترشف قليلاً من الشاي. عندما أفاقت، أخذت الأزهار وقالت إن مولانا قدمها لها بنفسه، وطلب منها أن تحرص عليها. نظرتُ إلى بتلاتها. لم تكن تشبه أياً من الأزهار التي تنمو في منطقتنا. وقالت لي كيرا إنها رأت الرومي يميل نحو شمس. كان كلاهما صامتاً. كانت تلك أول مرة ترى فيها الرجلين.

ثم أردفت، «عند الظهر طلب زوجي من شمس أن يؤمّ الناس في الصلاة، لكن شمس رفض وقال لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا مولانا، فاستجاب له زوجي».

بينما كانت كيرا تحكي لي قصّتها هذه، همست في أذني وقالت: «لم يكونا وحدهما. كان يتحلّق حولهما ستّة أشخاص آخرين. لكنهم اختفوا عندما انتهت الصلاة، وتركوا هذه الباقة عند قدمي مولانا».

لم أعرف ماذا أقول أو بأي شيء أفكّر. ستّة أشخاص آخرين؟ من أين جاؤوا؟ هل كانت كيرا تحاول أن تشوش أفكاري بإخباري أمراً لا تعرف عنه شيئاً؟

قبل أن تستدير سيدة البيت إلى خادماتها، طلبتُ منها أن تعطيني زهرة، زهرة واحدة فقط، فقدمت لي بسخاء عدة أزهار.

توجهت على الفور إلى عطّار وسألته هل يعرف نوع هذه الزهرة واسمها، فأجاب، مستحيل، فلا نضارتها ولا لونها ولا رائحتها تشبه أيّ نوع من الأزهار التي تنمو في قونية في الخريف.

ما هذه الزهرة؟ أمضيت فترة بعد الظهر كلها وأنا أسأل العطارين والأطباء والمعالجين بالأعشاب وصانعي المراهم والعطور. لكن من غير جدوى. في المساء، توجهت إلى مطعم شعبي، ووضعت الأزهار الغامضة أمام الصحن النحاسي المليء بقطع اللحم المشوي، وراح الندل يهشون الذباب عن الطعام.

جلس إلى جانبي رجل هندي. ألقى نظرة على صحني وسألني هل أنصحه بأن يطلب طبقاً مثله. لم أعرف كيف أنصحه لأنه كان يشاع أن الطهاة يستخدمون لحم الجمل المحرّم في إعداد هذا الطبق بدلاً من لحم الضأن، ويمزجونه بنفايات مختلفة، ثم يُتبِّلونه بالزعفران والزبيب لكي يبدو مذاق الطبق النهائي جيداً.

عندما كان يتفحص قطع اللحم في صحني ليتأكد من طزاجتها، لاحظ الهندي تلك الأزهار فسألني أآتيت من ساراندیب في جزيرة سيلان، فقلت له لا، فقال إنها المكان الوحيد الذي تنمو فيه هذه الأزهار.

ازددت تشوشاً. أمضيت الليلة وأنا أسأل نفسي ألف سؤال وسؤال، من دون أن أجد جواباً. وفي اليوم التالي، عدت إلى المدرسة وحدّثت ذريانوس عما جرى لي. لم يكن اليوناني يعرف ما جرى مع كيرا فحسب، بل كانت لديه أيضاً، بفضلها، معلومات إضافية: ففي صباح ذلك اليوم، عندما عادت كيرا إلى موقعها أمام

الحجرة، خرج زوجها بسرعة وطلب منها ألاّ تُري الباقة إلى أي مريد، وقال: «إنها هدية أحضرها لك جنائني الجنة الدنيوية من أقطاب الهند. وإن هذه الباقة ستشفي مسكن روحك وعين جسمك».

احتفظت كيرا بتلك الأزهار المميزة لفترة طويلة، وخلال تلك الفترة لم تذبل ولم يبهت لونها. وبعد أن غادر الرومي خلوته، سمح لكيرا أن تعطي زهرة أو زهرتين منها إلى أخت السلطان التي أصيبت بمرض في عينها.

واحتفظت أنا بالأزهار التي أعطتني إياها وأحطتها بعناية شديدة، لكنّي لم أحاول أن استعملها خشية أن أجدها غير فعالة فيخيب أملي، ولكي لا يلعنني مولاي الذي قد يعتبرني، بسبب جهلي، محتالاً.

وفي اليوم الرابع، سمح لي سلطان ولد بأن أبقى بجانب الحجرة لكي أزود الرجلين بالماء للاغتسال - كان الرومي مولعاً بالاستحمام - ولكي ألقي النفايات في الحفرة. على الرغم من أنها مهمّة حقيرة، كما يقول البعض، إلا أني كنت أراها مشرّفة.

عندما سُمح لي رسمياً بقضاء الليلة بكاملها على بعد بضعة أقدام من الرومي و«سارقه»، انتظرت حتى غادر جميع الأقرباء والأصدقاء لكي أتجسّس وأعرف حقيقة ما يجري كما أشاء. وبعد مضي فترة على ذلك، توسلت من مولانا ألف مرة أن يغفر طيشي وتهوري. لم أكن قد تجاوزت العشرين من العمر آنذاك.

في ذلك المساء، متدثراً بعباءة مبطنة بالفراء لتدفئني، رأيت الرومي من خلال شقّ الباب ينحني أمام شمعدان بطول قامته، يقرأ كتاب والده من بداية هبوط الليل حتى بزوغ الفجر. عندما طلع الفجر، سأل الرومي شمس عن مضمون كلمات والده، فردّ عليه

شمس، «توقف عن القراءة! توقف عن القراءة! توقف عن القراءة!» ورأيت الرومي يلقي المخطوطة الأصلية «المعارف» جانباً، ثم سمعته يسأل شمس، «ماذا عليّ أن أفعل؟»

بدأ الآخرون يستيقظون. بدأت أسمع أصوات الدلاء والبكرات من البئر. وأعلنت رائحة كعك جوز الهند التي هبت من المطبخ عن موعد الفطور. كنت قد بدأت أتهيأ للمغادرة، وحملت إبريقاً ووعاء نحاسياً، عندما تناهى إليّ صوت شمس يكرّر نفس السؤال: «ماذا عليّ أن أفعل؟» فأجاب مولاي بهذه الأبيات:

عندما أعطش لك،
لا تعطني ماء.

عندما أعشقك،
اسلبِ النوم من جفوني.

ثمّ أضاف، «ماذا يجب أن أفعل؟» فأجاب شمس، «لا تتكلّم. لا تتكلّم. لا تتكلّم».

مقتنعاً بأن الصمت الذي أمر به شمس لم يشف فضولي، غادرت لفترة من الوقت. عندما عدت، علمت من سلطان ولد أن الرومي يرفض أن يتكلم على الإطلاق. ولمدة طويلة لم تعد تسمع كلمة واحدة من داخل الحجرة. وأخيراً، أمره شمس ذات يوم بأن يخرج عن صمته.

وقال لي سلطان ولد: «سأله والدي لماذا، فأجابه شمس بأنه سيطلب منه شيئاً آخرَ. وطلب صبيّة حسناء. نعم، صبيّة حسناء، فدعاني أبي وطلب أن أطلب من كيرا أن تأتي، فأتت».

كانت كيرا تجسّد البهاء والجمال. دخلت الحجرة ورأت الرجلين الجالسين على أريكة، يتكئان على وسائد مخملية كبيرة: كانت المرتبة والأغطية مطوية بعناية ومسندة إلى الحائط، ووضعت في الصناديق النحاسية المطلية بالفضّة أشياء مختلفة بالإضافة إلى مخطوطات سلطان العلماء وأحد الشعراء العرب. وقال الرومي لزوجته إن شمس لم يعد يسمح له بقراءة أعمال والده وقصائد ذلك الشاعر العربي. وقال لها إنها تستطيع أن تنقل الكتب المبعثرة في الحجرة الآن إلى حجرة أخرى، ثم طُلب منها أن تمرّ بمحنة أخرى، وهي أن تمنح نفسها لشمس إذا رغبها، إذا قبلها هدية، كدليل على احترام من الرومي.

لكن شمس رفض ذلك في الحال.

أخبرني سلطان ولد عن شدة انزعاج كيرا. لماذا طلب منها زوجها أن تمنح نفسها لهذا الرجل الغريب؟ فقد كان الرومي، جلال الدين، قبل ظهور شمس، ذلك الرجل الغيور المتملك، فلم يكن يسمح لها حتى بزيارة النساء.

عندما غادرت كيرا الحجرة، حاملة الكتب، طلبت من سلطان ولد أن يأخذ مكانها. فقد قال شمس إنها «أخت روحه»، ولا يمكن أن يلمسها. ثم طلب شمس شاباً وسيماً، فطلب الرومي من زوجته أن تنادي سلطان ولد، «يوسف».

وقال لي الابن البار: «فجاء دوري لكي أكون القربان»، لكن شمس رفضني أيضاً، على الرغم من أنني كنت مستعداً لقبول القيام بأكثر الأعمال تواضعاً، وهي أن أمسح حذاءه، لكنه رفض وقال إنه يعتبرني ابناً له.

لقد رفضه شمس كما رفض كيرا. كنت قد بدأت اكتشف في

كلمات سلطان ولد الإعجاب السري الذي يكنّه لهذا الرجل التبريزي. فهو أكثر المخلصين إخلاصاً، يطيع والده طاعة عمياء. وكان يتبعه في أشد المسالك خطورة وحلكة.

وتابع الراوي حكايته، بينما قرّرت أن أدوّن ملاحظاتي لأن كلّ ما سمعته كان يبدو غريباً لا يمكن تصديقه. ومنذ ذلك الحين، لم أفارق الطاولة التي أكتب عليها، وعلبة خشب الأرز المزركشة التي تحوي قنينة حبر وأقلام قصب مبرية، ولفائف من الورق الصيني. اليوم، بعد أن ألقيت نظرة واحدة على العلبة القديمة، استرجعت كلّ تلك الذكريات. أتابع.

ثمّ قال لي سلطان ولد إن شمس طلب نبيذاً، فخرج الرومي بنفسه، ورآه الجميع يغادر الحجرة للحظة وطلب من خادم أن يذهب إلى الحيّ اليهودي لشراء دن من النبيذ الجيد عوضاً عنه.

واصلتُ تدوين الملاحظات. عندما وضع الخادم وراء باب الحجرة الشراب الذي يحرم الله ورسوله شربه، أطلق شمس صيحة سمعها الجميع، وأضاف بصوت مرتفع، «أقسم بالأول الذي لا أول إلاّ هو، ولا آخر إلاّ هو منذ بدء الخليقة وحتى نهاية الكون، لم يوجد ولن يوجد رجل مثلك».

ثم حكى لي سلطان ولد، منهياً قصّته هذه، بأن شمس مزّق ثوبه ووضع رأسه عند قدمي والده، مولانا الرومي. وخطر لي في تلك اللحظة أنه، لو طلب شمس أن يضحي بزوجته وأولاده الأربعة لفعل.

أمسيتُ ميتاً، فأصبحتُ حيّاً

بعد أربعين يوماً من الخلوة. بعد أربعين يوماً من الانتظار. ازداد برد الشتاء حدة. في مساء أحد الأيام، كسا الثلج فناء البيت بكامله، واقترحنا أن نضع في الحجرة منضدة واطئة تغطيها عدّة بطانيات يوضع تحتها موقد (كورسي). لكن اقتراحنا قوبل برفض الرومي وشمس اللذين قالا إنهما يريدان الحجرة فارغة. ولكي يدفئ الكورسي الحجرة جيداً، فإنه يأخذ حيزاً كبيراً من الحجرة. بدأت الأقاويل تنتشر، وبدأ السؤال يُطرح همساً: لماذا يحتاج الرومي إلى حيز فارغ في الحجرة مع أن البرد شديد؟

توقفت الدروس في المدرسة، ولم يعد يأتي إليها طلاب. حلّ فراغ كبير. انتظار طويل. وبدأت طبقات الغبار والعناكب تتجمع. واستمر عدد قليل من المريدين المخلصين يؤدون صلاتهم اليومية تحت النظرات الساخرة للجنائني المنهمك في إزالة الثلج.

شيئاً فشيئاً، بدأ التلاميذ الأجانب يغادرون إلى بلادهم. فبعد أن توقفت الدورس، لم يجدو فائدة من البقاء بعيدين عن بيوتهم وتحمل كل تلك التكاليف المالية. فغادر الهنود، ثم تبعهم الطلاب الذين قدموا من هيرات ومن سمرقند، ثمّ تبعهم الطلاب العرب. حاول ذريانوس إقناع البعض بالبقاء والانتظار قليلاً، لأن ما سيرونه بعد

انتهاء الخلوة الاستثنائية يعادل ألف درس في العرفان. لكن كلامه لم يلق أذناً صاغية لأن كل همهم كان يكاد ينصبّ على ملء دفاترهم بالأمور النظرية. ثم غادر اليونانيون أيضاً.

مرّ أسبوعان دون أن يبدي أيّ من الرجلين أدنى إشارة على رغبتهما في الخروج من خلوتهما والعودة إلى العالم. بينما كنت أتمشى أمام الحجرات المحيطة بالفناء، رأيت سلطان ولد واقفاً وهو يدور حول نفسه. انتظرت حتى انتهى من دورانه الغريب هذا قبل أن يدخل الحجرة. ما إن رآني حتى توقّف عن الدوران وقال لي إنه رأى للتو والده يؤدّي هذه الرقصة بتوجيه من شمس.

«رقصة؟» سألته.

ثم أردف قائلاً: «لقد ركزت انتباهي جيداً. كان أبي يدور، باسطاً راحة يده اليمنى نحو السماء، ويده اليسرى باتجاه الأرض، كما لو أنه كان النقطة والدائرة في آن معاً. وكان يدور ويدور دون أن يغيّر إيقاعه».

رفع سلطان ولد يده اليمنى إلى الأعلى، وأنزل يده اليسرى إلى الأسفل، كما كان يفعل الرومي. لكنه عندما بدأ الدوران، تعثّر وسقط.

«كنت أتدرب عليها منذ الصباح. لكنّها صعبة».

بعينيه المغمضتين نصف إغماضة، وبفمه الفاغر قليلاً، أدى حركات أخرى، فشبك ذراعيه، ومال برأسه نحو كتفه، ثمّ قال لي إن والده، قبل لقائه بشمس، عندما كان يستغرق في التأمل والتوهج الديني، كان يرفض تماماً أن يسمع أيّ نوع من أنواع الموسيقى، حتى لو كانت موسيقى روحية. وعندما كان شاباً، حاولت أمّه أن تعلّمه الموسيقى والرقص، لكنه كان مرتاباً، ولم يتمكن من إدراك

البهجة الباطنية التي يمكن أن يحسها من إيقاع الآلات الموسيقية.
كان يحرّك يديه على نحو أخرق.
«لكن انظر إليه الآن! إنه يدور».
هذه الحركة التي وصفها سلطان ولد والتي سيُطلق عليها لاحقاً رقصة «السماع»، وهي رقصة روحية، يدور فيها الراقص. إن الدوران يجعل الراقص صلة الوصل بين السماء والأرض، الشخص الذي يتم من خلاله التحوّل. ثم اعتُبر الرومي مؤسس هذه الرقصة وهذه الطريقة التي تدعى «الدراويش الدوّارون».
كان الابن مصعوقاً، دهشاً من تحوّل والده. الرومي، هذا الرجل التقي الذي لم يكن يعرف، حتى ذلك الحين، سوى الصلاة، يرقص الآن، يدور. أما أنا، وبحيوية الشباب فقد أمطرت سلطان ولد بالأسئلة: وماذا عن الوزن، والنقرة، وإيقاع حركات الرومي؟
«كان يوافق خطواته مع صوت غير مسموع. كان شمس يقاطعه أحياناً، ثم يدور معه أحياناً وهو ممسك بالشمعدان الطويل، مشكلاً دائرة».
توجّه الابن البار نحو كوّة عليها قطع مرآة، وفيها مصحف مضيء ومصباح فضّي اللون. التقط آلة رباب. لم يكن يبدو أن وجود آلة الرباب هذه بجانب كتاب الله، أمراً ملائماً، وسيقول المؤمنون المتشددون: «لا مكان لهذه الآلة الموسيقية الدنسة هنا».
«شمس ذاته أعطاني آلة الرباب هذه»، قال سلطان ولد موضحاً، «فقد كان يعرف أنني كنت واقفاً وراء الباب أنظر، وعندما انتهى من الدوران حول الشمعدان، دعاني للدخول إلى الحجرة. كانت تلك هي المرة الثانية التي أدخل فيها إلى الحجرة. عندما دخلت، انحنيت أمامهما.

«وكعادته قبّل والدي شعر رأسي وذكّرني بأيام طفولتي وبالأوقات التي كان يقبّلني فيها ويقبّل شعري. ثمّ قال لي شمس: «سلطان ولد، أنت الوحيد الذي دخل من هذا الباب الذي يفصل العالم الآخر عن هذا العالم. خذ هذه الرباب، واذهب إلى الوالي وأعد له آلته».

سُمح لابن الرومي أن يمكث معهما فترة أطول، وهو يحمل الرباب في يده ليحفظ في ذاكرته صورة أبيه الذي كان يرقص ويدور، منفّذاً بدقة تعليمات ذلك الرجل العجوز الضامر، الضعيف البنية، الذي أطلق عليه اسم شمس.

تفحصت أنا وسلطان ولد الآلة غير العادية التي لا يمكن أن تكون قد أُدخلت إلى الحجرة إلا بعد أن بدآ خلوتهما. فمن يجرؤ على إحضار شيء تحرّم القوانين الدينية إدخاله إلى هذا البيت المفعم بالورع؟ فلا يُعرف في حاشية الرومي من يجيد العزف أو الغناء أو الرقص. فقد نشأ جميع مريديه، بدءاً من الأمير وحتى الإسكافي، من المتدينين المتعصبين، على كلمات وأحاديث الرسول وعلى تفاسير المفسرين. ومن المستحيل أن يكون هناك راقص بينهم. هل هي حقاً، كما قال شمس، آلة والي قونية؟ ذلك الرجل الرفيع المقام الذي كان يحرص، قبل خلوتهما، على حضور جميع دروس وخطب الرومي. ومنذ بدء خلوتهما، جاء عدّة مرات ووقف عند باب المدرسة، وسأل هل غادر معلّمه حجرته، وبدأ صبره ينفد، ولم يقتنع كثيراً بالتفسيرات التي كان يسوقها له سلطان ولد. وشأن الآخرين، كان كل ما يريده هو حضور مولانا والإفادة من سعة علمه.

كنت متأكّداً من أن الوالي لم يكن يحمل آلة رباب أثناء زيارته الأخيرة. لكن من جلب هذه الآلة العقيمة والدنيوية إلى بيت هذا العالم الجليل، وما الفائدة من وجودها؟

تفحّص سلطان ولد ذلك الصندوق الذي تنبعث منه أصوات. اهتزّ الوتر، وسُمع تحت سقف بيت الرومي أول صوت آلة موسيقية. ارتعشتُ خوفاً وبهجة. علينا أن نتصرف الآن. فقد طلب شمس أن تعاد الآلة إلى من يُزعم أنه صاحبها. فتوجهنا إلى مسكن الوالي.

كانت تلك أول مرة أذهب فيها إلى قصر الوالي. اجتزنا ممراً عريضاً تحفّه أشجار سرو يفضي إلى باحة داخلية. وقفت مشدوهاً لرؤية بيارة البرتقال إلى يساري. ولقد أشيع أن الوالي جلب أشجار البرتقال تلك من الصين، ولكي تتأقلم مع المناخ في قونية أعطاها لصاحب المشتل المحترف في خوزستان قبل أن يشتلها في بستانه. وعلى امتداد الدرجات القليلة المفضية إلى المبنى الرئيسي، كان يمتدّ شريط ضيّق من الزنبق، وهنا تذكرت بضع أبيات للشاعر العظيم العطّار. إذ تقول الأزهار الحمراء:

في رحلة الحبّ
اختفيت وتلاشيت
عن بصر
كلا العالمين.

لا تعد تسألني
عن اسمي
ولا عن أثري،
في هذين العالمين.

فمن ورقة الشجر،
اختفى أثري واسمي.

اختفيت، اختفيت.

اختفيت،
كيف للمرء أن يعرف.
إن كنت لا تعرفني،
فكيف اختفيت.

كانت مساكب الزهور والممرات والأشجار مرتبة بتناسق شديد. كانت البركة القائمة في الوسط هي الوحيدة التي لم يكن لها توأم. وكان يُحافظ على درجة حرارة معينة للماء لكي لا يتجمّد، وكانت النافورة تظل تلقي بخيط من الماء يتراقص في الهواء في الشتاء. مررنا تحت رواق شكّلته جداول ماء تجري فوق الممر ثم تسقط على الأرض في الجانب الآخر. ولم تسقط قطرة ماء واحدة فوق رأسينا. وفردت بضعة طواويس أذيالها وراحت تخطر حولنا لتجذب انتباهنا إليها وتبعده عن منافسيها الأبديين، طيور البجع. دلفنا إلى القصر. قادنا خادم إلى قاعة استقبال كبيرة. وبينما رحنا نتفحص الأشكال المرسومة على السجاد، حلّق انتباهنا كما يطير طير من غصن إلى غصن كما هو مرسوم على السجاد، وتغلغل الدخان المتصاعد من البخور الهندي في ثيابنا وظلت رائحته تعبق من ثيابي ومن ثياب سلطان ولد لأسابيع عديدة، وكان الناس يسألوننا، «هل عدتما مؤخراً من رحلة إلى الهند؟»

عندما علم الوالي بقدومنا، هُرع للقائنا. كانت لحيته تلمع من زيت براق جُلب من دمشق، وقد أحاط بعينيه كحل غامق من أصفهان، ووضع معطفاً أحمر من فرو الثعلب فوق عباءة طويلة من المخمل بلون الياقوت، وكانت عمامته وجواربه الملونة بعدة ألوان

تذكّر بالرسوم المنقوشة على السجاد، أما نعلاه فكانا مصنوعين من أنعم وأرقّ الجلود المغربية.

شرح سلطان ولد للوالي سبب وجودنا، فأخذ منه الرباب وتفحّصها بعناية. نعم، إنها آلته، لكنه لم يفهم كيف وصلت إلى حجرة مولانا، لأن عازفاً من سمرقند كان يعزف عليها ليلة البارحة في غرفته، لحناً يعرف باسم: «الأصنام الصينية».

قادنا إلى الحجرة، مملكة السماع حيث تتمتع الأحاسيس الأخرى وكتب على بابها بخط ذهبي جميل عبارة يطلب فيها من الزائر أن يرهف السمع: «هنا، لا تأكل، لا تشرب، لا تتكلّم، لا تقرأ. بل استمع فقط».

كانت المقاعد والأرائك العاجية فوق السجاد هي الأثاث الوحيد في الحجرة. وكانت على الجدار كوّات في شكل الآلات الموسيقية الموضوعة فيها. وكانت إحدى تلك الكوّات التي في شكل آلة الرباب فارغة. اقترب الوالي من الكوّة الفارغة وأعاد إليها الرباب.

لم نتمكن من تفسير هذه الأحداث لأننا كنّا ضحاياها. ولم يكن الوالي أو سلطان ولد أو أنا نحتاج إلى السحر حتى نؤمن بتميّز هذا التحدي الذي وضع شمس والرومي أنفسهما فيه. فقد كانت المعجزة بالنسبة للوالي وللابن ولي، هي لقاؤهما واتحادهما الدائم.

عندما غادرنا قصر الوالي، ألحّ علينا بائع مراوح أعمى، مثل جميع بائعي المراوح حتى يتمكنوا من دخول شقق النساء بسهولة، أن نشتري مذبّة مصنوعة من سعف النخيل، وعرض علينا أيضاً أن نشتري مكنسة من قش الرزّ، وثقاباً لإشعال الفحم الحجري بسرعة، وفخاخ جرذان. وعندما تيقن من أننا لا نرغب في شراء أي من المراوح أو

الثقاب التي يبيعها، أصرّ على أن بإمكانه أن يثير اهتمامنا بأشياء أخرى، وقال إن لديه سرّاً لا يعرفه أحد غيره.

فقد قال: «رأيت مساء البارحة الرجل الذي تسمونه شمس وهو يدخل إلى قصر الوالي ثم يغادره متأبطاً آلة رباب، نفس الرباب الذي أعدتموه إلى الوالي».

«هل رأيته؟»

«نعم».

«لكنك أعمى»!

«إني أرى ما لا تستطيعون رؤيته. إني أرى بعين قلبي».

ثم أكمل الرجل الذي غطيت عيناه بمنديل، وادّعى أنه رأى ذات مرة شمس في تبريز في دمشق يدخل بلاط الأمراء، يأخذ آلاتهم الموسيقية ثم يغادر، من دون أن يتمكن أحد من منعه من ذلك. وكرر قائلاً إنه «رأى»، رأى شمس. مع أنه كان ضريراً.

مضى شهر على اللقاء، الاتحاد. لم يمرّ يوم لم يتجمع فيه الطلاب أمام باب المدرسة. كان سلطان ولد يبعدهم عن الفناء كي لا يصل ضجيج سخطهم إلى آذان المعتكفين. في بعض الأحيان، كانت شدة تعبهم وكللهم تخنق غضب هؤلاء الطلاب، فيحدّقون في البعد، غير قادرين على فعل أي شيء. انحراف الرجل الذي كان معلمهم ومرشدهم، والذي بدأوا يعتقدون بأنهم فقدوه.

أما في الحرملك، فقد بدأ القلق يعتري كيرا. لقد كانت شابة جميلة، ولا تزال تشتهي زوجها الذي أخذ يمضي لياليه مع رجل عجوز، تحت سقف بيتهم. وكان علاء، شقيق سلطان ولد، يقسم صباح كل يوم بأنه سيضع حدّاً لهذه الخلوة، وبأنه سيكسر أقفال

الحجرة، ويخلّص والده من قبضة هذا الرجل العجوز القادم من تبريز. لكنّه لم يفعل ذلك. فقد منعته السلطة الأبوية من الإقدام على تصرف كهذا. وبفضل صداقة سلطان ولد، كان بإمكاننا، أنا ذريانوس، أن نتحرك بشيء من الحرية بالقرب من الحجرة، محاولين أن نفهم الأمور المستغلقة على أفهامنا.

في الليلة التي أعقبت اليوم التاسع والثلاثين، طلب شمس من سلطان ولد أن يدخل إلى الحجرة. انتحى الرجل العجوز بالابن البار جانباً وهمس في أذنه.

«لقد هجرت المشايخ. واخترت العيش. ومنذ وفاة الرسول لم يتمكن أحد من التعبير عن نفسه كما يفعل م (هكذا كان شمس يشير إلى الرومي). إن قطعة نقدية واحدة منه تساوي أكثر من ألف دينار. من يأتي إليّ يجب أن يتعلّق به. كان باباً مغلقاً، وها قد فُتح الآن. إني عاجز عن معرفة م. أقول لك ذلك بكل صدق. لست قادراً على معرفة م. ففي كلّ يوم أكتشف في كينونته وفي أعماله شيئاً لم أجده من قبل. حاول أن تفهم م. حاول أن تفهمه أكثر. لا تقنع بوجهه الجميل وكلماته الجميلة فقط. بل توجد أشياء تفوق ذلك بكثير. ابحث عن ذلك الشيء فيه».

ثمّ صمت شمس. فهم سلطان ولد أن عليه أن يتركهما الآن. بينما كان يهمّ بالخروج، قال له والده: «غداً، سنغادر الحجرة».

عندما قال لنا صديقنا ذلك، بدأ قرابة عشرة منّا يراقبون الفناء لرؤية لحظة خروجهما.

رأيت الباب يُفتح فجأة ويظهر الرجلان. إنهما لا يزالان موجودين في هذا العالم. سمح الرومي الذي بدا وجهه أكثر اصفراراً من قبل لأشعة الشمس الخريفية الباردة أن تداعب بؤبؤي عينيه. وبدا

لي شمس الذي رمقته لأول مرة - فقد رأيته قبل دخولهما إلى خلوتهما عبر الشقّ في الباب - أكبر سناً مما كنت أخمّن.

انحنى الجميع أمام مولانا. طلب الرومي إعداد الحمّام في الحال. قال لي في ما بعد إن أكثر ما افتقده في تلك الأيام الأربعين هو الحمّام. لكن قبل أن يستحم ويجلب معه شمسه إلى بخار الحمّام، أمسك بيد شمس وقاده إلى الحجرات الداخلية حيث تقيم النساء، وحيث كانت زوجته كيرا تنتظره. لقد طرأ عليه تغيير جذري. فعندما خرج من الحمّام، كان يرتدي ثياباً مختلفة. فقد غيّر شكل عمامته، ولبس ثوباً جديداً فضفاضاً ذا خطوط عريضة. لم يكن الرومي هو الرومي الذي كنت أعرفه قبل أربعين يوماً.

وقد قال سلطان ولد، الابن البار بعد ذلك، شيئاً بهذا الخصوص عن والده:

أصبح الشيخ الأستاذ تلميذاً مبتدئاً،
يتعلم كلّ يوم على يد شمس.

الشيخ الذي كان النهاية،
أصبح الآن بداية،

المعلّم الذي كنا نتبعه
صار تابعاً.

لقد تغيّر كلّ شيء بسرعة كبيرة. فقد توقفت الدروس. وأُغلقت المدرسة منذ فترة طويلة. ولم يُلق فيها درس واحد، أو تقم صلاة. حتى أن البستاني لم يعد يكترث بإزالة الثلج الذي ملأ صحن المدرسة ووصل ارتفاعه إلى مدخل غرف الصفوف التي أقفلت الآن.

بيعت جميع الكتب أمام باب المدرسة. وتجمّع الطلاب السابقون لأخذ أو شراء نسخ من الكتب التي كان مولانا قد ذيّلها بخط يده وكتب حواش عليها. رأينا أمامنا في كدسة غير مرتّبة، مجموعة كاملة من كتب العلوم الدينية: «قوت القلوب» و «إحياء علوم الدين» و «الأغاني» ومائة كتاب آخر. وتمت مقايضة معظم الكتب بآلات موسيقية. ويوماً بعد يوم، أصبح لدينا نايات وطبول وآلات عود من بلخ وبخارى والهند ومصر.

يوماً بعد يوم، أُفرغت المكتبة، أجمل غرف البيت التي كنا ندرس فيها بمتعة كتباً تتناول الطبّ والفقه وعلم الفلك. وأُفرغت الرفوف التي كانت تحتوي على المخطوطات من كنوزها الثمينة. وأُزيلت الشمعدانات المعلقة على الجدار لإنارة منضدة القراءة. ثم فُتحت النوافذ المغطاة بستائر خشبية رقيقة لحماية الكتب النادرة من أشعة الشمس، ليدخل إليها الضوء أخيراً. حتى السجاجيد غُيّرت. ولُفّت السجادة المحاكة من صوف خراف جبال زاغروس، وأُرسلت هدية إلى الوالي. وعندما أُفرغت الحجرة من كلّ آثار الكتابة، دعا الرومي شمس للإقامة فيها. ففي عيني مولانا، ملأ شمس الحجرة التي أُفرغت من آلاف الكتب، عندما دخلها شمس.

بدأ الرومي الآن يمضي أيامه في تعلم عزف الرباب بتوجيه من عازفين شباب استعاض ببهجتهم عن الطلاب الكئيبين والمتحذلقين السابقين. الرجل الذي لم يكن يتوقف عن الصلاة والصوم والوعظ، الرجل الذي كان يمضي يومه، منذ طلوع الفجر حتى هبوط الليل بالصلوات والأدعية متضرعاً إلى الله، العَالِم المتبحر في علوم الفقه والذي لم يكن يشعر بالكلل أو بالملل من قراءة تفسير تفاسير القرآن، لم يعد يعرف الآن سوى الرقص والدوران والغناء

والضحك. أصبحت تفاسير القدماء تبدو له ضرباً من الماضي. أما الآن فقد حان الوقت للاحتفال والبهجة.

عندما سألته زوجته كيرا ذات مساء، قال الرومي هذا الحوار بينه وبين شمس الذي يصف فيه التحوّل الذي طرأ عليه:

أمسيتُ ميتاً، فاصبحت حيّاً،
كنت باكياً، فأصبحتُ ضاحكاً،
جاءت دولة العشق،
فصرتُ دولة خالدة.

قال: «لكن لا، فأنتَ لست مجنوناً،
ولستَ جديراً بهذه الدار»،
فأضحيتُ مجنوناً،
مقيداً بالسلاسل.

قال: «لكن لا، لستَ سكراناً،
فامضِ، فأنتَ لست من هذا النوع».
فذهبتُ وأصبحتُ الآن سكراناً،
حتى امتلأتُ طرباً وبهجة.

قال: «لكن لا، فأنتَ لست ميتاً،
لستَ منغمساً في البهجة،
أمام وجهه الذي يمنح الحياة،
بل أنا ميتٌ وأنحنيتُ».

قال: «نعم، أنت ذكيٌ،
ثملٌ بالشكّ والتفكير،
لكنكَ جاهلٌ، خائفٌ،
منفصلٌ عن كلّ شيء».

قال: «إنكَ شمعة،
وقبلةُ هذا الجمع،
أنا لستُ قبلة هذا الجمع ولستُ شمعة،
فقد تلاشيتُ كالدخان».

قال: «أنتَ الشيخ والإمام،
إنك الأول على هذا الدرب،
أنا لستُ شيخاً ولستُ إماماً،
بل أنا خادمك».

قال: «الديكَ ريش وجناح،
لن أعطيكَ ريشاً ولا جناحاً،
جعلني هوس جناحه وريشه،
مشتتاً تائهاً بلا جناح ولا ريش».

أعطت كيرا هذه القصيدة لسلطان ولد الذي أعطاني إياها لاحقاً، فأضفتها فوراً إلى الملاحظات التي أدوّنها عن تحوّل مولانا المفاجئ. مقيداً، ثملاً، ميتاً، منهاراً، منفصلاً، مشتتاً بلا ريش ولا أجنحة: هكذا كان الرومي بعد لقائه بشمس.

ورقص.

بالإضافة إلى شمس، لم يلتق الرومي إلا بعدد قليل من العازفين. وعندما أُدخل أفضل عازف رباب في قونية إلى الحجرة التي يوجد فيها الموقد (الكورسي)، طلب منه الرومي أن يرتجل شيئاً حول فكرة «غير المتوقّع». كنا مجموعة قليلة من الحاضرين، لأن سلطان ولد سمح لبضعة زوّار بالدخول الآن. فقد أغلق باب المدرسة في وجه الغرباء والفضوليين، وفي وجه أي شخص قد ينتقد الرومي ويحرّم كل شيء في الإسلام. بالطبع كنتُ حاضراً أنا وذريانوس وحفنة من الأشخاص الآخرين، منهم العالم الديني شرف المعروف بقبحه بقدر ما هو معروف بتهكمه وسخريته. وكان بين الحضور أيضاً معين سليمان، مدير مدرسة القرآن في قونية الذي أصبح في ما بعد أمير قونية قبل أن يقتله المغول ويأكلوه.

بدأ العازف يعزف. استسلم الرومي لصوت الرباب. طلب من ذريانوس أن يزيح الموقد إلى جانب الحجرة ففعل. ثمّ استوى واقفاً، وأمسكني من ذراعي، أنا حسام الدين، وراح يدور، يخبط قدمه على الأرض وارتجل بعض الأشعار. لم أعرف ماذا أفعل. ركزت بقدر إمكاني. حاولت أن أرتقي إلى المرتبة التي منحني إياها. ففي الأيام العشرة الماضية، كنا أنا وذريانوس قد بدأنا نرقص على استحياء وبتحفّظ، أما الآن فإن مولانا نفسه، يطلب مني أمام مدير المدرسة والفقيه وشمس أن أشاركه بهجته الجديدة. بدأت أدور، في البداية بوعي وبتصنّع، محاولاً بصعوبة ألاّ أتعثّر في خطوتي لكي لا أقع على شريكي الجليل. ثمّ، رويداً رويداً، بدأت أسترخي.

تركت عقلي يهيم، حرّرت نفسي من عقلي العقلاني لأصبح لا شيء سوى كتلة من الجزيئات الراقصة. كنت الشمس، الكواكب، ذرة غبار تعوم في شعاع الضوء، الكعبة، الحجاج يدورون حول

الكعبة، الكرة والمضرب الذي يقذفها. أصبحت الحبّ والحبيب والمحبوب. ساعة، ليلة، قرن، لحظة؟ لا أعرف كم مرّ من الوقت. ربما كان مجرد دوران، تحوّل بعد فترة وجيزة إلى حالة من الوجود خارج نفسي وخارج العالم، ضرب من حلم موسيقي.

عندما انتهى السماع، أمسكني ذريانوس وسلطان ولد بيدي «ليعيداني»، كما قالا لي لاحقاً، وأجلساني على الأرض. اقترب مني مولانا ومسّد شعري بحنان. لم يسبق له أن فعل ذلك. لم يره أحد يبدي مثل هذه الرقة أمام الآخرين. توقّف فجأة. وقعت عيناه على شمس. نهضت واقفاً وذهبت لأجلس في مكان أدنى من المكان الذي يجلس فيه شمس، مبدياً أنني لا أزال أعتبر نفسي، على الرغم من الفضل الذي منحني إياه مولانا العظيم، أدنى مرتبة من الرجل العجوز النحيل. فلم أكن قد بلغت العشرين من العمر كما ذكرت. لم أجرؤ على التفكير بأنه اختارني. أردت أن أتجنّب كراهية شمس، لأنني إذا فقدته، سأفقد الرومي أيضاً، وهو ما كنت أخشاه أكثر من أيّ شيء آخر في العالم.

عندما لفّ عازف الرباب آلته في قطعة قماش منسوجة من القطن والحرير، سأل مدير المدرسة الرومي عمّا يميّز صوت هذه الآلة، فأجابه الرومي، «إنه صرير الباب المفضي إلى الجنة». وعلى غير عادته، سأله الفقيه شرف، «إننا نسمع نفس الصوت الذي تسمعه، لكننا لا نشعر بالتسامي مثلك، لا نطرب مثلك، ولا نبلغ النشوة التي تبلغها أنت. فما هو السبب؟»

فأجابه الرومي، «لأننا، يا شرف، نسمع صوت باب الجنة عندما يُفتح وأنت تسمعه عندما يُغلق».

لم يكن الرومي يفارق شمس قط، حتى عندما كان يذهب إلى

المدينة، وكان يسمح لبضعة أشخاص من المخلصين مرافقتهما. وكنت واحداً من أولئك المحظوظين الذين نالوا هذه الحظوة. حتى شمس بدأ يحبّني ربما لأنني غيّرت مكاني عندما أقيمت رقصة السماع لإبداء تواضعي.

بعد بضعة أيام حلّ مولانا أخيراً مسألة مكان الشرف في اللقاءات التي تعقد. فقد دعانا الأمير قاراتاي إلى حفل افتتاح المدرسة التي تحمل اسمه. في ذلك اليوم، تبدّى جمال المقرنصات المتشابكة وأعمدتها الرخامية المنحوتة وراء ستارة غطت باب مدرسة القرآن هذه. ومثل ثوب مصنوع من الحجارة، تشابكت أحرف الآيات القرآنية، منسوجة وملتفة على امتداد الواجهة. وعندما أزيحت الستارة، رأيت مولانا يكفكف دمعة تحدّرت من عينه.

حيّانا الأمير، ودلفنا إلى غرفة كبيرة تعلوها قبة نقشت حولها آيات قرآنية وأسماء الأنبياء الأُوَل واسم الخليفة بخط كوفي جميل. انحنى الأمير، وبتلويحة ودّية بيده تعبّر عن سعة الحجرة، دعانا للجلوس. عندما جلستُ على الأرض، تولّد لديّ انطباع بأنني غصت في قلب المحيط، لأن البلاط الأزرق والفيروزي الذي يكسو الجدران ذكّرني بالبحر وبحركة الأمواج التي لا تتوقف. اتّجه الحديث إلى مكان الشرف. أين يجب أن يكون؟ على أيّ محور؟ والتفت الجميع إلى الرومي الذي أجاب، «بالنسبة للعلماء، فإن القمّة هي مركز المجلس، أما بالنسبة للصوفيين، فإن القمّة هي ركن الحجرة. في دين العاشقين، فإن القمّة هي القرب من المحبوب».

ونهض وجلس إلى جانب شمس الذي اختار أن يجلس في زاوية الحجرة، أشدّ الأماكن تواضعاً، الأوطأ على الإطلاق، البقعة التي يترك فيه الناس أحذيتهم.

صُدم الحاضرون جميعاً من فقهاء وقضاة وسياسيين وعلماء وفلاسفة، لاختيار الرومي مكاناً للجلوس. وبهذه الحركة كشف عن ارتباطه علناً برجل تبريز. فحتى ذلك الحين، كان بعض المريدين والزوّار الذين انتقاهم سلطان ولد هم الذين فهموا مدى تعلق مولانا بشمس، ومن الآن فصاعداً، فإن المدينة كلها ستعرف ذلك.

وفي مناسبة أخرى، توجهنا إلى الخانقاه التي شيّدها الوزير نصر لتكريم مواطن بارز نُصِّبَ شيخاً. وبينما كان العلماء والمرشدون والصوفيون والأمراء والنبلاء يتكلّمون إلى ما لا نهاية على النظريات ومسائل الفقه، لم يفه شمس بكلمة واحدة وظل ساكناً لا يأتي بحركة مثل كنز في الزاوية. وعلى حين غرة، نهض وصاح بغضب، «إلى متى تمتطون جياداً بلا سروج وتجرون حول مضمار الرجال؟ إلى متى ستسيرون متكئين على عكاز شخص آخر؟ فالأمور التي تتحدثون عنها عن أقوال وأفعال النبي والتفاسير والفقه كتبها أشخاص من زمن آخر! إنكم رجال اليوم! فأين أسراركم؟ أين كلماتكم أنتم؟»

كانت هذه العبارات تنويرية بالنسبة لي. فقد بدأت أفهم أخيراً معنى قول مولانا: «أمسيتُ ميتاً، فأصبحت حيّاً». بدأت أخيراً أفهم السبب الذي جعل الرومي، بناء على طلب من شمس، أن يهجر القراءة برمتها، حتى أعمال الشاعر العربي المشهور، وحتى أعمال والده. فقد بدأ الآن يسير من دون مساعدة الآخرين.

«أمسيتُ ميتاً، فأصبحت حيّاً». في ذلك اليوم، أو في يوم آخر، سمعت شمس يقول له: «رويدك، رويدك. كن غريباً عن عامة الناس. فالحقيقة لا ترافق العامة أو تخصهم. لا أعرف ماذا يمكن أن يجني المرء منها. إنك تمتلك خصائص الأنبياء، إنك تسير على

هديهم. لا علاقة للأنبياء كثيراً بالناس الآخرين. فهم ينتمون إلى الحقيقة، حتى لو تحلّقت العامة حولهم، في المظهر».

في ذلك اليوم، أو في يوم آخر، لا أذكر، سأل شمس مولانا: «إذا رأيتني، فلماذا ترى نفسك؟ إذا تكلّمت عنّي، فلماذا تتكلّم عن نفسك؟ إذا عرفتني ورأيتني، فلماذا تتكلّم عن المرض؟ إذا كنت معي، فلماذا أنت مع نفسك؟ إذا كنت صديقي، فكيف أنت صديقك؟»

وبلا تردّد، أطاع الرومي طَلَبيْ شمس الاثنين: فانفصل عن عامة الناس وعن نفسه.

وعلى الرغم من أن ابن الرومي قلل كثيراً من عدد الأشخاص الذين يزورون والده في بيته، فقد بدأ يتعرض لعداوة ورفض الأشخاص المحافظين عندما أصبح يغادر البيت. وكان ردّ مولانا يختلف باختلاف ذامّيه. فكان يواجه البعض بردّ الإهانات لهم، وفي أحيان كثيرة كان يحاول تهدئة أشخاص آخرين ويرد على تفسيراتهم العقيمة، أو يصمت أحياناً أخرى.

ذات يوم رافقته إلى حفل ختان ابن الوالي. كان الفتى الذي لم يتجاوز السنوات السبع، يرتدي ثوباً من القماش الغالي. كان يرتدي فوق سروال مصنوع من الحرير الأرجواني، سترة مخططة لونها فيروزي، مغلقة عند الخصر بحزام قماشي مطرز واسع، دُسَّ فيه خنجر ذو مقبض من الذهب المحفور، وكان هو الشيء الوحيد المرئي. وزيّنت رسغه الأبيض الصغير أساور من الزمرّد، وتدلى قرطان من شحمة أذنيه، وغُطي شعره بغطاء من الساتان المذهب، والتمعت على جبهته جوهرة بيضوية الشكل، وخُطّطت عيناه بالكحل، ولُونت شفتاه بلون أحمر خفيف. كان جالساً على سجادة

نقشت عليها شجرة الحياة، متكئاً على حشية أكبر من وركه بثلاث مرات. وكانت توجد وراءه نافذة كبيرة مفتوحة تطل على بيوت فخمة، تظهر منها قبة مدرسة قاراتاي القرآنية الخزفية الزرقاء ومسجد السلطان كيقباذ، وأشجار الحور في دير أفلاطون المسيحي حيث أمضى مولانا خلوة لمدة أربعين يوماً. وأرى من بعيد السهل الواسع الذي شهد عبر القرون غزوات من السيمريين والليديين والفرس واليونانيين والرومان والصليبيين، وأخيراً المغول.

للحظة خطر لي أن لون السماء، المزيج من اللونين الوردي والأزرق، يعكس ثياب ذلك الابن. حملتني هذه الفكرة إلى ملك ملوك بلاد فارس، بادشاه، الذي كان يختار ملابسه وقصوره وخيوله وزوجاته ورحلاته بحسب لون السماء. وكان الوالي بعمامته وأوسمته وثيابه الحريرية الباذخة يعكس برهافة تناغم الحجرة والغيوم التي تعلو قونية وثياب ابنه. فقد كانت السلاسل الذهبية تزيّن ياقته وحواشي عباءته، وكان يحمل في يده مسبحة من الياقوت.

تحلّق حول الوالي كبار القوم كان من بينهم رجل دين مرموق لن أذكر اسمه. ومع أنه كان يجلّ مولانا، كانت تساوره بعض الشكوك وكان لديه تحفّظات كثيرة على ممارساته الأخيرة. وفي لحظة اضطراب، قيل إنه قال لأقرب أصدقائه، «لماذا يجب على رجل متعلّم كهذا، ملك كهذا، عالم دين كهذا، أن يقيم جلسات موسيقى وسماع؟ لماذا يفعل ما حرّمه الدين؟»

عندما بلغ ذلك مسامع الرومي الذي نادراً ما كان يبرّر تصرفاته لأحد، انتظر حتى حانت اللحظة الملائمة لكي يطمئن العالم. كان الحلاق الذي سيؤدي الختان قد وصل. حمل الوالي الطفل ووضعه فوق مقعد منخفض. لم يكد يُخرج نصل السكين حتى انتهت عملية

الختان. ثم كوى الحلاق الجرح برماد خشب منخول. طغت صرخات الطفل وبكاؤه على تهاني الكبار، «بسم الله»، والصوت الذي أعلن، «الآن، أصبحتَ مسلماً حقيقياً». وفي الخارج، سُمع صوت قرع الطبول والإعلان عن وصول مرقّص الدببة والبهلوانات، وأحضر الخدم الأطباق الكبيرة المليئة بالحلويات ومختلف أنواع الشرابات. اقترب مولانا من الطفل الذي كان يرتدي مئزراً الآن، وهمس في أذنه آية من القرآن. لكن قبل أن يغادر الوالي، توجّه مولانا إلى رجل الدين وقال له: «يا شيخ، هناك مسألة دينية أعرف أنك درستها جيداً، وهي أن تبيح للجائع والعطشان والمحتضر ما حرّم الله أكله. إن هذا العمل الذي يبرّره الدين، ويوافق عليه العلماء يمكّن البشر من البقاء. أما بالنسبة لبعض العلماء، فهناك حالة مشابهة للجوع والعطش لا يمكن معالجتها إلا بإقامة جلسات السماع والرقص بنشوة والاستماع إلى أصوات رخيمة». ثم غادر القاعة.

انظر، إنه حيّ.

ماء الظامئين، خبز الجائعين

كان من بين الأسماء التي أطلقت على شمس أيضاً «شمس منتصف الليل» و«ماء الظامئين» و«خبز الجائعين» و«شافي المرضى». ومنذ حفل افتتاح مدرسة قاراتاي، عندما جلس مولانا إلى جانبه، وتحدّث عنه أمام أهل قونية، جاؤوا جميعاً - الكتبة والصنّاع والأطباء والجنود والخياطون والأميرات والشاعرات والمحظيات - ليروا بأمّ أعينهم العلاقة العصية على التفسير بين الرومي وذلك الدرويش العجوز.

كان شمس يجلس القرفصاء على وسائد أمام باب الحجرة التي يوجد فيها مولانا، ويقول لكل من يسأل عن مولانا، «ماذا تقدم من هدية ونوال لكي أظهره لك».

«ماذا جلبتَ؟ ماذا ستقدم لقاء رؤيته؟»

دفع العديد من الأشخاص مبالغ من المال وقدموا هدايا من أجل رؤية مولانا. بدأ شمس يطلب أكثر وأكثر. كان يبيع حبيبه بالمزاد. فقد كان الرومي لمن يدفع أكثر. وكان يبدو أن مولانا قد استطاب ذلك لأنه انفجر ضاحكاً عندما غضب ابنه الثاني، علاء، من تصرف شمس الذي عجز عن فهمه.

في أحد الأيام، بينما كان الرومي في الحجرة، كان شمس يقف

أمام بابها ويساوم زائراً على مبلغ من أجل لقاء الرومي. وعندما وجد الزائر أن شمس بالغ كثيراً في الطلب، غضب وسأله، «وأنت، ماذا جلبتَ وأنت تطلب كل ذلك؟»

فحدق شمس في القطع النقدية الفضّية التي قدمها الزائر، وأجابه وهو يعدّ النقود التي جمعها اليوم، «القد جلبتُ نفسي. إلى طريقه، قدمتُ له رأسي».

لم يكن بعض الزوّار يأتون لرؤية مولانا فقط، بل لرؤية شمس أيضاً، بدافع الفضول. وفي أحد الأيام، جاء إليّ تاجران ثريان، متلفّعان بالفراء، يكسوهما العقيق، معطّران إلى حدّ أنهما كلّما أتيا بحركة، كانت تفوح منهما رائحة كأنهما دلقا على نفسيهما قنينة من خلاصة الزهور. قالا إنهما يريدان لقاء «ماء الظامئين» و«خبز الجائعين»، شمس التبريزي نفسه. ما إن هممت لمرافقتهما إلى القاعة التي كانت مكتبة مولانا والتي أصبح شمس يقيم فيها الآن، حتى صاح عبر الباب بصوت عال وقال: «دعهم يدفعون أولاً».

مندهشين، خيّل إلى الرجلين أنه يمازحهما. يجب أن تدفعا مبلغاً من المال لكي تريا شمس التبريزي؟ لم يكن بد من ذلك. عندما طلبت منهما خجلاً مبلغاً زهيداً للقائه، قالوا إنني لصّ.

وقف شمس وقد بدا أطول قامة وأنحف بنية من ذي قبل، وبنبرة صوت حيادية، ضاعف المبلغ. فشتماه في وجهه من دون خجل. وفي لحظة أصبح «خبز الجائعين» «قذراً»، «زبالة»، «عاراً». انحنى شمس وخلع نعله وألقاه عليهما، فجريا في الحال وغادرا. عندما اختفيا، قال لي شمس بصوت هادئ: «إن لم أختبر هؤلاء الرجال فلن يعرفوا حقيقتهم. هل رأيت كيف ادّعيا أنهما أهل إيمان وتقى؟ لكن ما إن حاولت اختبارهما - بشيء من اللطف - هل رأيت قوة

إيمانهما؟ هل رأيت عمّا كشف هذا الاختبار، كيف أنه كشفهما أمام عينيك؟ اطلب من الرجل الذي يدّعي صداقتك درهماً فيتبخّر عقله وتتلاشى أنفاسه، ويفتل رأسه وتتراخى ساقاه. لقد تحديتهم ليروا تفاهتهم وضآلتهم».

على الرغم من ذلك، كان طلب مبلغ من أجل لقاء شمس مهمّة مؤلمة بالنسبة لي، لكن كان يجب أن أقوم بهذه المهمة، لأنه حمّلني مسؤولية تحديد مبلغ اللقاء وإعطاء هذا المبلغ لأسرة مولانا وللمحتاجين. قرّرت أن أراقب كيف يفعل شمس ذلك، وهو يساوم على مبلغ من أجل لقاء الرومي، كما لو كان ذلك أمراً طبيعياً جداً، ومن دون أي شعور بالحرج أو الاضطراب. لم أكن أمتلك مزاجه وصراحته ووقاحته. فعندما كان «الزائر» يتردّد، كان يتمادى في إهانة مرافقي ذلك الزائر، ويصبح فظّاً وخشناً - أمام عيني مولانا المعجب به - بينما أحاول أن أهدئ من روع ضيوفنا، وأسوّي الخلاف الناشئ بهدوء. لكن من خلال تفسيرات الأصدقاء، بدأت أعتبر هذه المبالغ تجربة أولية تهدف إلى تحسين إدراكي والتخلص من الأشياء المألوفة وزعزعة النظام الراسخ.

دخل أول زائر من الباب على نحو غير متوقّع. كان أحد مساعدي السلطان، وكان يتقلّد سيفين بحجمين مختلفين، نُقش على قبضتيهما اسم السلطان الحالي - أدام الله ظلّه فوق رؤوسنا - هو ووالده ووالد والده ومؤسس الأسرة. كان حذاؤه الطويل يلمع إلى حد أنه كان بوسعي أن أرى خيال لحيتي منعكساً على جلده الأسود. كان حذاؤه يصدر صوتاً مسموعاً يشي بالصلف والغرور وهذا ما كان يميّزه عن الأصوات الهامسة التي تنبعث من نعال العوام المسطحة. كانت تلك محاولتي ولم يكن شخصاً عادياً. كنت أعرف أن شمس

يراقب ويتنصت من وراء باب الحجرة التي كانت المكتبة ذات يوم.
هُرعت لاستقبال زائرنا، وبعد المجاملات المألوفة («التضىء عيوننا أكثر في نظرك») وأسئلة لا تنتهي عن صحة السلطان والوزراء والأمير وضيفنا وعائلته، طلبت منه على نحو أخرق وبسرعة المبلغ الذي يجب أن يدفعه: عشرة آلاف درهم. لكن شمساً أرسل خادماً همس في أذني وقال: «اطلب منه أربعين ألف درهم».

إنه مبلغ ضخم. نظرت إلى الطرف الآخر من المكتبة من حيث يراقبني شمس، مذعوراً، وأشرت له بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. سعل بشدة إعراباً عن عدم موافقته. طلبت من مساعد السلطان أن ينتظر لحظة ودخلت إلى حجرة شمس.

قلت له: «سيدي، لن يدفع أي شخص مهما كان غنياً مبلغاً كهذا من أجل لقاء لا يتجاوز بضع دقائق. هل تعرف أنه يستطيع أن يبني مدرسة بكاملها ويزيل الأعشاب من بستان، ويقيم ملعباً بمبلغ أربعين ألف درهم؟»

من دون أن يتزعزع، أجاب شمس، «لذلك أطلب هذا المبلغ الكبير».

«لن يدفع. فهو ليس غبياً. إنه يفضّل أن يقوم بتجديد المدرسة بنفسه، باسمه من أجل تحقيق هيبته ومقامه». فكّر شمس للحظة، ثم تنازل أخيراً، وقال: «ثلاثون ألف. لا درهم أقل».

عدت إلى الزائر، وقلت له: «بثلاثين ألف درهم يمكن أن تتغذى روحك من رؤية شمس. لكن لفترة قصيرة فقط».

قبل الزائر. رافقته إلى حجرة شمس وانتظرت حتى انتهاء اللقاء الذي أحسست أنه سيكون وشيكاً. لأن شمس لم يكن يضيع وقتاً طويلاً في نقاشات وتفاسير طويلة. فعندما كان يكتب، كانت عباراته

وجمله قصيرة ومقتضبة، وفي بعض الأحيان، لم تكن مفهومة بالنسبة لي وللآخرين. أغمضتُ عيني للحظة. عندما سمعت صوت كعب حذائه يطرق فوق بلاط الفناء عرفت أن اللقاء قد انتهى. عندما غادر، لاحظت أن الزائر قد تحوّل. أصبح ثملاً، جذلاً. وما إن رآني حتى أعطاني كيس نقود آخر فيه عشرة آلاف درهم. بالنسبة له، كان لقاؤه بشمس يساوي أكثر. بدا لي أن هذا اللقاء لم يكن يقدر بثمن.

بحثت عن شمس لأسأله كيف أوزّع النقود. فقال لي إنه بسبب ترددي فقد خدعنا أنفسنا وكان من الممكن أن أطلب مبلغاً أكبر بكثير. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أجد مشكلة في طلب مبالغ أكبر، وبدأت أقدم نجمنا للشخص الذي يقدم مبلغاً أعلى.

مثل جرم سماوي يدور حول الشمس، انجذبنا أنا ومدير مدرسة القرآن، الذي سيصبح أمير قونية، وزوجته غوردجي، وسلطان ولد، وذريانوس، وصلاح صائغ الذهب (الذي سأتكلم عنه لاحقاً) حول مولانا وشمس. ومع مرور الوقت، أحسست أنني أصبحت أكثر قرباً من المركز، من قلب مجرتنا.

شيئاً فشيئاً، بدأ علاء، ابن الرومي الثاني، يبتعد عن المشاركة في رقص السماع، وصار لا يبغض شمس فحسب، بل بدأ يكره جميع حاشية والده. وكان كلّ ما يمنحنا بهجة وسعادة يثير حنقه. فلم يرفض مشاركتنا الرقص فحسب، بل اعتبر الرقص مثالاً على الرعونة والطيش، وكان يشتم ويلعن العازفين لأن، أو هكذا كان يعتقد، صوت آلاتهم يحجب صوت المؤذّن والأذان وصدى الكلمات المقدسة. وبينما كان يشعر أن موقف شمس من النقود دليل واضح على جشعه، فقد كنا بعكسه، مبهورين به، وبدأنا نرى أنه دليل على

تميّز شخصيته الخالية من الخير والشر. ولكي يجد مناصرين له، انضمّ علاء إلى عدد من الرجال الذين هجرهم الرومي ولم يعودوا يحضرون دروسه. وقد وجد ابن الرومي الراحة مع هؤلاء، وربما التشجيع على تقريع وشجب شمس على رؤوس الأشهاد. وبدأ يلتقي بهم في مدارس القرآن وفي المساجد وفي السوق وفي الحمّامات وفي أماكن أخرى، للتشهير بالشخص الذي أطلق عليه اسم «الرجل العار»، وهو الرجل الذي قال عنه والده إن أنفاس المسيح تنبعث منه.

خلال تلك اللقاءات، ارتفعت أصواتهم ضدّ شمس:

لماذا أدار مولانا ظهره لنا وترك شمس يغويه؟ فجميعنا ننتمي إلى عائلات مرموقة، ونتحدر من أسر نبيلة. ونبحث عن الحقيقة منذ نعومة أظفارنا. إننا الخدم الحقيقيون لصوت مولانا وأكثر أتباعه صدقاً. رأيناه يجترح معجزات لم يرها أحد آخر. سمعنا كلمات الحكمة التي لم يسمعها أحد غيرنا. ومثل الصقور، اصطدنا فريستنا وقدمناها له، نشرنا سمعته في أنحاء العالم، أحببنا أصدقاءه ودحضنا أقوال أعدائه، لكننا حُرمنا الآن من رؤية وجهه وسماع صوته، كلّ ذلك بسبب شمس. ما السحر الذي يمتلكه هذا العجوز الذي لا يُعرف له أصل ولا فصل والذي أصبح مصدر تعاستنا، والذي يستخدمه لإغواء سيدنا؟

ثم وزّع علاء وثيقة مجهولة في المدينة تقول: «كيف يمكن لطيرين ليسا من النوع ذاته أن يطيرا ويأكلا معاً؟» بالطبع كان يقصد بالطائرين غير المتجانسين: الرومي وشمس.

بصعوبة كبيرة، حصلت على نسخة من الوثيقة التي تقول:

أحدهما نسر يطير في السماء،
والآخر بومة على الأرض.
أحدهما شمس السماء،
والآخر خفاش مسحوق.

أحدهما نور لا تشوبه شائبة،
والآخر شحاذ ضرير يدور من باب إلى باب.
أحدهما القمر بجانب الثريّا،
والآخر دودة لا ترى في الطين.

لأحدهما وجه يوسف وتنهيدة المسيح،
والآخر ذئب، حمار له جرس.
أحدهما يطير إلى المجهول،
والآخر، مثل كلب، يستلقي في القشّ.

بعد أن درست الوثيقة، خبأتها في صندوق في بيتي في فاليراس، لكي لا تقع في يد شمس الملطخة بالحبر والزعفران. ها هي الآن أمام عيني، وقد اهترأت من كثرة ما قرأتها. اصفرّت الورقة لكن الكلمات ما تزال تثير كراهية ابن شرير وعدم فهمه. أعدتها إلى الصندوق وحاولت أن أستدعي إلى الذاكرة عدم ارتياح سلطان ولد لتعصّب المحبطين. وخوفاً من أن تخرج الأمور عن السيطرة، عقد حاجبيه اللذين يلتقيان فوق أنفه. كان حاجباه سهمين متأهبين للانطلاق، يشكّلان الرقم سبعة. قال: «جميعهم متعطشون إلى دم شمس. فما أن كانت عيونهم تقع عليه، حتى يسارعوا إلى وضع

أيديهم على مقابض خناجرهم ويكيلوا له الشتائم. كانوا يريدون كلهم إما أن يغادر المدينة وإما يموت».

لم أستطع ذكر ذلك لسلطان ولد، لكنّي أعرف أن علاء، شقيقه، لم يكن غافلاً عن الهياج الحاصل، ولم يمر يوم دون أن يغذّي غضب المستائين بنشر إشاعات عن شمس والرومي.

في أحد الأيام، رأيت علاء في سوق الحدادين، جالساً في دكان سكاكيني ماهر، وهو أحد مريدي مولانا السابقين، أمام صفّ من السكاكين والشفرات والمقصّات. اختبأت في زاوية أتمكن فيها من سماع حديثهما من الجانب المقابل من الزقاق، حيث كان أحد العمال يحدو حصاناً وقال متبجّحاً بأنه يعرف «ثلاثمائة وعشرين مرضاً من الأمراض التي تصيب الخيول». ولإثارة غيرة الحرفي، مثل طفل سُلبت منه لعبته، قال له علاء: «في إحدى المرات امتدح أبي شمس - إن شاء الله يضرط مائة كلب في لحيته - فجريت لأنقل هذه الكلمات إلى الشخص صاحب المديح. فردّ ببرود أنا أكثر مما قاله بألف مرة».

عندما سمعت ذلك، عرفت أن علاء حرّف معنى جواب شمس الذي لم ينقله بدقة وبكليته. فقد قال شمس: «أقسم بالله، أقسم بالله بأنّي لست سوى قطرة في محيط وقار والدك وعلمه. لكني أكثر ألف مرة مما قاله».

وبغية إثارة كراهية السكاكيني أكثر، أضاف علاء قائلاً: «وجدت أبي وأخبرته بما قاله له صديقه، فقال لي: نعم، فقد كشف شمس عن عظمته، وهو أكثر مما يدّعي بمائة مرة».

ومن خلال ساقي الحصان الخلفيتين اللتين كان الحرفي يضع لهما حوافر، رأيت مرارة العالم كله تكسو وجه الحرفي، ورأيته أيضا يمسك بسكين راح يشحذ نصلها.

وتابع علاء، «على نحو غير معتاد، صادف أن والدي كان موجوداً بين عدد من رفاقه السابقين، فاقترح أحدهم أن يتأملوا وأن يضعوا رؤوسهم فوق ركبهم. بعد لحظات، نهض أحدهم وقال: «أستطيع أن أرى قمة السماوات»؛ وقال آخر: «إن نظري يتجاوز قمة السماوات والفضاء. إني أتأمّل فراغ الكون»؛ وأضاف صديق آخر، «إني أرى ما بعد برجي الثور والحوت! وأرى الملائكة التي تحرسهما». عندما سمع ذلك، أجاب «رجل العار» الذي لا أب ولا أمّ له - أرجو أن يلج مائة قضيب حمار في مؤخرته - محاولاً أن يسخر من الرؤى السماوية الغريبة التي يراها أصدقاؤنا، وهو ينظر في عيني أبي مباشرة، وقال: «أما أنا، ففي كلّ شيء أراه، لا أرى شيئاً سوى ضعفي».

وأنا حسام، المتواري في دكان الحداد، لم أر سوى نصل السكين، مشحوذاً ومصقولاً، يلمع في يد السكاكيني. كان علاء يفسّر كلّ شيء بطريقة خاطئة. كان يرى شخصاً وجد نفسه في الخارج ينظر إلى الداخل، مليئاً بالكراهية، لم يكن قادراً على تقدير ازدواجية شمس عندما قال مثلاً بأنّه متواضع جداً مع المتسولين، ومتعجرف ومتغطرس مع الآخرين.

بدأ الخطر يزداد يوماً بعد يوم. ولم يعد بوسع شمس أن يتحرك بسهولة في قونية دون أن يتعرض للإهانة. حتى بدا على البيت التأثر بهذا الاضطراب. ففي كل مكان، كانت تتردد همسات وتجهمت الوجوه وارتسمت عليها أمارات الغضب. وصرت أخشى أن يقوم الطاهي الذي قد يتأثر من الاستياء العام بمحاولة دسّ السم في طعام شمس. وحتى لا أزيد الخوف والقلق، لم أخبر أحداً عن مخاوفي وقلقي، لكني كنت، عند كلّ وجبة طعام، أتجاهل الأصول المرعية

وأهرع لتناول لقمة من طعام شمس وابتلعها بسرعة، وبعد أن جربت عشرات الأطباق بهذه الطريقة، تأكدت من أن الموت لن يأتي من المطبخ.

مضت سنة على لقائهما. حلّ الخريف. كان شديد البرودة. منع مولانا الاحتفال بهذا الحدث خوفاً من أن يقرّر الطير، شمس، بعد أن يدرك بأنه حطّ على الغصن نفسه منذ فترة طويلة، أن يطير فجأة. أطعنا ذلك. وفي ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٦٤٣ هجرية، ساد صمت. لكننا احتفلنا في قلب كلّ منّا، كلٌ بطريقته، بذكرى ظهور «خبز الجائعين» و«ماء الظامئين».

بحثت عن علامة تدل على الفرح على وجه الرومي الشاحب، فلم أجد. فقد رفض أيضاً أن يبدي أي مشاعر في ذلك اليوم الذي يفترض أن يكون يوم احتفال. وظل قوسا شفته العليا مسترخيين.

ثمّ قرّرت أن أزور شمس. بدون أمل كبير، دخلت إلى المكتبة السابقة، مكان خلوته في معظم الأحيان، خلوتهما، هو ومولاي. وبما أنني أعرف المكان جيداً، لم أعد أدهش لرائحة العفونة التي لم تألفها تلك الحجرة التي سدّ شمس جميع كواتها لأنه يخشى من تيارات الهواء التي تهب منها. تردّدتُ لحظة في هذا المكان الجذّاب على نحو غريب، على الرغم من أنه كان مغلقاً. قلت لنفسي يا ليت بإمكان أحجار الحجرة تدوين أحاديث هذين الرجلين، لفاقت كلّ كتابات الصوفيين، حتى كتابات العطّار وسنائي. وبينما كنت أتفحص الحجرة التي تحرس أسرارها بغيرة، وجدت صحيفة ملقاة على منضدة واطئة. دفعني فضولي إلى فتحها. عرفت خط شمس ورائحة الحبر الذي كان لا يزال طازجاً. قرأت فيها: «ما هو السهم؟ الحديث. ما هو الصندوق؟ كون الحقيقة. ما هو القوس؟ قوّة

الحقيقة. السهم بلا نهاية. في الصندوق الذي هو كون الحقيقة، لديّ سهام لا أستطيع رميها. فالسهام التي أطلقها تعود إلى الصندوق».

كانت تلك هي الوثيقة الوحيدة المكتوبة بخط يده في ذلك اليوم، ذكرى لقائهما. من شمس ساد صمت أيضاً.

كنا في عزّ الشتاء. في صباح يوم مشمس، رافقت مولانا إلى بلدتي. وقد ساعدت بنيتي وقوّتي على إبعاد انتباه الفضوليين. بغتة، قرّر الرومي الذهاب إلى خان ضياء، خان الوزير ضياء الذي تنزل فيه امرأة تدعى تافوس. كانت تلك المرأة تعمل راقصة، وكانت كذلك تغني وتعزف على القيثارة. تبعته دون أن أنبس ببنت شفة. عندما دخلنا صحن الخان، أذهلتني رؤية النجوم والمقرنصات التي تزيّن جوانب الإيوان.

ومثل جميع الخانات، كان خان ضياء يتألف من طابقين، في الطابق الأرضي كانت إسطبلات ومحلات وورشات وقاعة طعام. وعندما شاهد النزلاء الذين كانوا يتناولون طعامهم الرومي انحنوا أمامه، وطلبوا منه أن يتناول من خبزهم المرشوش بالسمسم الخارج للتو من فرن الخباز. بتلويحة بيده، رفض مولاي دعوتهم وتوجّه إلى درج خارجي وصعد إلى الطابق العلوي الذي توجد فيه غرف تطل على الرواق. وقف قبالة غرفة تافوس. وكدأبي انشغلت في إبعاد الفضوليين والمعجبين والمتهورين. كنت قد بدأت اكتسب خبرة في هذا الأمر، تماماً كما اكتسبتها أثناء تحديد المبلغ الذي يجب دفعه للقاء شمس. ساد الهدوء ثانية.

جلس مولانا على البلاط البارد ووقفت إلى جانبه. بعد لحظة، فُتح فجأة باب الحجرة فهبّت نفحة من عبير الياسمين، ثمّ خرجت امرأة حلوة الشمائل، صبغت حواجبها بصباغ أزرق، وأبرز الكحل

جمال عينيها، وقد فركت أسنانها بالصدف، ولوّنت شفتيها باللون الأحمر من مضغ نبات التنبول، وخلف الحجاب الحريري شبه الشفّاف الذي تضعه بإهمال على رأسها، انسدلت خصلات رفيعة من شعرها على ظهرها الضئيل. وكانت كلّ حركة تأتي بها، مصحوبة برنين الأساور الزجاجية الملوّنة.

اقتربت حاملة قيثارتها بيد بيضاء ناعمة، وانحنت أمام مولانا، ودعته - قمة الجرأة - إلى غرفتها. ولدهشة الجميع، قبل الرومي دعوتها. وكنت أنا الوحيد الذي لم يفاجأ بذلك.

فخلال الشهور الثلاثة عشر الماضية، صُدمت ودُهشت وأثيرت أعصابي مرات ومرات. لذلك لم يزعجني أبداً أن يدخل أكبر شيخ صوفي غرفة امرأة سيئة السمعة.

عندما رأى صاحب الخان أنني بقيت واقفاً خارج الحجرة، لأتدفأ بأشعة شمس الصباح، دعاني إلى النزول إلى غرفة المخزن المطلة على صحن الخان حيث تُخزَّن عينات من البضائع الواردة من جميع أنحاء العالم: الزجاج من حلب، والتوابل من زنجبار، والعنبر من الهند، والبلور من مصر، والفراء من أذربيجان، والحرير الصيني، والقطن الإيراني. جالت عيناي من سلعة إلى أخرى. وعندما لمست القماش الفارسي، وجدت نفسي فجأة هناك، في نيسابور، في محل صانع العطور والشاعر، العطّار. كنت كما لو أنني حاضر في تطوره الروحي، في ذلك اليوم الذي أراه درويشاً يمكنه، إذا شاء، أن يقع ميتاً على الفور.

تمكنت من رؤية العطّار جالساً في محله. وفجأة توقّف رجل في أسمال بالية أمام المحل وراح يتفحّص الأعشاب والعقاقير المعروضة. ، فقال له العطّار محرجاً: «إن لم يكن لديك عمل فلا

تقف هناك، هيا امضِ، اذهب إلى عملك»، فأجاب الرجل المسكين ببساطة، «انظر كيف سأذهب»، ووضع عمامته على الأرض، ثم أراح رأسه عليها، ومات.

أرى ذلك من بعيد. أرى المشهد مرة أخرى. أنا في محل العطّار بسبب تلك العمامة القطنية المصنوعة في خراسان. بإمكاني أن أرى الرجل وهو يموت.

ملمس قطعة الحرير من مدينة سوتشو تبعدني عن بلاد فارس وتأخذني إلى الصين، تعيدني إلى أكثر من خمسة قرون. هذه المرة، أستطيع أن أرى المحظية الملكية، يانغ غويفي، وهي تُقتل. الجلاد يخنقها بحزامه في حضور الإمبراطور كسوانزونغ الذي يخفي وجهه بكمّه الواسع كي لا يرى الألم المرتسم على وجه المرأة التي هام بها وأحبّها أكثر من أيّ شيء على وجه الأرض.

أجد نفسي الآن في الحانة في ماوي محاطاً بالحرس الإمبراطوري. الوقت يجري بسرعة ويجب أن يهرب أفراده من المتمردين بسرعة. لكن على الرغم من الاضطراب والعجلة، يبدو أن قادة الجيش، المسؤولين عن قتل يانغ غويفي واثقون، لأنهم تخلصوا الآن من مصدر كل المشاكل والفساد والتعيينات المشكوك فيها. وقبل أن أغادر الحانة، أرى *ابن السماء* يستعيد الحزام الحريري الذي نقل به معشوقته من هذا العالم إلى العالم الآخر.

أجد نفسي جالساً في مكتب صاحب الخان. تلقائياً، أمسك لفّة الحرير وأدسّها في قميصي كتذكار من المحظية المقتولة. الذاكرة السرية للقماش.

جلب لي أحدهم شراب ماء الورد وقطعة من حلاوة اللوز، وبغتة تناهى إليّ صوت قيثارة. لاذ الجميع بالصمت. لم يتحرك

أحد. ترك صاحب الخان ومساعده فواتيرهما، وترك ساسة الخيل خيولهم، وترك المسافرون حقائبهم. كانت الأنغام تتسلل من غرفة تافوس حيث كان مولاي يستمع. المستمع الوحيد في جمهورها. وسرعان ما أضافت إلى عذوبة موسيقاها ألحان أغانيها، ثم تركت آلتها، وراحت ترقص - بحركات ربما كانت الأكثر جمالاً وبهاء - كما تهيأ لنا من صوت خلخالها.

أمضيت فترة الصباح كلها على تلك الحال. كان مولانا لا يزال في غرفتها. قادتني رائحة الشواء إلى حجرة الطعام حيث كان بعض الشبان يقدمون اللحم المشوي واللبن والحلويات والأشربة في صوانٍ نحاسية كبيرة. جلستُ لأتناول طعامي، اعتراني شعور بأن الرومي لن يخرج إلا بعد حين. قُدِّم طعام الغداء، وأقيمت صلاة الظهر في المصلى القائم في وسط الفناء بجانب النافورة. مرّت فترة القيلولة ولم تظهر أي إشارة من الرومي. استمرت تافوس في العزف والغناء والرقص. بدأ المساء يحلّ. وما إن هممت لأن أبعث رسولاً إلى البيت لأطمئن العائلة، حتى توقّفت الموسيقى. ظهر الرومي ترافقه عازفة القيثارة، تمسك بيدها قطعة من الموصلين، وهي قطعة من عمامة مولانا قدمها لها عربوناً تعبيراً عن الامتنان، قماشة لامست جبهته.

لم يكد يدلف بوابة الخان، حتى رأينا خازن السلطان يدخل إلى غرفتها. كان رأسه مغطى بعمامة خضراء مطرزة، وكان يرتدي معطفاً من مخمل أزرق داكن تعلوه أزرار محاكة من خيوط ذهبية. وبرز من وسطه سيفان يلمعان، يتبعه حرّاسه.

من السهل تخيّل ما جرى بينهما. فعندما رآها محاطة بهالة حماية مولانا، ارتعش الخازن الصارم أمام بهاء جديد، أجمل من

قبل. فقد بدا على وجهها الآن مزيد من الاطمئنان، فازداد تألقاً وبهاء. سألها وعلم أن الرومي أمضى سحابة النهار في صحبتها. مصدوماً، أراد على الفور أن يتزوّج المرأة التي ربطت حول رسغها الهدية التي قدمها لها مولانا. شريط صغير من الموصلين قصّه من عمامته. ولزيادة النعمة لتلك اليد، ملأها بخمسين ألف دينار- لسنوات عديدة تناقلت المدينة هذه القصّة. ثم أرسل تافوس إلى الحمّام، وتزوّجها في صباح اليوم التالي. دُعينا جميعاً: الرومي وشمس وصلاح، صائغ الذهب، وسلطان ولد وذريانوس اليوناني وأنا، حسام، لحضور حفل زفاف عازفة القيثارة وخازن السلطان. كيف يمكن لهذا الرجل المتعصّب، الضيّق الأفق، أن يقترن بتافوس الفاجرة؟ تساءل جميع أهالي قونية. كنت أنا الوحيد، بالإضافة إلى الرومي، اللذين كانا بإمكاننا الإجابة على هذا السؤال.

بعد أن أمضينا اليوم في الخان، حيث غمرتنا موسيقى تافوس، عدنا إلى البيت في وقت متأخر. كانت الفوانيس تنير الفناء وبضع شموع تومض في حجرة شمس التي نقش على بابها بخط مولانا: «مسكن حبيب الخضر»، مشيراً إلى أن شمس تبع الرومي كما تبع موسى الخضر.

دخل إلى الحجرة، وتمنى لنا نوماً هانئاً وأغلق الباب بسرعة. ثم سمعته يردد هذه الأبيات لشمس:

أنا مثل قيثارة، رأسي مطرق استسلاماً،
أنت، بيديك، تعزف وتداعبني.

بعد أسبوع، بعد أربعمائة وثمانية وستّين يوماً على لقائهما، غادر شمس قونية.

طيران المحبوب

في الأيام الأخيرة التي عاشها في المدينة، بدأت الاتهامات التي وجّهها له أعداؤه تزداد خطورة وحدّة. وكان علاء، ابن الرومي الأصغر، على رأس أولئك المحتجين. وراحوا ينعتون شمس بعبارات من قبيل «الدجال» و«سارق الضمير»، وأضحى الآن في نظرهم «ساحراً شريراً». وقرّروا أن يأخذوا الأمر بأيديهم. واقترح أشدهم تطرفاً قتله. أما المعتدلون فقد أرادوا اللجوء إلى الشريعة لطرده من المدينة، وتمنّى آخرون أن ينغصوا عليه عيشه ويحملوه على مغادرة المدينة. وقد نجحت المجموعة الأخيرة.

قبل مساء اليوم الذي غادر فيه شمس، أي قبل طيرانه، أتيت لزيارته، وقد سمح لي بالدخول إلى حجرته هذه المرة. بينما كنت أجتاز العتبة، تذكّرت قصّة هروب طير آخر، قصة رواها الشاعر العطّار، حيث يقول أبو يزيد: «لقد حققت الوحدة وانطلقت لبلوغها. لسنوات عديدة، رحت أطوف في هذا الوادي، أتأمل وأنا أسير، حتى أصبحت طيراً، جسده الوحدة، وريشه الخلود. ثمّ حلّقت في هواء «كيف»، وقلت لنفسي إنني، بعد أن اختفيت عن عيون المخلوقات الأخرى، لا بدّ أن أصل إلى الخالق. ثمّ ظهرتُ في وادي الذات الإلهية حيث شربت طاسة لم ترو عطشي للخلود، وعلى

مدى ثلاثين ألف سنة، حلّقتُ في أجواء وحدانية الله. طوال ثلاثين ألف سنة حلّقتُ في ألوهيته، ولثلاثين ألف سنة أخرى حلّقتُ في ذاته. وعندما مرت تسعون ألف سنة، رأيت أبا يزيد. كلّ ما رأيته كان نفسي. ثم اجتزت أربعة آلاف صحراء وبلغت النهاية. وعندما تطلّعتُ حولي، وجدت نفسي عند الخطوة الأولى التي خطاها الأنبياء».

في الحجرة المريحة جداً، كان شمس يرتعش من البرد. بدت أصابعه الطويلة قرمزية اللون. انحنيت وأمسكت بيديه ورفعتهما إلى شفتي، محاولاً أن أدفئهما بأنفاسي. حدثني عن أمور مختلفة، ثمّ قال لي: «لقد حان الوقت لكي أغادر. في كلّ لحظة، فراق. في كلّ لحظة، قدوم. في كلّ لحظة، ذهاب».

كنت حانقاً من نفسي على الدوام لأني لم أر في تلك الكلمات، الشديدة الوضوح، رغبته الجلية في المغادرة.

في صباح اليوم التالي، وجد الرومي غرفة شمس فارغة، فأرسل في الحال رجالاً للبحث عنه في كلّ خان، وفي كلّ باب من أبواب المدينة حتى لا يطير الطير بعيداً، لكن جهودهم باءت بالفشل. فقد تنكّر في هيئة درويش غير معروف، تمكن الرجل - الذي يسعى إليه أكثر العلماء شهرة ويطلبه الأمير والسلطان - من مغادرة المدينة من دون أن يعرفه أحد.

طوال سنة ساد صمت مطبق في أرجاء البيت. ولم يعد يسمع قرع الدفوف، وغابت البهجة عن النفوس، وتوقفت جلسات الموسيقى والسماع. ولم يعد مولانا يرى أحداً، ولم يعد يضحك، ولم يعد يذهب إلى الحمّام العامّ، ولم يعد يأكل تقريباً. وبدا أن ارتباطه الوحيد بالحياة يكمن في الأمل في أن يوافيه أحد بأية

معلومات عن شمس الذي اختفى: أين هو؟ إلى أي مدينة ذهب؟ مع من شوهد؟

كلما طلب زائر غير معروف رؤية مولانا، كان يسأله - بواسطة وسيط وهو واحد منا - عن أحوال الطرق، وعن قطاع الطرق، وعن أسباب الراحة المتوفرة في الخانات، والأمن السائد في المدن. وعندما لم يكن يفهم الزائر التعيس لماذا تطرح عليه كل هذه الأسئلة، كان يحاول أن يكون دقيقاً في أجوبته بقدر الإمكان، وننهي اللقاء دائماً بالسؤال التالي الذي يتكرر مائة مرة:

«أثناء رحلاتك، هل صادف أن قابلت رجلاً يقارب الستين من العمر، طويلاً ونحيفاً وحسّاساً تجاه البرد، يعتمر قبعة سوداء من الكتان، عصبي المزاج وجلفاً؟» فيجيب الغريب عادة بأن رجلاً كهذا لم يلفت انتباهه. نعم، لقد رأى رجالاً مسنين متذمّرين. نعم، رأى عجائز من كلّ نوع؛ طوال القامة؟ لكن ليسوا فارعي الطول. ورجال نحيفون ويرتجفون أيضاً. هذا كلّ ما يمكنك أن تراه في جميع طرق السفر.

كنا نعود إلى مولانا ونقدم هذه التفسيرات للرجل الذي أصبح يعرّف نفسه الآن بأنه «الواحد الذي ينتظر».

«أربعمائة وثمانية وستّون يوماً»، كان الرومي يحصي بلا كلل وبدقة الأيام التي أمضاها بصحبة شمس.

في الأشهر التي تلت ذلك، خاب أمل المتآمرين الذين ظنوا أن طيران الطير سيغيّر من لامبالاته تجاههم. فلم يرفض الرومي إعادتهم إلى دائرته فحسب، بل كان يعتقد أيضاً بأن سلوكهم المقيت هو السبب الحقيقي لمغادرة شمس، فطردهم من بيته ومن حاشيته، وعاد

المريدون السابقون الذين كانوا يأملون في أن يستأنف مولانا دروسه يملأون الفناء.

«نظّف هذا المكان من قذارتهم»، قال لي مولانا، وأضاف، «لكي لا أستهدف ظلّهم».

باللغة الفارسية فإن عبارة «يستهدف ظلّ أحد» هي تهديد شديد، وتعني أنه لا يستهدف جسم المرء فحسب، بل ظلّه كذلك، أي أن يزيلهم عن الوجود تماماً. وأصبحت أسمع هذه العبارة عشرات المرات في اليوم الواحد، فقد تحوّل الرومي الحليم الرقيق المرن، إلى شخص نزق، بَرِم، سريع الغضب. لقد أصبح شمس التبريزي نفسه.

أما علاء، ابن مولانا الثاني السيئ الخلق، فقد بدا ضائعاً. فقد كان يأمل هو أيضاً في أن يعود الرومي - عندما يصبح شمس خارج أسوار قونية - كما سيرته الأولى قبل أن تقام جلسات الموسيقى والسماع، أن يعود إلى ذلك الرجل الذي يتحلّق حوله آلاف المريدين، الرجل الذي لا يتوقف عن الدعاء والصلاة ليل نهار. لكن لم تمض فترة حتى اضطر علاء أيضاً إلى مغادرة البيت. فقد رفض والده حتى أن ينظر في عينيه.

مرّ الوقت ببطء شديد. لم يعد مولانا يقيم جلسات موسيقى وسماع، ولم يكتب بيتاً واحداً من الشعر. مرت سنة ساد فيها صمت مطبق. في ذلك الشتاء، لم يتوقف الثلج عن الهطول وظلت قباب مدرسة قونية الصغيرة بيضاء طوال شهور. ولسنوات عديدة، كنا نعدّ بعض الثلج لصنع عصير الفاكهة الذي كان مولانا مولعاً به. خلال تلك الليالي الشديدة البرودة، كنا أنا وذريانوس نصنع كتلاً من الجليد، ونترك الماء يتدفق ليشكل بركة ضحلة. وبما أننا كنّا، أنا

وهو، الأقوى جسدياً من بين المريدين الآخرين، فقد كنا مكلفين بتكسير الجليد إلى قطع بفأس ومعول. ثم كنا نحمل كتل الجليد على أكتافنا العريضة - آنذاك كان صدري يشبه أعمدة المساجد لا أروقته - إلى الكهوف ذات القناطر المعدة خصيصاً لهذا الغرض. وفي صباح أحد الأيام، بينما كنّا منهمكين في العمل، دخل غريب إلى الفناء وقال إنه تاجر قدم من دمشق. وشأن الآخرين جميعاً طرحت عليه ذات الأسئلة، فأجاب عن سؤالنا عمّا إذا كان قد صادف رجلاً عجوزاً طويل القامة، نحيفاً، يرتعش، بأنه رأى عدة مرات، في السوق في مدينته، رجلاً يشبه شمس شبهاً تاماً. عندما سمعت ذلك سقطت من يدي كتلة الجليد وكنت مستعداً لتركها تذوب فيذهب عملي طوال اليوم سدى، وأطلقت رجلي للريح لأنقل الخبر إلى مولانا. كان يقف في المكتبة السابقة أمام رسّام مشهور من البلاط. كان الرسّام يحاول رسم لوحة لمولانا بناء على طلب الأميرة غوردجي، أخت السلطان وإحدى المريدات المتحمسات لمولانا، لكي تكون اللوحة رفيقتها الروحية في ترحالها.

لم أشأ أن أشوش تركيز الرسام الذي كان ينقّل عينيه بين وجه مولانا وبين اللوحة، والفرشاة في يده. كان يرسم بريشته، وبالأخرى كان يضيف الألوان. تحدّث الرومي عن دقّة النبي والرسّام ماني الذي رسم في حيز بحجم بيضة «الربع المأهول» أي «اليابسة بجميع مدنها» و«ثلاثة الأرباع غير المأهولة». أما الأمر الأكثر جلالاً، كما قال مولانا، فهو عباءة ماني التي كانت تظهر عندما يرتديها، وتختفي عندما يخلعها.

عندما أنهى الرسام اللوحة، ألقى الفنان نظرة أخيرة على الرومي وعلى اللوحة بأكملها. لكن لدهشته فقدت اللوحة التي رسمها فجأة

أي شبه بمولانا الذي رسمه. مرتبكاً، حاول مرة أخرى، لكنه لم يفلح أيضاً. لا بد أنه أحس بضيق شديد. وراح يعدّل خطّاً هنا، ويخفّف أو يحسّن لوناً هناك، وقد اغرورقت عيناه بالدموع. وأخيراً، لم يعد يعرف ماذا يفعل. في خضم يأسه وحيرته قرر أن يتوقف عن المحاولة. وعندما رأى مولانا علامات الإحباط على وجه الرسّام، قال قصيدة. رحت أستمع إليه وأنظر إلى اللوحة، فبدا لي أن صورة الرجل الذي كان يتكلّم بدأت تتشكل وتذوب أمام عيني:

من دون أي لون
ومن دون أيّ علامة!
متى سأكون قادراً، أنا،
على رؤية نفسي أخيراً،
كما أنا حقاً؟

تقول: «اجلب أسرارك،
حدّثني عنها،
ضعها في المركز،
لكن من يستطيع أن يقول
أين هو المركز
المركز الذي هو أنا؟

متى جدول روحي
سيخمد ويظل ساكناً؟
أنا الذي يظل ساكناً،
الروح التي تجري التي هي أنا.

محيطي، هل هناك،
غرق هو أيضاً.
يا للذهول، ذلك المحيط،
بدون شاطئ، ذلك هو أنا.

لا تبحث عنّي في هذا العالم،
لا تبحث عنّي في ذلك العالم،
لأنهما ضاعا كلاهما،
في هذا العالم، هنا، أنا!

مثل العدم أنا حرّ،
من الخسارة ومن الربح.
يا له من شيء غريب وفريد،
بدون ربح أو خسارة، أنا!

قلتُ: «أيها النَفَس، إنك مثل
جوهرنا»، فقال لي:
«لكن ماذا يمكن أن يكون هذا الجوهر،
في هذا المرئي، الذي هو أنا؟»

قلتُ: «انظر من تكون».
فقال: «أوه، اصمت،
فلم يصل اللسان،
انظر إلى من يتكلم،

من دون أي كلمة،
وذلك هو أنا».

قلت: «إذا كان اللسان يقول:
لماذا لم تصل؟
انظر إلى من يتكلّم،
من دون كلمة، ذلك هو أنا!»

وأنا، بلا قدمين مثل القمر،
توجهت نحو العدم.
انظر إلى خادمك الذي يجري
بلا قدمين، الذي هو أنا!

جاء صوت، وسأل،
«لكن لماذا تجري؟
انظر هنا في هذا المرئي،
اللا مرئي الذي هو أنا!»

رأيته، شمس التبريزي،
وهكذا أصبحتُ،
المحيط الوحيد، الكنز،
ومقلع الحجارة أيضا، الذي هو أنا!.

«لقد رأيته، شمس التبريزي». لم أستطع أن أسأله لأسمع ردّاً

أفضل. كرّرت العبارة بشكل حرفي تقريباً: «تاجر قادم من دمشق رأى شمس التبريزي».

بانزعاج ألقى نظرة على البقعة التي أقف فيها والتي تبللت بالماء وأصبحت مثل بركة من البول. قدمت بضعة تفسيرات عن قطع الجليد التي لا بدّ أنها بدأت تذوب بسبب ملامستها جلدي وتغلغلها في ثيابي. لاحظ يدي اللتين كانتا لا تزالان تنزفان من شدة البرد والتعب. ثمّ، بصفاء تام، طلب مني أن أكرر البشارة، مرّة، مرّتين، ثلاث مرات... «تاجر قادم من دمشق رأى شمس التبريزي. بدا لي أنه كان يريد إدامة البهجة التي انبعثت، ثمّ طلب مني أن أذهب وأحضر التاجر وطلب مني أن أقدم له ألبسة رسمية.

غادرت الحجرة، وتتبعت الأثر الذي خلّفه السائل خلال سيري. عدت إلى الباحة المكسوة بالثلج حيث ينتظر جالب الأخبار. ارتبك الرجل الذي لم يكن يأمل حتى في أن يحظى بلقاء بسيط مع الرومي، وقد وجد نفسه يعامل كأنه أدى معروفاً كبيراً لمولانا. أمر الرومي الرسّام بأن يرسم صورة شمس، مؤكداً بأنه لا يستطيع أن يعيد رسم النَفَس الذي يبث الحياة في وجهه. بدأ الفنان عمله في الحال. وسرعان ما بدأت ملامح الطير تظهر شيئاً فشيئاً بالحبر الأسود. ما كادت اللوحة تكتمل حتى صاح التاجر، «إنه هو! أنا على يقين من أنه هو. الرجل الذي رأيته في سوق دمشق. إنه هو».

في تلك اللحظة عادت الابتسامة ترفرف على وجه مولانا. رأيت الحزن يتحوّل إلى بهجة. عادت الحياة إلى البيت مرة أخرى. رشّ خادم الأرض بماء الورد وأضاء الفوانيس، وأعدّ الطهاة أنواع الحلوى والأشربة، وبدّل الرجال ثيابهم الغامقة التي كانت حتى ذلك الوقت تشي بالحزن، وارتدوا ثياباً زاهية الألوان، وتركت أنا

وذريانوس كتل الجليد. وبعد كل تلك الشهور من المعاناة، رأيت الرومي وقد عاد ليكتب. أرسلنا رجالاً ذوي ثقة إلى دمشق للبحث عن حبيبه وتسلميه رسالة.

بعد أسبوع، وصل أول رد من شمس، «*أريد أن أقول لمولانا إنني منهمك بالدعاء والتضرع ولم أعد على تواصل مع أيّ مخلوق حيّ*».

فكرنا كثيراً بمعنى الرسالة، وفي النهاية فسرناها بأنها إشارة تدل على العودة، على الولاء، على عرس قادم. لا بد أن عبارة «لم أعد على تواصل مع أيّ مخلوق حيّ» هي لطمأنة الرومي الذي لم أكن أتصور، حتى ذلك الحين، أنه يمكن أن تنتابه الغيرة. احتشد العازفون في صحن المدرسة، وتهيأوا لعزف أجمل الألحان وأكثرها بهجة. كنا، أنا وذريانوس وصلاح، صائغ الذهب، وسلطان ولد، نتطلّع إلى إقامة جلسات الموسيقى والسماع. وسمعت أصوات الصنوج من حجرات النساء.

أخذ الرومي ريشة قلمه، وكتب ردّا على رسالة شمس المبهمة، قصيدة سمح لي بقراءتها. رفعتها وضغطتها على شفتي، ثمّ رفعتها إلى عيني. بعد عبارات التبجيل، قرأت:

من اللحظة التي رحلتَ فيها،
فُصلت عنك،
كما يُفصل الشمع،
عن العسل.

كلّ ليلة،
أحترق كشمعة،

مكتوياً بناره،
محروماً من مودّته.

في فراق جمالك، لنا
أصبح جسدي
خرباً، والروح،
فيه كالبوم.

ألا فاجذب لجام حصانك
إلى هذا الطريق
واملأ خرطوم فيل العشق
حتى الشفة.

بدونك، السماع ليس حلالاً،
كالشيطان طَرِبَ فرُجِم.
بدونك، لم يُقَل غزل واحد،
حتى استقبلت هذا المبعوث، شارة الشرف.

ثم، مبتهجاً بسماع رسالتك
نظمت خمس غزليات أو ستّ.
أضاء الله ليلي منك كالصباح،
يا من فيك مجد دمشق وأرمينيا وروما.

حمل مبعوث آخر هذه القصيدة إلى شمس، شمس الطير. تلقى الرومي رسائل أخرى من شمس.

استمر تبادل الرسائل ثلاثة أشهر. ذات يوم، أحسّ أن مدّة الفراق قد أنضجته، وأنه أصبح بإمكانه الآن، أخيراً، أن يقطف الفاكهة، فطلب الرومي من الطائر الذي طار إلى قونية أن يعود. أُرسل ذريانوس إلى دمشق وكُلِّف بإقناع شمس بالعودة، حاملاً معه قصيدة واحدة:

اذهبوا أيها الأصدقاء،
أحضروا صديقي،
أحضروا لي في النهاية،
المعشوق الفار.

بالأعذار الحلوة،
والأناشيد الموزونة،
أحضروا إلى البيت،
ذلك القمر الجميل الوجه.

وإذا وعد قائلاً:
سآتي قريباً،
فإن كل وعد منه،
حيلة يخدعكم به.

أنفاسه حارة،
بمفاتنه وسحره،
يستطيع أن يعقد الماء
ويختم الهواء.

لم نر في ردّ شمس أي ممانعة لفكرة عودته. طلب مولانا أن ينطلق ابنه سلطان ولد وعشرون من أتباعه المخلصين إلى دمشق على الفور والإتيان «بالمعشوق الفار». وفي فجر أحد أيام الربيع، رافقت الابن البار ومرافقيه حتى باب المدينة. كانت القبائل التركية تفك خيامها وتجمع قطعانها قبل قدوم الصيف. نباح الكلاب أجاب على صيحات اللقالق التي أرخت أجنحتها على سيقانها الرفيعة بعد أن عادت من هجرة طويلة. تذكّرت ذلك القول الشعبي الذي يصف اللقلق بأنه طير يتخذ من قمم المآذن بيوتاً له، ويحجّ في كلّ سنة إلى مكة المكرمة مجللاً، كما يليق به، بالبياض. كان مولانا يقول دائماً إن صياح اللقلق «لاك لاك» هي إشارة تدل على الإيمان بالتوحيد باللغة العربية.

بعد أن ودعت سلطان ولد وحاشيته عند باب المدينة، وشيّعتهم بعيني وهم في طريقهم إلى دمشق، كان بإمكاني أن أتصوّر عودتهم حاملين أنفس الهدايا، شمس التبريزي.

مع مرور الأيام، بدا أن ترقب لقائهما قد ساهم في تحسن مظهر الرومي. فقد توردت بشرته الشاحبة.

عاد الرومي إلى إقامة حلقات الموسيقى والسماع. وكدأبه كان يرقص وهو يمضغ قطعاً من الثلج. لقد رُدَّت روحه إليه. وأيّ مناسبة أفضل من هذه تجعله يبدأ رقص السماع والدوران. في أحد الأيام، التقى في وسط السوق رجلاً تركياً يبيع جلود الثعلب، ويصيح، «*دلكو! دلكو!*» (ثعلب، ثعلب) بلغته الأم. وفي الحال، انفصل مولانا عن أتباعه وراح يدور ويدندن بنفس الإيقاع، «دل كو، دل كو» التي تعني بالفارسية «أين هو القلب؟ أين هو القلب؟» وتتبعنا حركاته، وعلى نغمة هذه العبارة رقصنا ونحن عائدين إلى المدرسة.

وفي يوم آخر، بينما كنا مستغرقين في الرقص، وزّع مولانا ثيابه على المنشدين وهو يدور حتى كاد يصبح عارياً. فهرع مضيفه الذي رآه على هذه الحال وغطاه بعباءة من القماش القرمزي، وفراء الوشق، وعمامة من الصوف المصري، لكن الرومي استمر في دورانه، دون أن يعبأ إن كان عارياً أم مكسواً. عندما انتهت جلسة السماع، وخلال عودتنا إلى البيت، سمع صوت عزف على الربابة منبعثاً من حانة أرمني. توقّف فجأة، ثم جمع الأشخاص المتحلقين حوله، وراح يرقص معهم. عند الفجر، أعطى الأرمني ثيابه الفاخرة وعاد إلى بيته شبه عار.

في بعض الأحيان، كنت أمسكه بذراعي أثناء رقصة السماع وأغطّيه بمعطفي، بعد أن يحرّر نفسه من كلّ ثيابه وتأخذه النشوة. كيف يمكن أن نتصوّر رؤية هذا الرجل الذي نحترمه ونجلّه، هذا الرجل، صوت الله، اتحاد العالمين، يرقص أمامنا شبه عار؟

ذات يوم، وجدته في الحمّام يتفحّص جسمه مشفقاً. عندما عرف أنني في المقصورة، قال: «لم أشعر بالخجل في حياتي كلها. لا أعرف ما هو. لكنني اليوم أصبحت أخجل من رؤية جسدي النحيل. لقد كلّمني جسدي، لقد ابتعد جسدي عنّي، اشتكى لي، أنّبني لأنني لم أمنحه يوماً واحداً من الراحة».

كان جسمه قد نحل كثيراً. وبدا لي أن جسمي الرياضي، بالمقارنة مع جسمه، قد قُدَّ من مادّة مختلفة تماماً. وإني أذكر أول مرة رأيته فيها، قبل ثلاث سنوات، وهو يرتدي معطفاً أبيض بلون الحليب، ويعتمر عمامة معقودة بأناقة. آنذاك، كانت عضلاته تبدو محفورة في الحجارة. كانت مشيته تشي بمرونة تجلّت في رقصه. وقد بدأ يزداد وهناً ونحولاً بعد فترة قصيرة من مغادرة شمس، ومن

شدة قلقه فقد الكثير من وزنه وقوته، لأنه لم يكن يعرف إلى أين ذهب الحبيب القديم، بل وفقد شهيته ولم يعد يحب تناول أطايب الطعام التي تعدّها له زوجته كيرا: الزيتون من الهند، والأجاص المجفّف من بلخ، والتفاح من سوريا. وبعد أشهر من إهمال نفسه، بدأ يدرك أخيراً جسمه المعذّب الذي أصبح ضامراً، واهناً.

وفي مساء كلّ يوم خميس، كان يزور مجموعة من النساء، ويقيم جلسات سماع ويدور محاطاً ببتلات الورد ومغموراً بماء الياسمين، ويدور حتى مطلع الفجر، مع سيدات قونية اللاتي كن يعزفن الموسيقى ويغنين. كان يلقي السلام على كلّ شجرة يمرّ من جانبها. قال البعض إنّهم رأوا الأشجار تنحني له رداً على تحيته لها، وكان يكلّم الكلاب التي تتحلق حوله، وتنبح وتهزّ رؤوسها، مبدية أنها تفهم بصيرته. وفي إحدى المرات، ذهب لزيارة معبد قديم خرب، وقدم لكلبة تتناول الفضلات والقاذورات قطعة محلاة بالسكر. هل فقد رشده؟ عندما علق حذاءه في الطين، خلعه وراح يمشي حافياً. كان على استعداد لأن يخلع ملابسه، ويقدم عباءته وعمامته وقميصه وحذاءه إلى متسول. وكان يمتصّ عنب الثعلب لمعاقبة جسده، كما قال لي ذات مرة، بتلقيح لعابه الحلوّ بتلك المادة المرّة اللاذعة الجارحة. وكان يتذمر من شهرته التي يشبّهها بسلاسل من حديد، لأن الغرباء جميعاً يدّعون أنهم أحباؤه.

مرة أخرى، دعا أفضل القرّاء لديه، حمزة الأحدب الطيب الطبع وعازف الناي العظيم، لمرافقته في جلسة السماع والرقص. وكتب بعض المريدين الذين ادّعوا وكتبوا وشهدوا بأنه في إحدى جلسات الموسيقى والسماع، عندما كان الأحدب قد بلغ مرحلة البهجة، منحنياً فوق آلته، أخذ مولانا الغارق في نشوة الطرب، يمسّد حدبة

العازف بيده، ثم طلب منه أن ينهض ويقف، فشفي وزالت عاهته على الفور، وعاد الأحدب وهو يسير منتصب القامة إلى بيته، فرفضت زوجته التي لم تتبين ملامحه جيداً في البداية، أن تفتح له الباب.

أما حمزة، عازف الناي، فقد شهدت بنفسي أنا، حسام، أمراً غير عادي يخصه. فقد قيل لنا ذات يوم إن هذا العازف الماهر قد مات فجأة. فتوجّه مولانا في الحال إلى بيت المتوفى وتبعته. دخل مولانا غرفة النوم التي سجي فيها جثمانه وظل فيها لفترة طويلة. وبعد قليل سمعت - ولم أكن وحدي - صوت ناي حمزة المتميّز. من المستحيل أن يكون الرومي هو الذي يعزف لأن عزف الناي يتطلب نَفَس ومهارة عازف محترف. عندما توقّف العزف، سمعتُ صوت الرومي يقول: «الآن، مات».

من كان يعزف؟ لم يسعني الجزم.

لم يقتنع بعض المخلصين، نفس الأشخاص الذين يحبّون الثرثرة، بروايتي وأشاعوا في أرجاء قونية بأن الرومي أعاد حمزة، عازف الناي، إلى الحياة لمدة ثلاثة أيام بلياليها، وأنه لم يتوقف عن عزف الناي للرومي خلال تلك الفترة.

ومرة أخرى رأيته، كعادته يشارك الأطفال لعبهم. ففي أحد الأيام، رأى ابنه البار، سلطان ولد، معكّر المزاج، حزيناً. فسأله الرومي ماذا يحزنه. وعندما لم يعطه سبباً شافياً، خرج مولانا من الحجرة ثم عاد بعد قليل وقد غطّى نفسه من رأسه حتى قدميه بجلد ذئب، واندفع إلى غرفة ابنه وهو يصيح «هوهوهو». وعندما رأى سلطان ولد سيد الأسياد يقلد الذئب، انفجر ضاحكاً. وغشي عليّ أنا الذي كان لي شرف أن أرى هذا المشهد المضحك، من

الضحك. ولو كنت أنا أيضاً ممن يختلقون قصصاً عن الرومي، لقلت إن ضحكتي دامت ثلاثة أيام بلياليها.

مرة أخرى، رأيته متكئاً إلى حائط المدرسة لمدة طويلة وهو يردد، «الله! الله!» وقد ادّعى الذين يحبون حياكة الأساطير عنه، وهم دائماً ذات الأشخاص، بأنّهم رأوا الرومي فاغراً فمه، مع أن شفتيه لم تكونا تتحركان، وأنهم سمعوا دعاءه ينبعث من داخل صدره.

وكان يؤنب من يقاطعه عندما يكون مستغرقاً في حالة وَجْد وهو يستمع إلى الرباب. فقد سمعته يوبّخ رجلاً دخل أثناء عزف الرباب ليعلن أن موعد صلاة العصر قد حان، فصاح به، «هذه أيضاً صلاة. واحدة تدعو إلى خدمة المرئي، والأخرى تدعو إلى اللا مرئي لفهم الحقيقة».

وقد كتب على ذلك الجدار «يمنع من يحرم نفسه غذاء الروح»، وسجل في كتبه أشياء مثل «دموع المحبوب برهان على مسرة الحبيب»، ويغنّي:

اشته من يشتهيك،
ابحث عمّن يبحث عنك.

مرة أخرى، تماماً كما كان يحدث قبل مغادرة شمس، وعد بعض المريدين بأن يمضي الأمسية معهم، وطلب منهم أن يستعدوا لاستقباله. كان من بينهم صديقي سراج الططري الذي يمكن التعرف عليه من شاربيه الطويلين. وارتدى لهذه المناسبة أفضل ما لديه من ثياب: سترة حريرية خفيفة فوق سروال من الساتان، وانتظر في مهجع المدرسة. وعندما ظهر الرومي أخيراً، وقال له: «ارتد ثوب نومك».

فعل صديقي ما طلبه منه الرومي فوراً، راجياً أن يفعل مرشده ذلك أيضاً. لكن الرومي الذي كان مستغرقاً في صلاة لانهائية، لم يفعل كما فعل. فقال له صديقي متوسلاً، وهو يفتل شاربه، «يا سلطان الدين، ألن تريح نفسك للحظة؟ فقد اقترب بزوغ الفجر وإني أموت لهفة للقاء ربي».

فأجابه الرومي، «يا سراج، لو نمنا فمن يرعى النائمين؟»

لم يحر سراج جواباً. كان طرفا شاربيه، بعد أن فتلهما كثيراً، قد أصبحا مثل خيط مهترئ.

وحكى لي أصدقاء آخرون قصصاً مماثلة، وعدهم فيها الرومي بإمضاء الليل معهم، لكن لأسفهم الشديد، لم يفعل شيئاً سوى أنه أمضى الليلة في التأمّل والصلاة. لم أكن من بين الرفاق المحبطين، وكذلك صلاح صائغ الذهب الذي بدا أنه واحد من الأشخاص القلائل القادرين على ملء غياب شمس.

وحكى لي أحد أصدقائي المقرّبين كيف أنه رأى مولانا وحده في غرفة اللقاءات. فانحنى المريد الشاب أمامه وجلس على الأرض. فقال له الرومي: «إقترب». مستنداً إلى ذراعيه، اقترب الشاب قليلاً من الرومي. فكرر الرومي قائلاً: «اقترب أكثر، اقترب أكثر». عندما اقترب منه كثيراً، قال له الرومي: «اجلس بحيث تلمس ركبتك ركبتي». فأطاع صديقي الذي قال لي: «عندما لمسته اقشّعر جسدي».

عند ذاك، بدأ مولانا يتحدث عن شمس التبريزي حتى أغمي على المريد الذي كان غارقاً في أعماق كلماته. وعندما أفاق، سمع مولانا يقول له مؤنباً:

لا تتسكع بخمول في سوق العطارين هذا،
اجلس إلى جانب من عنده سكّر.

عزم هذا الصديق على أن يعيش في بيت مولانا، مالئاً نفسه، ليل نهار، بالسكّر الذي وجده هناك.

مرة أخرى سخر الرومي ممن يرغبون في ممارسة رياضة النفس الذين اعتادوا على حياة الرخاء والذين لم يتمكنوا من مواصلة التحدي الذي وضعوه لأنفسهم. كانت تلك حالة مسؤول كبير أراد أن يتخذ خلوة في مدرسة مولانا. فوافق الرومي. لكن بعد بضعة أيام، هيمن الجوع على هذا الزاهد، ولم يعد قادراً على تحمّل الظروف القاسية للخلوة، فهرب تحت جنح الظلام وذهب إلى بيت صديق له، وملأ بطنه بتناول بطّة طهيت بالسمن والرزّ وبالكثير من التوابل، وعندما شبع عاد متسللاً إلى حجرته.

وفي اليوم التالي، كدأبه منذ أن تلقى خبراً عن شمس، جاء الرومي إلى باب الحجرة ووضع إصبعه عليه وشمّها، ثمّ قال: «يا له من أمر غريب. تنبعث من هذه الحجرة رائحة بطّة ورزّ، ولا تعبق منها رائحة زهد وكبح شهوات»، فارتمى الرجل التعيس عند قدمي مولانا، وقال: «يأتيك الكثير من الوحي والإلهام! لكن لماذا يجب أن أعتزل في حجرة لا يكلّمني فيها أحد؟»

لم أحاول أن أعرف كيف شمّ سيدي رائحة البطّ والرزّ اللذين تناولهما الرجل في بيت آخر في الليلة الماضية. لم أكترث لذلك. فقد كنت أركز اهتمامي على مراقبة تصرفات وتعابير رجل حوّله الحبّ، من معلّم قدير كان يفتقر أحياناً إلى الإلهام، إلى شاعر فذ. كنت أراقب وأنصت إلى هذا الكائن الذي جسّد فجأة التحوّل،

والحركة، والعشق الإلهي، والبهجة، والحماسة، والنَفَس... كنت أراقب أجمل القصائد وهي تنبعث منه حيّة أمام عيني.

بعد أن أنهى خلوته، وافق على إقامة جلسات الموسيقى والسماع وكان يفضّل صحبة الأشخاص العاديين على أهل العرفان.

ولن أنسى قط غضب الرومي من رجل سخر من رفاقه.

«إن أتباع الرومي المخلصين أشخاص غريبون. معظمهم أناس عاديون وحرفيون وخدم، وأصبح من النادر أن تجد حوله أناساً متعلمين. فهو يقبل جميع الخيّاطين والنساجين أو البقالين ويعتبرهم أكثر إخلاصاً له». وعندما سمع مولانا هذه الإهانة، صاح به، «يا أخ العاهرة! ألم يكن الحلاج يندف القطن؟ وألم يكن أبو بكر البخاري حائكاً؟ هل قللت مهنتهم من قدرتهم على الفهم والاستيعاب؟» لقد عاد ذلك الرجل الذي أصبح قليل الكلام بعد طيران الطير، إلى طلاقة لسانه كما كان في السابق. وكما كان في الماضي، راح يستخدم الإهانة التي طالما كان يرددها، كما يفعل مواطنوه من أهل خراسان، «أخ العاهرة».

وبينما كان ينتظر عودة شمس، فجر شمسه، الذي كان يعرف تماماً أنه سيعود، قبل دعوة أعظم الوجهاء في إقامة جلسة موسيقى وسماع في بيته. معين سليمان الذي كان مدير مدرسة القرآن الشهيرة والذي كان على وشك أن يصبح أحد أهم الشخصيات في قونية، ثم وضع نفسه في خدمة المغول. ومن بين جميع مريديه السابقين، كان معين سليمان واحداً من أوائل الذين تفهموا تحوّل مولانا. فما إن علم، بعد أن أقام الرجلان في خلوة لأربعين يوماً، بأن الدروس ستتوقف، وفهم أن التعليم سيستمرّ في مكان آخر، في أشكال أخرى، حتى تقبّل الرقص الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الوجد الصوفي

كخطوة أولى في هذا المسلك الجديد. وفي أحد الأيام رآه أشخاص وهو يدور مقلّداً الدوران اللانهائي الذي كان ثمرة الاتحاد بين الرومي وشمس. وكان التناسق بين لباسه وعمامته يلفت انتباهي كلما رأيته. فقد كانت ألوان ثيابه تخفي إحساساً حقيقياً بالجمال. فقد كانت ألوان جميع ملابسه وأثاث بيته بالأسود والأبيض والبني الفاتح. حتى أن وجهه كان يعكس تلك الألوان. فقد كانت لحيته شديدة السواد، وبشرته شديدة البياض. إلا أن حركة يكررها كثيراً كانت تميّزه عن الآخرين. فغالباً ما كان يضع المفصل الأول من سبابته في فمه، يبلّله بلسانه، ثمّ يرفعه إلى أنفه ويشمّه، أو هكذا كان يبدو.

في إحدى ليالي الشتاء الطويلة تلك، قبل عودة شمس، دعا معين سليمان الرومي إلى بيته. وكما درجت العادة، كان كلّ زائر يضع أمامه، كهدية، مصابيح من الشمع يزيد وزنها على ثلاثة أرطال. وكالعادة، كان مولانا آخر من يدخل، وكان يرى ذلك دليلاً على الاحترام لأنه لا يسُمح للأشخاص الأقل أهمية بالدخول بعد أن يدخل الرومي.

دخل مولانا حاملاً بيده شمعة صغيرة، وجلس على الأرض، وكالعادة، وضع الشمعة أمامه على البلاط الأسود والأبيض السداسي الشكل. نظر أعيان المدينة، الوزراء والقضاة والمفتون وجميع الحاضرين، أحدهم في وجه الآخر مندهشين: ماذا سيفعل مولانا الآن؟ لا بد أن الرجل قد جنّ. وعندما أدرك شكوكهم، قال الرومي: «إن نَفَسَ جميع تلك المصابيح ينبعث من شمعتي البائسة هذه».

عندما قال تلك الكلمات، أمال بعض الرجال رؤوسهم لإبداء

شكوكهم. نفخ مولانا على لهب الشمعة الصغيرة، فانطفأ... وانطفأت معه جميع المصابيح في اللحظة ذاتها. وفي الظلام الدامس، علت همهمات الحاضرين التي تنم على الدهشة. سُمع معين سليمان يبلّل العقدة الأولى من سبابته بلسانه. هل كان ذلك دلالة على عدم فهمه؟

لم أتمكن قط من تفسير هذه الأعجوبة. لكن رواة الحكايات، كالعادة، نمّقوا القصة وزادوها غرابة وإعجازاً. فقد ادّعوا بأن الرومي، بعد أن أطفأ جميع الشموع، تنهّد فاشتعلت الشموع ثانية، ثمّ انطفأت المصابيح الواحد تلو الآخر. أما شمعة مولانا الصغيرة فبقيت مشتعلة وحدها في بيت معين سليمان ذي اللونين الأسود والأبيض.

مع اقتراب عودة شمس، عاد ميل الرومي إلى السخرية. ففي أحد الأيام جاء إليه أحدهم وحدثه عن معجزات أحد الأولياء.

فقال له: «يا سيدي، إن باستطاعة هذا الرجل الورع أن يحوّل الماء النقي إلى دم. يمكنني أن أشهد بذلك، فقد كنت حاضراً عندما فعل ذلك. ما رأيك؟»

فسمعت الرومي يرد عليه قائلاً: «هذا ليس تحويلاً، إنها فضلات».

مرة أخرى، عاد إلى روحه الساخرة التي تلاشت بعد غياب شمس، من خصومه. ففي أحد الأيام، بينما كان يمرّ من أمام كشك شيخ ذائع الصيت يدعى ناصر، سمع الرجل يحكي عنه ويشوّه سمعته أمام تلامذته.

«انظروا إلى وجه سيدهم، مولانا، انظروا كم هو داكن! انظروا إلى الطريق الذي يتبعه، كم هو ضيّق. لا أعرف كيف يبدو وجهه أم

ما هي طريقته، أم كيف تبدو الثياب التي يرتديها. لا أرى فيه نوراً. لا أرى شيئاً».

عندها سمعت مولاي يصيح به من بعيد بصوت مرتفع، «وأنت، أنت أيها اللوطي، كيف تختار؟»

لم يجرؤ ناصر أو تلامذته على الرد على هذا العنف من مولانا، وتابعنا نحن وجميع من معنا طريقنا نتبع الرومي الذي أخذ يتكلّم عن مسائل أخرى. وانتهى الأمر بناصر العارف، الشيخ، العالم العظيم، بأن يعيش في أسوأ حي من أحياء قونية يبحث عن أيّ شاب شرير يرضي شهواته بأجر، وقيل إنه أصيب بمرض تناسلي يصيب الشيوخ، وزعم أصدقائي أنّ شذوذه الجنسي السلبي لم يظهر إلا عندما شتمه الرومي في ذلك اليوم.

مرة أخرى، عاد الرومي يحضّر علاجات للخمولين والكسالى. وقد شفي بعضهم من النوم لفترات طويلة، لكنهم ظلوا يعانون من الأرق، فكانوا يأتون لزيارة مولانا حتى يضع يده على رؤوسهم. وبعد أن يستردوا عافيتهم، كانوا يقولون عن الشخص الذي عالجهم بأنه هو من حوّل معاناتهم إلى بهجة، ونقلهم من المرض إلى الصحة، من الجهل إلى الفهم، وحوّلهم من عدو إلى أخ.

كان مولانا يكره التجار الذين اتبعوا بدعة انتشرت بعد أن أخذ خطر تهديد المغول يتعاظم، فوزّعوا ثرواتهم وراحوا يتطلّعون لأن يصبحوا صوفيين. كنت حاضراً عندما أخذ الرومي، ليهرب من سماع تضرعات هؤلاء التجار وتوسلاتهم، إبريقاً وذهب إلى المرحاض حيث بقي لفترة طويلة. وبما أنني لست راوي حكايات، فلن أقول إنه مكث هناك ثلاثة أيام بلياليها، بل غاب لفترة طويلة بعض الشيء.

انزعج التجار وسألوا صديقي سراج الططري (الذي أمضى ليلة

كاملة مع الرومي، وجعل شاربه مثل رباط حذاء من كثرة فتل شاربيه) ليتوسّط لهم معه. قبل أن يفتح سراج الذي اقترب من مولانا فمه ليخاطبه، قال الرومي الذي كان واقفاً بالقرب من المرحاض، شيئاً وطلب منه أن ينقله إلى التجار، «من أين أنا؟ ومن أين العالم؟ بالنسبة لأنفي، فإن رائحة الغائط أفضل من رائحة الأشياء التي تنبعث من هذا العالم وسكّان هذا العالم».

مرة أخرى أدهشنا الرومي بسلوكه الغريب. ولم نكف عن سؤاله لنعرف أسباب ذلك. فقد أحبّ مثلاً أكثر الأشخاص غموضاً، شخصاً معروفاً بوحشيته وارتكابه أعمالاً شنيعة. لكن الرومي أحبّه وأظهر له احتراماً كبيراً. ففي أحد الأيام، كان صديقي ذريانوس، المجرم السابق الذي أنقذه مولانا، منزعجاً كثيراً. وقد فاجأنا مولانا بتكريمه لهذا المجرم. بالطبع، لم يكن اليوناني الوحيد الذي تساءل عن موقف مولانا هذا الذي أوضح قائلاً إن أحد ضحايا هذا المجرم كان رجلاً تقياً كان يتوق لأن تتحرّر روحه وتغادر قفص جسمه. وبقتله يكون هذا المجرم قد حقق أمنية هذا العالم، أحد الذين اختارهم الله.

مرة أخرى، أخذنا إلى أكثر الأماكن إثارة للدهشة، وأشدّها تناقضاً. ففي أحد الأيام دخلنا أحد الخانات الذي تنزل فيه مومس جميلة، محاطة بعدد من الشابّات الجميلات مثلها. ما إن برز الرومي أمامها حتى ارتمت عند قدميه مبدية تواضعاً شديداً. ثمّ، بصوت عال، حتى يسمعه جميع الموجودين، قارن مولانا هذه المرأة برابعة العدوية، وقارن عاهراتها ببطلات أسطوريات، فانبرى رجل مرموق كان موجوداً هناك، وأنّبه على حديثه عن تلك الكائنات غير الطاهرة بهذه المجاملة. فأشار الرومي إلى المرأة الساجدة أمامه وأجاب،

«إنها، إنها تمشي تحت لون واحد. إنها تبدو كما هي بدون أي خدع. أما أنت، فإذا كنت تدّعي بأنك رجل حقيقي، فافعل كما تفعل هي. تخلى عن اللونين لكي يصبح خارجك مثل داخلك».

لم يُحر الرجل البارز جواباً. أما المومس، فقد رأيتها في اليوم التالي تنتظر - كانت تنتظر منذ الفجر - حتى يُفتح باب غرفة مولانا لتدخل امرأة مؤمنة تائبة فقد تخلت عن مهنتها في الليلة الماضية، وتركت بيتها نهباً للصوص، وحرّرت البنات اللاتي كن يعملن معها. وأصبحت الآن مريدة مخلصة من مريدي مولانا، وتشربت تعاليمه إلى حدّ أنها أثارت غيرة الأميرات اللاتي كنّ يدّعين أنهن أشد المريدات إخلاصاً لمولانا.

مرة أخرى ظهر أمام مريديه في دمشق وفي مكة المكرمة وفي أربعين مكاناً مختلفاً، مع أنه لم يبرح بيته في قونية، وعندما سأله الذين خيّل إليهم أنّهم رأوه، أجاب، «أنا مثل سمكة في المحيط، أرفع رأسي عندما أشاء».

ومرة أخرى، حسم مسائل شرعية لم يتمكن أي فقيه من حلّها. منها مثلاً أن صاحب بستان طلب من سارق كان قد تسلق إحدى أشجاره لقطف ثمارها بأن ينزل، لكن السارق رفض النزول من الشجرة، وأقسم قائلاً: «زوجتي طالق إن أنا نزلتُ عن هذه الشجرة».

مرت ثلاثة أيام - وثلاثة أيام وثلاث ليال آخر - ورفض السارق أن يحنث بيمينه. الجوع، والعطش، واهتمام الفضوليين، والحيوانات البريّة في الليل، لم تتمكن جميعاً من تغيير رأيه. وعندما استشير مولانا الذي كان يمتصّ نبات عنب الثعلب، قال: «دعوه ينتقل إلى شجرة أخرى عندها يستطيع أن ينزل، وإن لم تكن هناك

شجرة بجانب هذه الشجرة، فأنزلوه على صهوة حصان ثم إلى الأرض».

وهكذا كان، ووافق الرجل.

ومرة أخرى، مازح الرومي زوجته كيرا. إذ أرادت أن تعرف ما هي طبيعة أهل الجنة، فقال لها الرومي: «إنهم أغبياء. ولو لم يكونوا كذلك، لما قنعوا بالجنة وجداولها؟» ثم كتب قصيدة أعطتني إياها كيرا شخصياً:

لو تمكنت من قبض شعرك في جهنم،
لَخجلت من أهل الجنة.
ولو دعيتُ من دونك إلى مروج الجنة،
لأصبحتِ المروج في قلبي ضيقة.

ومرة أخرى، أخذ يعظ بأننا يجب أن نبحث عن العالم وعن الله في داخلنا. وسأله درويش يرجو أن يغادر هذا العالم إلى العالم القابع وراءه، إلى أين يجب أن يذهب حتى يلقى الله، فأجاب الرومي، «كيف تعرف أن الله غير موجود هنا؟»

كلّ ما في الكون ليس خارجك،
ابحث في داخلك عمّا تريد، لأن ذلك أنت.

ومرة أخرى، بدأ يحضر جلسات روحية، حيث كان كل شخص يعبّر عن أفكاره ونظرياته. وسأل أحد أتباعه المخلصين الذي تقرّب منه كثيراً - فمنذ أن غادر شمس لم يعد يرفض رؤية بعض المريدين - لماذا لم يعبّر هذا المريد عمّا يدور في رأسه في هذه الجلسة، فردّ

الصديق، «إن جميع الرجال العظماء حاضرون». فأكد له الرومي، «كان كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تفتح فمك. وسيكون المتكلم أنا».

وفي مناسبة أخرى، قال الرومي لصاحب له تردد في لقاء معين سليمان، المدير السابق لمدرسة القرآن، الذي أصبح بيدقاً في رقعة شطرنج العالم المغولي، لأن ذلك الصاحب كان يخشى أن يبدي جهله بالصوفية، إذا التقى به وجهاً لوجه، وهو ذلك الصاحب المتواضع والضعيف، وفتح فمه. فقال له إن الكلمات التي سينطقها ستكون كلماته هو، كلمات الرومي. وقيل لي إن اللقاء حدث في مدينة القيصرية وأن ذلك الصاحب، بعد أن شجعه مولانا، كشف عن الكثير من الحقائق المعرفية، وظل المسؤول الذي لا يرتدي إلا اللون البني الفاتح أو الأسود أو الأبيض، صامتاً، ورفع سبابته المبلّلة إلى أنفه. أظن أن وعد مولانا بالكشف عن بعض المعارف الخفية من خلال صاحبنا، أغرقته في لجة الشكوك والإحباط والمهانة الغامضة.

ومرة أخرى، تكلّم مع قطّته التي كانت قابعة على ساقيها الخلفيتين، فاستسلمت لمداعبته. وعندما تنهّد مولانا شوقاً، قلّدته القطّة بصوت حزين.

ومرة أخرى، عاد إلى مضغ الثوم النيّء في كلّ وجبة طعام. وبعد أن رقص وعرق كثيراً، أصيب بالبرد، فاستخدم الفصد وأخذ حمّاماً حاراً، وراح يردد أنّ البرد علاج للوهم.

ومرة أخرى، كان في الحمّام واستدعى الحلاق وطلب منه أن يشذب شاربيه ولحيته ويقصّرها كثيرا بقدر يكفي لأن يميّز المرء الفرق بين الرجل والمرأة. وقال من الجيد أن يرخي المرء لحية طويلة، لكن بينما يتعين علينا أن ننتظر حتى ينتهي الصوفي من العناية بلحيته

ويمشّطها مرات ومرات، يكون لدى الرجل الملهم وقتاً كافياً لبلوغ الله، سواء أكان له لحية أم لا.

ومرة أخرى، كرس اهتمامه لنا، نحن أتباعه ومريديه. وفي أحد الأيام، عندما كان جميع الأصحاب مجتمعين في البيت، قال لنا: «اعلموا أنه لا يوجد إلا شخص واحد في العالم، وأن هذا الشخص هو معكم، موجود من أجلكم، يعمل لصالحكم، ويشتهيكم».
وأضاف شعراً:

قبعت في سجن العالم بدافع الرحمة،
من أين أنا، والسجن من أين؟
الذي سرقته؟

ومرة أخرى، أكرم زوجته كيرا التي كان هجرها منذ أن غادر شمس وأصبح يمضي كل وقته في الصلاة والتنسك والصوم. كرّمها إلى حد أنها أصبحت تتهرب من شهية زوجها التي استيقظت ثانية، وبدأت تلجأ غالباً إلى الشرفة. وقد علمتُ من إحدى صديقاتها بأنها كانت، قبل الإعلان عن عودة شمس، خلال فترة الشك والغموض الطويلة، كانت تشتكي باستمرار من إهمال الرومي لها وانعدام الرغبة التي كانت تثيرها فيه. وعندما طرأ التغيير على مولانا، راحت تتحدث عنه كما لو كان أسداً سكران غاضباً ضاجعها في ليلة واحدة سبعين مرة.

كان رواة الحكايات سيقولون لمدة ثلاثة أيام بلياليها، لكنّها قالت: «في ليلة واحدة! من يصدق ذلك؟»

ومرة أخرى، بدأ يبدي اهتماماً بإدارة المدرسة والبيت، فأخذ يتفحص الغرف، ولاسيما غرفة شمس ليتيقن من وجود كل ما يلزم،

وتغيير ما يجب تغييره. وخلال إحدى جولاته تلك، قال للنجار الذي كان يصلح باب غرفة شمس فدقّ فيه مسماراً: «إن بيتنا هو مسكن للأولياء، وهذه هي غرفة شمس. إن المسمار الذي غرزته في هذا الباب، يثقب قلبي». وبناء على نصيحة مولانا، انسحب النجار الذي لم يرغب في تدنيس هذا المكان المقدّس.

سيعود شمس.

في ذات يوم في شهر محرم سنة ٦٤٥ هجرية (أيار ١٢٤٧)، بعد خمسة عشر شهراً من طيران الطير، وبعد شهر من انطلاق سلطان ولد ليبحث عنه، تلقينا رسالة من الابن البار يخبرنا فيها بوصول قافلته، وأن شمس هو ضيف الشرف فيها.

«اجتزت الصحارى بلا خوف. لم تكن الجبال تعدو كونها تلالاً من القشّ. وكانت الشجيرات على طول الطريق مثل الحرير، وكانت الحرارة والبرد مثل السكّر والبلح. وفي دمشق، التقيت بالملك شمس في أحد الخانات، يلعب الطاولة مع شابّ من بلاد الفرنجة. وقفتُ خارج الباب ورحت أراقب من بعيد لغز الله هذا وهو جالس بين الرجال، يؤجل اللقاء الذي طالمنا حلمنا به. كان الملك شمس يفوز باستمرار ويطلب نقوداً من شريكه الشاب الذي كان يدفع لكنه يبدو أنه كان يزداد انزعاجاً. وعندما رمى النرد للمرة الأخيرة وخسر، نهض وصفع منافسيه وصفع شمسنا. تمنيت أنا ورفاقي العشرون أن ندخل الحجرة على الفور ونضرب هذا الغريب الفظ الذي تجاسر ورفع يده على شمس. أوقفنا صوت مليكنا ومنع الأشخاص الذين أحاطوا بذلك اللاعب الذين همّوا لضربه، وقال لهم: «إن هذا الطفل قطب، لكنّه لا يفهم نفسه جيداً. ابتعدوا عنه». فتركوا شمساً والشابّ أمام طاولة اللعب المقلوبة: بدأ الغريب بجمع حجارة اللعب بينما

انحنى شمس ينتعل حذاءه. دخلت يتبعني رفاقي العشرون. انحنينا معاً أمام شمس. فأصيب جميع الحاضرين، لاسيما الشاب الغريب، بالذهول عندما شاهدوا تعابير الاحترام لدرويش عجوز نحيل، يعتمر عمامة، ويضع عباءة من القماش الرخيص، لا ينحو إلى التكلم كثيراً، وعندما يتكلم كان يقول كلاماً مضطرباً.

«اقترب مني شمس، وقبّلني وضمني إليه بحرارة، وسألني عن أخبار أبي. نقلت له تحيات وتوسلات مولانا، ثمّ أخذت حذاءه، بالنيابة عن الرومي، ودلقت فيه كيساً مليئاً بالذهب، وأضفت أن المريدين جميعاً يستسمحونه ويبدون أسفهم على ما بدر منهم في الماضي. ووعدوا بأن يتخلوا عن الحسد ويعتنقوا الصداقة. نظر شمس إلى حذائه الممتلئ بالدراهم، وقال لي: لماذا يريد والدك أن يجذبني بالذهب؟ إن رغبته وحدها تكفيني». ووافق على المجيء معنا. مذهولاً، كشف الشاب الإفرنجي عن رأسه، وألقى بنقوده، وتوسل إلى شمس بأن يقبله تابعاً له، فردّ شمس قائلاً: «عد إلى بلدك وأكرم أصدقاءك بزيارتك، وكن قطباً لهم، ولا تنسنا في دعائك».

سجد الشاب الغريب ذو العينين الزرقاوين والشعر الأشقر ولبث واقفاً في مكانه حتى غادرنا المكان. وعندما غادرنا الخان، قدمتُ حصاني لشمس، وتواضعاً، قرّرت أن أعود مشياً على القدمين، ومشيت بجانب ركابه. عبرنا شوارع المدينة المعبّدة، ومررنا بالسوق الكبير حيث توقفنا قليلاً لشراء الحرير لزوجاتنا. وفي السوق كان يمكنك أن تسمع جميع الألسنة. فقد سمعت الأرمنية والعربية والفارسية والتركية واليونانية والهندية، وكانت هناك كذلك عدة لغات غير معروفة، منها لغة الآيبيريين ولغة الإفرنج بالإضافة إلى لغة السكسونيين. وفي طريقنا نحو باب دمشق، رأيت جدراناً مكسوة

برخام من مختلف الألوان، وبساتين مزروعة بأشجار الفستق، فيها أعداد كبيرة من النوافير والبحرات. وعبرنا صحارى وأنهاراً ووديانا طوال شهر كامل. كنا نعرف أن قافلتنا تحمل، بالإضافة إلى شتى أنواع البضائع، لغز الله من بين الرجال. سنلتقي غداً في قونية».

بعد وصولهم، ألححت على صديقي سلطان ولد أن يحدثني عن لقائه بشمس. دوّنت كلّ شيء يتعلّق بالرومي، بل إنني أردت أن أكون شاهداً على تلك الأحداث الفريدة. لكن سلطان ولد تعمد أن يراوغني. وفي رأيه فإن الرسالة التي أرسلها تحتوي على كلّ شيء أراد أن يقوله. ولم يقل شيئاً آخر. عندما ألححت عليه السؤال، استسلم وقال: «اسمع، لقد وجدت صعوبة كبيرة في إقناعه بالعودة إلى قونية. وكان ملء حذائه بالذهب خطأً كبيراً، لأنك لا يمكنك أن تتخيّل كم أثار ذلك غضبه. ماذا يمكنني أن أحدثك عنه سوى أنه قال لي إنه أحبّ بلاد الشام التي كان يقيم فيها؟ ولاسيما مدينة حلب التي يفضّلها على جميع المدن، حتى على قونية. وقال إنه أحبّ بيوتها وشوارعها وترعاتها وأسوارها وبساتينها».

وجدت صعوبة في تخيّل شمس التبريزي يقدّر جمال معمار إحدى المدن. لكني أثق ثقة عمياء بسلطان ولد الذي لم ينطق لسانه قط بكذبة واحدة. هكذا إذاً، شمس غير المتوقّع، المتقلّب، المزاجي، يستطيع أن يرى الجمال في بناء. ونقل لي سلطان ولد الكلمات التي قالها شمس أثناء عودتهم من حلب: «إن الرومي هو الوحيد الذي يمكنه أن يجعلني أترك هذه المدينة، ولو قالوا لي إن والدك قد نهض من القبر، وجاء إلى تلّ باشر حتى يراك، وسيموت مرة أخرى، تعال لرؤيته، لقلت: قل له مت، ماذا أفعل لك؟ ولما أتيت من حلب، لكني جئت إلى هنا». وأضاف، «إن الجنة هنا».

ومع ذلك ترك شمس الجنة وعاد للقاء الرومي.

«سنلتقي غداً في قونية». هذه الكلمات التي كانت تبدو بسيطة، والمكتوبة في أسفل رسالة سلطان ولد، أقامت البيت ولم تقعده. فعلى الفور، انطلق الجنائني ليتفحص كلّ زهرة في كلّ شجيرة ورد، وكلّ شجرة، وعدّل ارتفاع انطلاق الماء من النافورة حتى تخلو من أي عيب. وبدأ الطاهي يضع الثوم المهروس في قطع الثلج لكي تجمع بين مذاق شيئين مختلفين كان الرومي يستطيبه. وغادرت النساء حجراتهن وذهبن إلى الحمّام العامّ، واغتسلن وصففن شعرهن كأنهن امرأة واحدة، كتلك المرأة التي تخص شمس. ودوزن العازفون آلاتهم لساعات طويلة. وامتزجت أصوات الطبلة والناي والعود مع أصوات المنشدين، وهم يدرّبون أصواتهم. وركض المريدون إلى السوق لارتداء حلل قشيبة، كما لو كانت السنة الجديدة، وهرع البعض لتفتيش الحجرات لإزالة أيّ شيء قد يزعج شمس.

حاولت أنا وذريانوس إرضاء الجميع. الحمير لنقل النساء، والثلج للطاهي، والدعائم غير المرئية لإسناد سوق الزهور، والأجراس، ومجموعة من القصائد، منها قصيدة للعطّار عن مغن نسي على حين غرة كل ذخيرته الفنية، وطريقة معينة لربط عمامة لرفيق لنا كان يبذل كل ما بوسعه لكي يبدو في أبهى صورة له، كوة لمشعلي الفوانيس، وأشياء أخرى عديدة أيضاً.

أما بالنسبة لمولانا، فقد اختلى مع صلاح، صائغ الذهب، لساعات طويلة. وعلى الرغم من كلّ تلك الأعمال، ظللت أراقب حجرتهما. وكنت أسأل نفسي على الدوام ماذا يمكن أن يقوله أحدهما للآخر مع اقتراب المعبود الفار. وعلمت لاحقاً من الرومي نفسه أنّهما كانا يعدّان خلوة للرومي ولشمس في بيت صلاح. لكن

التوبة الظاهرية التي أبداها الشكّاكون، أعداء شمس السابقين، لم تحرر مولانا من الشك بأن تنشأ تهديدات أخرى في المستقبل. فقد كان مولانا يأمل، بالذهاب إلى بيت صائغ الذهب مع صديقه العزيز، الابتعاد عن عيونهم الفضولية، ولاسيما عيني ابنه علاء.

في ذلك اليوم الذي حفل بالأمل والفوضى، لم أر ابنَ مولانا الأصغر. هل كان في البيت أم أنه قرر أيضاً أن يبتعد ويستعد لمواجهة العودة التي لا تطاق؟ لم أعرف قط. لا بدّ أنه اعتزل الآخرين لأن أنصاره السابقين، وهم مجموعة من الرجال المحبطين، تظاهروا، حالياً على الأقل، بأنهم أصبحوا من أشد المتحمسين، وانغمسوا في البهجة الجماعية.

في ذلك المساء، كنت منهكاً قبل أن أغادر المدرسة، ألقيت نظرة أخيرة باتجاه باب حجرة مولانا الذي كان منفرجاً قليلاً، فرأيت هيئته الضعيفة وذراعيه ورأسه مرفوعة نحو السماء في وضع يشي بالشكر والامتنان.

في اليوم التالي وصلنا جميعاً قبل الموعد المحدد. وقُدّم طعام الفطور في وقت مبكر، وسُقيت الحديقة عند الفجر، وأُقيمت صلاة الصبح في ساعة غير معتادة، وصاحت الديكة قبل الأوان. حتى الشمس بدا أنها أشرقت قبل موعدها. من الجنائني حتى نجم النهار، تمنّينا جميعاً أن يعجّل شوقنا وصول شمس التبريزي.

عند الظهر تقريباً، تناهى إلينا خبر وصول قافلته. أخذ العازفون آلاتهم وعزفوا أحد الألحان التي يحبها شمس. وردد المنشدون قصائد لسنائي والعطّار وقصائد كتبها الرومي مؤخراً لهذه المناسبة. اصطففنا بالقرب من باب المدرسة لنرحب، واحداً واحداً، بالرجل الذي عكّر غيابه مزاج سيدنا، مولانا.

وصلت القافلة.

رأى شمس الرومي، ترجّل عن حصانه وقال له: «رأيتك، وحدك. أنت. كان الآخرون منهمكين بشيء ما، وهم راضون بأحوالهم. كان الرجال العبّاد منهمكين بأرواحهم، وآخرون بعقولهم، وآخرون بأرواحهم. رأيتك، أنت، ولا أحد غيرك. كلّ الرفاق تبعوا رغاباتهم وتركوك، وحدك».

وقد سمعت سيدي يجيب عليه على النحو التالي:

وصل شمسي وقمري،
وصلت عيناي وسمعي،
وصل وجهي الفضّي،
وصل منجم ذهبي.

وصل ثمالة رأسي،
وصل جلاء عقلي،
وإن كنت ترغب في شيء آخر،
فقد وصل هذا الشيء الآخر.

وصل، لصّي،
ومدمّر ندمي،
يوسف ذو الوجه الفضّي،
صار فجأة بجانبي.

اليوم أفضل من البارحة،
أيها الصديق الأبدي،

وقد سكرت البارحة
عندما سمعت منه.

ما بحثت عنه البارحة،
على ضوء المصباح،
اليوم، باقة من الزهور،
برزت في دربي.

لماذا تخشى الموت؟
الماء الخالد هنا،
لماذا الخشية من اللوم؟
لقد جاء الدرع.

تعانق الرجلان وسجدا حمداً لله. كانت ركبتاهما وجبهتاهما مضغوطة على الأرض. وصل العديد من الرفاق في تلك اللحظة، عندما أصبح الرجلان رجلاً واحداً. لقد رأيت، أنا حسام، ظلّ مولانا وشمس يمتزجان، يصبحان واحداً. إني أؤكد ذلك. أشهد بذلك.

شيخي ومريدي

في تلك الفترة أقيمت احتفالات وجلسات سماع ورقص، ورواية حكايات، ولقاءات عاطفية كثيرة.

لقد بدا أن السلام قد عشّش في أغصان أشجار البندق التي تملأ المدرسة. وبالرغم من هذا الصفاء، قرّر مولانا، كما كان قد قرر سابقاً، الانتقال مع شمس للإقامة في بيت صلاح، صائغ الذهب. وطلب مني أن أعدّ لهم أغراضهم: بعض الثياب وعمائم إضافية وكتابين أو ثلاثة كتب من كتب العطّار ونايا.

بدأتُ أحسد صلاح الذي استضافهم في بيته - شعور لم يعترني من قبل - أخفيت مشاعر الاستياء لديّ بقدر المستطاع، لكني لم أفهم السبب الذي جعل مولانا يقرر الانتقال إلى ذلك الكوخ الحقير الذي كان كلّ ما فيه يعكس حرفته كصائغ ذهب، ولم ينتقل إلى بيتي الذي يوفر راحة حقيقية، المليء بالكتب وبالمعدات الرياضية، كتلك الأقواس المجهّزة بسلاسل وحوامل صغيرة تعرف باسم «كباده» و«تخته شينا». بالطبع، كان صلاح يظهر نفسه دوماً بأنه أكثر المريدين إخلاصاً، وهو واحد من القلائل الذين تمكّنوا من التخفيف من حزن مولانا خلال فترة غياب شمس. لكن بغطرسة وزهو شبابي، تساءلت عن السبب الذي جعل مولانا يبدي كل هذه المودّة لهذا

الصائغ الجاهل. ففي الواقع، لم يكن في مقدور صلاح أن يعرب عن أفكاره، وخلال المناقشات، لم يكن يستطيع أن يعبّر عن أدنى فكرة عرفانية مهما كانت بسيطة، وكان يمضي أيامه في محله في صياغة الذهب. كان ذلك كلّ ما يمكنه أن يفعله، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان الشخص الأثير لدى الرومي.

أثار انتقال الحبيبين اللذين التقيا ثانية - كان الرومي وشمس هما اللذان يشيران إلى أنفسهما بالحبيبين - موجة جديدة من مشاعر الاستياء لدى الحاسدين. وعلى الرغم من غيرتي من صلاح، وانزعاجي من اختيار مولانا، فلم أستطع أن ألومهما تماماً. لقد كانت أهدافنا مختلفة. ففي حين كان الآخرون يغارون من شمس الذي كنت أحبّه كثيراً، كنت أشعر أنا - ما أشدّ تهور الشباب! - بالحنق على صائغ الذهب. وبعد عدة سنوات، بعد وفاة الرومي، كشف لي سلطان ولد، ابنه البار، عن شيء كان والده قد قاله عن شمس وعن صلاح وعني. ففي إحدى الجلسات التي لم أكن حاضراً فيها، قال لأتباعه، «لا تتكلّموا عن شمس أمام صلاح، ولا تتكلّموا عن صلاح أمام حسام. فعلى الرغم من أن الاتحاد في قلب نورهم كليّ وتام، فإن الغيرة هي من الله ويجب ألاّ نثيرها».

كان بيت صلاح أصغر من بيت مولانا بكثير، لكن لم يكن يبدو أن شيئاً يعكّر صفو الحبيبين المتحدين. لم تكن تلك خلوة حقيقية، لأنهما كانا يعودان إلى المدرسة، حيث كنا نحن الذين كنا في الدائرة الأولى، الشهود على حياتهما معاً، فنتلقى أندر أنواع التعلّم. لكن عندما أقاما في بيت صائغ الذهب، لم يُسمح لأحد، إلا لصلاح - مرة أخرى - وسلطان ولد، بزيارتهما. وكان لدى سلطان ولد أسباب وجيهة أخرى للذهاب إلى بيت صلاح، وكان يفعل ذلك باستمرار

وإصرار كبيرين، لأنه كان يتطلّع إلى قضاء بعض الوقت مع ابنة صلاح، وكان يبتهج كثيراً في وجودها. ولم ير الأبوان أي خطأ في ذلك، بل على العكس تماماً، كانا يتطلّعان إلى هذا الاتحاد.

لم تكن حياة شمس والرومي كما كانت عندما التقيا أول مرة، عندما اختليا في الحجرة لمدة أربعين يوماً وليلة. أما الآن، فقد أصبحا يخرجان في بعض الأحيان، كل على خدة. وعندما أبدى شمس رغبة في الخروج وحده، طلب مني مولانا مرافقته لأنه كان يخشى أن يهاجم أحدهم شمسه، وكان يخشى أيضاً أن يقرّر طيره فجأة أن يطير ثانية.

لم يكن يبدو أن وجودي إلى جانب شمس يضايقه، بل لقد خيّل إليّ أنه أحبّني كثيراً. كنت أسلّيه، وكان يجد متعة في تذكيري واستفزازي لترددي وشعوري بالحرج عندما كان يأمرني بأن أطلب مبالغ من الزوّار الذين يأتون لزيارة مولانا. لقد وضعته في مقام مولانا: المقام القدسي. هل يمكنني أن أحسد الله لأنني مع ذاته، لتفضيل صحبته على صحبة البشر؟ كانت غيرتي تتجه إلى موضع آخر: إلى اختيارهما الإقامة في بيت صلاح، صائغ الذهب، وليس في بيتي.

في أحد الأيام، بينما كنّا نسير في أزقة قونية نشق طريقنا في وسط حشود الناس، ونتجول وسط ضوضاء المدينة وصخبها، نتفادى الحمير المتجهة إلى السوق والتي كانت تنوء بالبضائع، ونرتطم بنساء محجّبات مسرعات، ونتحاشى الكلاب الضالة التي تفتّش عن نفايات اللحم، وكانت تتناهى إلينا أصوات الأطفال الذين يرتلون آيات من القرآن، ونجتاز دراويش يسيرون الهوينى غير مستعجلين للوصول إلى أي مكان، ومن حين لآخر، كنا نلقي قطعة نقود في طاسة متسول

ممدودة، ونتسلّى برؤية تعابير الرضا على وجه مسافر بعد أن يكون قد تناول وجبة طعام دسمة في الخان، أو آخر نظرة يلقيها رجل وسيم على مرآة معلقة في باب دكان حلاق أنهى للتو حلاقة شعره وتشذيب لحيته.

وعلى حين غرة، برز أمامنا فارس مغولي يعدو بحصانه بسرعة، فابتعد الناس وأخلوا له الطريق ووقفوا ملصقين ظهورهم إلى الجدران. وعلت وراء حصانه سحابة كثيفة من الغبار تعمي الأبصار. وعندما اختفى هذا الغازي عند نهاية الشارع، رحت أشتكي وأنا أفرك عيني اللتين هيجهما الغبار، من البرابرة الذين يعاملوننا كما لو لم يكن لنا وجود. عندها حكى لي شمس القصّة التالية:

«منذ عهد ليس ببعيد في مدينة حلب، شاهدت بالقرب من باب دكان صغير عدداً من الأشخاص يرتعدون خوفاً ويحاولون الهرب. عندما تقدّمت منهم، صاحوا فيّ وقالوا: «لا تدخل إلى هناك! ففي الداخل تنين يستطيع ابتلاع الكون بلقمة واحدة". لم يخفني كلامهم، فسرت نحو باب حديدي أعرض وأطول من أيّ باب رأيته في حياتي. كان مقفلاً. كان القفل يزن أكثر من ثلاثة آلاف رطل. حاول أحد المحتشدين تحذيري، وقال: إنه هناك، تنين بسبعة رؤوس! لا تقترب من هذا الباب. استعدت رباطة جأشي فكسرت القفل ودخلت، وكان كلّ ما رأيته مجرد دودة أرضية».

كانت الحكاية التي حكاها لي شمس شفّافة وواضحة للغاية. ففي ذلك الزمن، كما هو حالنا اليوم، كنا نعيش تحت تهديد المغول باستمرار، وانتهى الأمر بأن أصبح سلاطيننا تابعين لخان الصين العظيم. كانوا خائفين، خانعين، وقد حاولوا، بالرغم من كلّ شيء، المحافظة على بعض مدنهم، مثل قونية، من شهية المغول الجامحة

في الدمار. لكنّ الوضع كان لا يزال محفوفاً بالمخاطر. وفي عام ١٢٤٣، قبل سنة واحدة من ظهور شمس، هزم المغول السلطان كاي خسرو. ودُمِّرت توكات وقيسارية ومدن أخرى عديدة. لقد خيّمت مرارة هؤلاء المنكودين فوق رؤوسنا جميعاً. فقد كنتَ ترى في كلّ مغولي مغتصباً، خانقاً، قاطع حناجر، مدمراً. كان من المستحيل أن أتخيّل أن تتزوج نساؤنا من أمثال هؤلاء الرجال. لكن بالرغم من ذلك، فعلن ذلك. عندما انتهى من حكاية قصّة التنين، سألت شمس، عارفاً أنه هو نفسه قد عانى في العديد من سفراته من شراسة المغول، وكذلك السحر المرعب للفأر أمام الثعبان، الخوف السحري الذي ينتاب العالم كله عندما يظهرون وهو ما يشعر به كلّ مخلوق في داخله. لماذا تصرّفنا هكذا؟ لماذا يا شمس التبريزي، لماذا؟ فأجاب ونحن نواصل سيرنا:

«إن الكون كله يقبع في داخل المرء. وعندما يشعر هذا المرء «بذاته»، فإنه يشعر بكلّ شيء. إن المغول في داخلك. المغول هم غضبك». ثم أخبرني، بهمته المعهودة، بضعة تفاصيل مضحكة عن تجربته مع الغزاة القادمين من السهوب، فقال: «كنّا سبعمائة رجل. هاجمنا سبعة مغول فقط. أخذوا ملابسنا، ولقاء ذلك ضربونا ضرباً مبرحاً».

ثمّ، من دون تمهيد، تحوّل من السخرية إلى الغضب، فأخذ يصرخ بصوت عال إلى حد أنني رأيت أوداجه تنتفخ ورسمت على جبهته شكل رقم ثمانية. لم يعد يكلّمني، بل راح يكلّم شخصاً بكى ذات مرة على أخ قتله الغزاة، ولام شمس النادب الغائب.

«لماذا تبكي؟ فالمغول منحوا شقيقك الحياة الأبديّة بسيفهم. هل ستبكي فوقه وتسأله 'لماذا هذا الهروب؟' لقد حطم المغول السجن

وأنت تبكي، وتسأل نفسك لماذا فتحوا كوة في الحائط. إنك تلطم وجهك وتنشج وتسأل نفسك، لماذا كسروا القفص وحرّروا الطير المحبوس. لماذا فتحوا جرحاً وأزالوا القذارة، النجاسة. إنك تندب وتسأل نفسك لماذا أُزيلت تلك القذارة».

كانت نوبات غضب شمس الشديدة المفاجئة موجّهة إلى مولانا، كما لو أنها كانت لتستفزه، لتتحداه.

في أحد الأيام، رافقتهما مع عدد من الأصحاب الآخرين إلى بيت عازف ناي مشهور للاستماع إلى صوت ناي معيّن مصنوع من نوع خاصّ من خشب الورد. كان الطقس جميلاً، وشعرت أن شمس الذي يشعر بالبرد دائماً، مرتاح للطافة الطقس، فخفّت انحناءة ظهره وبدا أطول قامة. وعرّض الرومي الذي لا يكفّ عن الاعتراض على شحوبه، وجهه لأشعة الشمس الدافئة، راجياً، عبثاً، أن يطرأ تغيير على لون وجهه. ففي الشتاء والصيف، في الليل والنهار، يستطيع المرء أن يقول إن الرومي يغطي وجهه بحرير أصفر.

بعد أن استقبلنا عازف الناي عند مدخل بيته المكسو، مثل جميع البيوت الأخرى، بسقف من الآجر الأحمر وقد رصفت واجهته بأحجار ناتئة، دخلنا الفناء المستطيل حيث تنتصب أشجار السرو. فجأة، توقّف شمس، ومن دون أن ينبس بكلمة فعل الرومي الشيء نفسه، وتوقّف عازف الناي المسكين في مكانه أيضاً. لماذا توقّفا؟ لا أعرف.

مرت لحظات بدت زمناً طويلاً. ثمّ خطا شمس بضع خطوات إلى الأمام مرة أخرى. ارتقى الدرج الخارجي إلى الطابق الأول حيث اصطفت غرف عديدة وقاعة موسيقى. تبعه مولانا مع المريدين الآخرين. كان في القاعة عازفون آخرون في انتظارنا. عندما دخلنا

وقفوا وانحنوا أمامنا. لم يردّ شمس الذي كان أول من دخل القاعة على تحيتهم، وكذا فعل الرومي. وبينما كان يهمّ بالتقدم نحو مضيفيه، تسمّر في مكانه فجأة. كان على وشك أن يفتح فمه ليتكلم، إلا أن شفتيه أغلقتا. مرتبكاً من هذا السلوك، عاد المضيف وضيوفه إلى أماكنهم على طول المقاعد الواطئة الممتدة على طول الجدران ذات النوافذ، وبدأ يعزف مقطوعة تشي بالفراق. ضوء خافت تسرب من فتحات الخشب المخرّم في الجزء المنخفض من النوافذ والزجاج الأخضر فوقه، وأبرز زخرفة السقف التي لفتت انتباهي.

أثناء العزف أطلق شمس ضحكة عالية، وهكذا فعل الرومي الجالس إلى جانبه. ثم توقّف شمس فجأة، وتجهّم وجهه. فتجهّم وجه الرومي أيضاً. يجب أن أعترف بأنني انزعجت كثيراً، وفكّرت بالحرج الذي سيعتري العازفين من ذلك. لكن العزف لم يتوقف. عندما انتهى الحفل، شكر مولانا جميع العازفين كأنّ شيئا لم يكن، وراح يتلو أشعاراً تتحدث أيضاً عن الفراق. ونسي العازفون الاضطراب الذي حدث بعد الاهتمام الشديد الذي أبداه لهم مولانا، وقالوا لنا إنه لم يسبق لهم أن عزفوا بهذه الروعة. وقُدِّم طبق من الخسّ مُطيَّب بالخلّ والنعناع. بعد أن أكلنا هبطنا الدرج واجتزنا الفناء رأيت غرفاً في الطابق الأرضي خُزِّنت فيها قصبات ضخمة بانتظار أن تصبح نايات. وكبادرة شكر، نفخ الرومي في ناي مضيفنا لمباركته.

عندما عدنا إلى المدرسة، أفرغ شمس كلّ ما يعتمل في صدره من غضب. فقد أربد وجهه في الرجل الذي يدّعى أنه حبيبه. لم يخطر لي قط أنه يمكن لأحد أن يوجّه مثل هذه الكلمات إلى الرومي.

«يجب أن أوضح وضعنا. على أي شيء تقوم حياتنا معاً؟ على الأخوّة والدعم؟ على العلاقة بين السيد والمريد؟ بين المعلّم والتلميذ؟ والآن تضع معرفتي فوق معرفتك. وإذا كان هناك سبب واحد يدعو إلى افتراقنا، فهو هذا. إنك لا تعلّمني شيئاً. لو لم أكن أريد أن أتعلّم هنا، في قونية، لما غادرت دمشق»، ثمّ، أضاف، كما لو كان يخاطب شخصاً غير مرئي، «وحيداً، حراً، جبتُ جميع الأماكن، أتوقّف أمام أي دكان أصادفه. لا أستطيع أن أجرّه معي، العارف، إلى أي مكان. لأنني لا أستطيع أن آخذه إلى أي مكان أذهب إليه».

على الرغم من هذا الانفجار، لبث مولانا صامتاً، بل أخذ ينصت إليه باستسلام. ابتعدت عنهما لأوفّر على أذني سماع تلك الكلمات المؤذية. و مع ذلك سمعت شمس يواصل هجاءه.

«فإذا، فإذا غضبتُ، تغضب. وإذا ضحكتُ، تضحكْ. إذا لم أسلّم على أحد، فإنك لا تسلّم عليه أنتَ أيضاً. إني أعرف أنك تمتلك كوناً خاصاً بك، منفصلاً عن كوني، حرّاً من عالمي. إنك تقارن كتاباتي بكتابات الآخرين. أما أنا، فإني لا أقارن كتاباتك حتى بالقرآن. وهناك شيء آخر. عندما تقول اكتب، فماذا تعرف أنت عن الكتابة؟»

ردّاً على هذه الاتهامات التي بدا لي أن بعضها غير مترابط، تلا مولانا لشمس بعض القصائد التي اعتبرتها أنا أكثر القصائد الملهمة من بين جميع الأشعار التي قيلت في العالم.

إنك ذلك النور الذي قال لموسى:

أنا الله! أنا الله! أنا الله!

شيخي ومريدي! مرضي ودوائي!
أعلنت هذه الكلمات: «شمسي وربّي!»

بعد فترة، بعد فترة طويلة من اختفاء شمس، عندما أصبح الرومي الشاعر العظيم الذي أصبحنا نعرفه، سمعته يقول هذه الغزلية:

أنت نوح، أنت الروح.
أنت المنتصر والمهزوم.
أنت القلب الذي فتح
على باب الأسرار لي.

أنت النور والبهجة،
أنت السعادة المنتصرة،
أنت الطير على جبل الطور،
لقد جرحني منقارك.

أنت القطرة والمحيط،
أنت الرقة والغضب،
أنت سكّر وسمّ،
لا تعذّبني أكثر من ذلك.

أنت حجرة الشمس،
أنت بيت فينوس،
أنت حديقة الأمل،
يا صديقي، دعني أدخل.

أنت اليوم والصوم،
أنت ثمرة الفقر،
أنت الماء والإبريق،
أعطني ماء هذه المرة.

أنت البذرة والمصيدة،
أنت الخمرة والكأس،
أنت نيء وأنت مطهو،
لا تتركني نيئاً هكذا.

بالنسبة للرومي، كان شمس كلّ ذلك في آن معاً. فقد كان كلّ شيء، ونقيضه. أستاذ أحياناً، وتلميذ أحياناً، يوماً سمّ، وفي اليوم التالي ترياق. لكن، الأهمّ من كل ذلك، كان إلهه.

«شمسي وربّي»... كلما سمعته يردد هذا العبارة الكفرية، كنت أهرع وأغلق أبواب المدرسة لكي لا ينقل المبتدئون كلامه إلى رجال الدين. فحسب تفسيرهم، فقد يقود هذا البيت بالرومي إلى المشنقة مباشرة، وإني أتذكّر الحلاج الذي قتل قبل أكثر من قرنين بعد أن تجاسر، وقال: «*أنا الحقّ*». أولم يُقتل ذلك العارف الآخر، السهروردي، شيخ الإشراق، شيخ الحكمة الشرقية، في ٥ رجب سنة ٥٨٧ (٢٩ تموز ١١٩١)، على يد فقهاء اعتبروا أن أعماله مناقضة لجوهر الدين؟

فقد كان الرومي نفسه قال: «شمسي وربّي». تفحّصت بدقّة وجوه المريدين جميعاً. من منهم المريد الخائن الذي قد يدين مولانا على كلماته الآثمة تلك؟ كان هناك أصحابنا، لكنني رأيت أيضاً علاء، الابن العاق، جالساً في زاوية الحجرة. منذ تلك اللحظة،

انتابني شعور بأن التهديد لحياة شمس بات حقيقياً. شمس الذي غيّر، منذ أن ظهر لأول مرة، الرومي، من أستاذ عالم، إلى راقص متحمس. شمس الذي أصبح الآن ربّاً.

عندما واصل الرومي قراءة القصيدة التي تكررت فيها كلمات الكفر «شمسي وربّي» مثل لازمة، نهض علاء، الابن العاق، فجأة واتجّه نحو باب المدرسة. لقد فتحت له الباب بنفسي ليخرج وكنت واثقاً من أنه سيتوجّه مباشرة إلى رجال الدين المتشددين لكي يؤجج فيهم مشاعر الكراهية التي يكنّونها لشمس، وأن يردد على أسماعهم، حرفياً، الكلمات التي تدين مولانا: «شمسي وربّي».

عندما خرج علاء، اقتربت من حجرة الحبيبين. كان صوت مولانا منخفضاً لا يكاد يسمع. نظرت إلى داخل الحجرة. كان شمس قد خلع عمامته وترك شعره الأشعث الرمادي ينسدل على كتفيه. كان يتهيأ لخلع معطفه عندما سمعته يقول للرومي: «أريد أن أصف لك الأشياء كلها. لكني راضٍ بأن أقولها لك سراً. فالوصف لا يليق بك. إني أبحث عن شخص من معدني حتى أجعله قبلتي. لكي أوتي وجهي شطره، لأني بدأت أضجر من نفسي».

بيد لطيفة، لامس جبهة الرومي وتابع قائلاً: «منذ أن التقيتك، لم تعد الكتب تجذبني. فليس هناك كتاب يفيدني كما جبهتك». ونظر إلى الرومي طويلاً، طويلاً جداً، ثمّ قال له أخيراً: «غادر معي. أنت أيضاً، انظر».

بتلك الكلمات نفسها طلب شمس من الرومي أن يصحو من السكر، «ذلك السكر غير المضمون»، كما كان يقول حيثما ذهب، وبتلك الكلمات طلب منه أن يوقظ المخلوقات، ويقودها نحو الحقيقة.

نعم، سمعت شمس يقول للرومي: «يا أخي لا تنهرا غادر معي! أنت أيضا، انظر».

عندما نقلت هذا الحديث إلى صديقي ذريانوس اليوناني وإلى أحد المريدين الهنود الذي قال لي إن أحد الأديان في بلده يعلّم المرء أيضاً كيف ينبذ سعادته، الجنة التي يبلغها أخيراً - التي أطلق عليها اسم «نيرفانا» - وينبذ سكره، ليبقى مع الرجال ويقودهم إلى السعادة الصعبة، إلى «الشاطئ الآخر»، وأضاف الهندي بأن الذين - وهم قلة قليلة - قبلوا التضحية، الذين تخلّوا عن الخلود حتى يبقوا جزءاً من حركة العالم العنيفة، يطلق عليهم اسم *بوذايستافا*.

بالنسبة لذلك الهندي، كان الرومي هو بوذايساتفا.

عندما حلّ فصل الصيف، كان تبجيلي واحترامي لشمس قد ازداد على الرغم من الالتباس في كلماته، ومن سوقيّته، وتصرفاته غير اللائقة، وجنونه، ونفاد صبره، وغرابة أفعاله. على الرغم منها، بل بسببها.

وعلى الرغم من نزواته أيضاً. فلم يكن شمس يحبّ تناول الفاكهة إذا كانت باردة جداً، حتى لو كانت خارجة للتو من حجرة المؤن، وكان يطلب منا أن نتركها في الخارج لفترة لكي يتمكن من تناولها، وحتى لو تم ذلك، كان يجد فيها عيباً في أحيان كثيرة: لم تنضج كفاية أو أنها ليست ريانة أو أنها كريهة أو لا رائحة لها. ومهما فعلنا لنعدّ له وجبات حسب طلباته الكثيرة، لم يكن أي شيء يرضيه. فقد كان يجد اللحم المشوي مفرطاً في الشي، أو أنه لم يطه بما يكفي، والرزّ أيضاً طرياً كالعجينة، أو جافاً. وشاهدته مرة وهو يقول للطاهي إنه يجبُ ألا يرفع عينيه عن الموقد، «ولا حتى للحظة واحدة»، كان يقول بإصرار.

وفي جميع الأحوال، لم يكن ينهي الطعام الذي في صحنه، وعندما كان يقدم له أحد شراباً أو كعكاً، كان يطلب دائماً نصف كأس، أو نصف طاسة، أو نصف قطعة، فيربك الشخص الذي يخدمه. أما أنا، فكلما وجدت كأساً من عصير النعناع نصفها فارغ، كنت أرى أثر شمس التبريزي عليها.

وكان مغرماً بتناول البطيخ. كان يجنّ به. وكان يصرّ على أن تكون قشرته صلبة، وأن يكون حلو المذاق، له رائحة تشبه رائحة بساتين تبريز، مسقط رأسه. ما زلت لا أعرف سبب ذلك، لكنّي أصبحت الشخص الوحيد الذي يمكنه اختيار الأشياء التي يحبّها. وعندما كان يقدمها له شخص آخر، كان يتذوق قطعة منها ثمّ يبصقها على البساط أو على معطف الشخص، أو في ماء البركة، أو في كأس عصير النعناع. ثمّ يبدأ في صبّ اللعنات على الشخص الذي زرع هذا البطيخ، ومن باعه، ومن اشتراه. ولم يكن أحد يجرؤ على تحمل مسؤولية هذا العمل المحفوف بالمخاطر. وأصبحت أنا الاختصاصي ببطيخ شمس. فقد كنت أمشي بين صفوف البطيخ المزروع في بستاني في فاليراس، وبمساعدة زوجتي الشابة، كنت أنتقي بضع بطيخات. أشمّ رائحتها، أتفحصها، وأردد أدعية حتى يكون اختياري صائباً، قبل أن أقرر أن أقطف عدّة بطيخات لشمس التبريزي، ولكي لا أبدو متبجّحاً، يمكنني القول إنني نادراً ما أخطأت.

وفي عشية أحد الأيام في ذلك الصيف الرائع، صعد شمس والرومي وذريانوس وعدد قليل من الأصدقاء، كالعادة، إلى سطح بيت صلاح، صائغ الذهب. وبغية تبريد حرارة أرضية السطح، صبّ الخدم عليه الماء ومدّوا سجادة كبيرة من القصب. كانت الشمس تميل إلى الغروب وراء قبب المساجد، فأضاءت وجوهنا بنور عابر.

تناهت إلينا أصوات مربي الحمام. وظهر سرب من الحمام فوقنا ثم هبط على سطح بيت مجاور. لم نكن نسمع صوتاً آخر غير صوت هديلها. وباهتمام شديد، أخذ الرومي يراقبها وهي تنقر الأرض، وتتنقل من ساق إلى ساق، وتتسافد، ثم تنام أخيراً. لا بدّ أنه كان يفكّر بمنظومة العطّار الشهيرة «منطق الطير: مقامات الطيور». هل أجرؤ وأعيد صياغتها بكلماتي أنا؟ في يوم من الأيام، قررت آلاف الطيور، يقودها هدهد سليمان، الانطلاق للبحث عن ملكها الحقيقي، سيمرغ (العنقاء). وفي نهاية رحلتها، بعد أن عادت معظم الطيور أو تاهت أو ارتطمت بشيء أو انهارت، لم يتمكن إلا ثلاثون طيراً من الوصول إلى ملكها، سيمرغ. ثلاثون، لأن سي مرغ تعني «ثلاثون طيراً». تلك الطيور الثلاثون التي تمكنت من الوصول، السي ميرغ، استطاعت أن تنظر في وجه ملكها، وعندما نظرت إلى سيمرغ، رأت ثلاثين طيراً، وعندما نظرت إلى نفسها، رأت الطيور الثلاثون أنها هي أيضاً السيمرغ. ويقول العطّار: «لم يسمع أحد في العالم شيئاً كهذا».

راقب الرومي طويلاً الحمائم تطير فوق سطح البيت المجاور، ثمّ التفت نحو شمس، وقال البيتين التاليين وهو يحدّق به:

شمس، حقيقة تبريز، إننا خصيات طيرك،
نغلي، تحت ريشك، حتى اللحظة التي تطير فيها.

فأجاب شمس، «أنتَ، أنتَ من يمتلك الجمال، وأنا من يمتلك الجمال والقبح معاً. لقد رأيتَ جمالي، لكن قبحي، لم تره. هذه المرة، سأترك النفاق وأمارس القبح حتى تراني تماماً، في نعمتي وفي قبحي».

لا ريب في أنه كان يفكّر بصورة «الغليان تحت ريشه»، أضاف: «إن الذي يقبل كلماتي يرى كلمات الآخرين باردة ومرّة. لا يبقى بارداً لأنه يكلّم الآخرين، بل لأنه لا يكلّمهم مطلقاً».

ثمّ تجرأتُ، أنا حسام، المريد الشاب ذو البنية الرياضية، على التدخّل في هذا الحوار بين إلهيَّ، فقلت: «مولانا الرومي يعبّر عن الطيبة، أما شمس، فيحمل علامة الطيبة وعلامة العنف في آن معاً».

اعتبر ذريانوس تعليقي هذا إهانة لحبيب مولانا وطلب مني أن أسكت، فغضب شمس كما لم يغضب من قبل، ليس مني، وليس لما قلته عن الطيبة والعنف، بل غضب من صديقي الذي ردّ عليه بحماسة:

«إنك أحمق يا ذريانوس! إن حسامنا هذا يقارن صفاتي بصفات الله الذي يجمع بين العنف والطيبة، وعندما عبّر عمّا يجيش في نفسه، فإن ما قاله لم تكن كلماته هو، لم تكن كلمات القرآن، ولم تكن أفعال الأنبياء، بل كانت كلماتي التي خرجت من فمه. الآن، أنت وأمثالك، تحلم بعقلك المتعثر، بأن تصبح خلال يومين مثل أعظم الصوفيين، مثل أبي يزيد والجنيد والشبلي. إنك تحلم بالشرب من كأسهم. يا لكم من حفنة من الحمقى».

ارتسمت على وجه ذريانوس علامات الإهانة. ويجب أن أقول بأنّني، لكوني شاباً مندفعاً، أحسست بالسعادة لانزعاج صديقي. ساد صمت طويل بين المريدين، وفجأة أطلق الرومي ضحكة مجلجلة، مدركاً أن مريديه يفتقرون كثيراً إلى الفطنة، لكنهم كانوا جميعاً يريدون أن يصلوا إلى سيمرغهم، ملكهم الحقيقي. فاستوى واقفاً، وهو لا يزال يضحك، ونزل من السطح وهو لا يزال يضحك، واجتاز الفناء وهو لا يزال يضحك، وألقى بنفسه وهو بكامل ثيابه في بركة الماء المليئة بالسمك الذهبي، وهو لا يزال يضحك.

ذات مساء، أُقيم في بيت صلاح أيضاً، المكان الذي اختاره مولانا وشمس لخلوتهما، حفل موسيقى وسماع روحي. تحلّق في القاعة التي كانت في شكل رواق والتي تفضي إلى غرف عديدة أفضل عازفي الناي وضاربي الدفوف وعازفي العود. وكان مغن يمتلك أجمل صوت على وجه البسيطة، يهيّئ نفسه باستنشاق مزيج من البخور، وهي وصفة قديمة تعود إلى زمن سحرة أهورا مزدا الذين كانوا يستنشقون هذه الأبخرة قبل طلوع الفجر لإيقاظ العالم النائم بتمائمهم.

أضاءت عشرات الفوانيس الفناء وبدا أنها تدعو الماء في البركة الصغيرة إلى أن يتلألأ في ذلك الضوء. ورفعت الضفادع المفتونة بالقمر رؤوسها نحو قرص القمر وأطلقت نقيقها في جوقة واحدة عندما توارى وراء الغيوم. رحت أنظر إلى الماء وأتابع رقص الضفادع الصغيرة من على سطح الماء المتلألئ كاللؤلؤ.

غادر شمس والرومي، يداً بيد. كانا كلاهما يرتديان جبة من القطن الناعم بلون الضوء. كانت تلك أول مرّة أرى فيها شمس يرتدي مثل هذه الملابس البهيجة، ويعتمر تلك القبعة التي بدأنا نلمّح إليها بأنها «تاجه». ألم تكن تزيّن رأس ملك؟ وعلمت من صلاح الذي راح يبث معلومات، قطرة قطرة، بأنه كتبت على عمامته من الخارج عبارة «الله أكبر» ومن الداخل كتبت عبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكتبت على الجبهة عبارة، «لا إله إلا الله»، ومن الوراء «محمد رسول الله».

عندما اقتربا، ارتميت على الأرض عند قدميهما. لقد تركّز جلّ اهتمامي مؤخراً على شمس. ومن دون أن أدرك ذلك تماماً، اعتراني إحساس عميق في داخلي بأنه سيختفي، أو أنه سيُخفى، أو ربما سيموت. قلت لنفسي إنني يجب، بأي ثمن، أن أدوّن كلماته،

حركاته، عصبيته ونفاد صبره، بل وحتى غطرسته. وقد سمعته يوماً يقول، «أنا مخلوق الله الوحيد»، وفي مناسبة أخرى، قال لصلاح، «إذا رُفعت الكعبة من مركز الدائرة، فإن سجود المؤمن سيوجّه إلى الشخص الذي يصادف أن يكون واقفاً قبالته».

كان الاحتفال سيقام في غرفة ضيّقة. سأل ذريانوس الذي وصل للتو من عند الحلاق وقد شذّب لحيته، شمس عن سرّ رقصة «السماع»، فترك شمس يد الرومي، وقعد على وسادة على الأرض، وراح يفرك كاحليه كما لو كان يعدّهما للرقص بالدوران، ثمّ قال بأسلوبه المعتاد:

«خلال رقص السماع، يدرك رجال الله في معظم الأحيان التجليات الإلهية، ويستطيعون أن يغادروا عالم وجودهم بسهولة أكبر. إن رقصة السماع تسحبهم من العوالم الأخرى وتربطهم بوجه الحقيقة. وهناك رقصة سماع محرمة وهي عندما تكون اليد مرفوعة من دون وجد وعشق، وهناك فإن تلك اليد تستحقّ جهنم. أما اليد المرفوعة بوجد وعشق فإنها تبلغ الجنة. وهناك رقصة سماع مسموح بها وهي السماع التي يؤديها الزهاد والأتقياء الذين يستسلمون للدموع والرقة. وأخيراً، هناك رقصة سماع تؤدى من باب الواجب: للكائنات التي تكون لها رقصة السماع هذه بمثابة الصلاة، كالخبز والماء في أحلك الأوقات. السموات السبع والأرضون السبع، وترقص جميع المخلوقات عندما يدخل مؤمن حقيقي حلقة الرقص. إن رقص رجال الله أشبه بورقة شجر تطوف فوق سطح الماء: في داخلها جبل، وفي خارجها قشّة».

نسي شمس كاحليه، وأشار إلى المنصة الضيّقة التي ستقام عليها رقصة السماع، وأضاف:

«عندما كنت مراهقاً، دّمر الحبّ شهيتي. فإذا قدم أحدهم لي طعاماً، كنت أرفض الطعام بحركة من يدي. وكنت أقبل أحياناً تناول لقمة لكنّي سرعان ما كنت أبصقها وأخبئها في جيبي. لأنني كنت مسكوناً بذلك الحبّ. وذات مرة، بينما كنت أرقص السماع، أمسكني فجأة صديق كان في حالة شديدة من الطرب، وجعلني أدور مثل طير. أصبحت بين يديه مثل قطعة خبز أخذها والتهمها بنهم شديد شابّ لم يتناول شيئاً منذ ثلاثة أيام ووجد نفسه بغتة أمام طبق من الطعام. جعلني أدور وأدور وأدور. كانت عيناه بركتين مليئتين بالدم. تردد صوت، «ما زال المراهق غراً. اتركه في ركن ودعه يفني نفسه من الداخل». فتركني الراقص».

خلال رقصة السماع ظللت أكرّر، «إن رقص رجال الله يشبه ورقة شجرة تطوف فوق سطح الماء: في داخلها جبل وفي خارجها قشّة».

رويداً رويداً، أحسست أنّ الرومي قد ضجر من المكوث في بيت صائغ الذهب. فلم يكن يرى أحداً. لأنه، ماعدا بضع زيارات من زوجته كيرا، هجر بيته تماماً وبدأ يتطلّع إلى تجديد صداقاته. وعلى الرغم من بقاء شمس وصلاح مع مولانا باستمرار، فقد أصبح لهما دور مهيمن في قلب مولانا وحياته اليومية، بدأ كلّ شيء في المكان يوحي بعدم الراحة بالنسبة له - الفراش الوثير، الحمّام المتجدد، الروائح المنبعثة من المطبخ. وفي أحيان كثيرة، كان يشمّ رائحة ابنه سلطان ولد الذي كان يذكّره ببيته الذي هجره. وأثناء زياراتي له، كان يطلب مني أن أحكي له ماذا يدور من أحاديث بين الخدم في بيته. هل نجح الطاهي، وهو زوج وأب، في إغواء كانيزاك السوداء، الخادمة الشابة التي مات زوجها العجوز المعاق

مؤخراً؟ هل لا يزال يشك بأن المتسول الضرير يعمل لصالح العسس؟ هل الجنائني لا يزال يجري وراء قارئ القرآن الشاب الذي يدرس في المدرسة المجاورة؟ لكن أي شيء أهم من علاقة كانيزاك والطاهي غير ارتباطهما الذي بدأ يتشكّل يوماً بعد يوم أمام عينيه، في الخلوة التي بدأ يشعر بالملل منها، بين ابنه سلطان ولد وفاطمة، ابنة صلاح، ذات الاثني عشر ربيعاً.

أمضى مولانا في بيت صائغ الذهب الشهور السبعة الماضية، بعيداً عن نظرات الطفيليين. وخلال تلك الفترة، استخدم سلطان ولد كل ذريعة ممكنة ليأتي لزيارته. فقد كان يلاحق فاطمة منذ صلاة الصبح وحتى صلاة العشاء. لم يكن يتأمّل، وقلما كان يصلّي، ونادراً ما كان يشارك في أحاديث والده مع شمس.

كان يلاحق خطوات ابنة صائغ الذهب التي تصغره بعشر سنوات، أينما ذهبت. وعندما كنا نعود في المساء، لم يكن الصائغ يشارك في أيّ أحاديث عرفانية، بل كان حديثه يتركز حول طريقة لاكتشاف الذهب استنبطتها قبيلة من شمال أفريقيا يمكن استعمالها لتصميم قلادة من الحلقات المترابطة من دون استخدام اللحام على الإطلاق.

في تلك الفترة، اختار الرومي الذي حُرم منه مريدوه، فاطمة ليعلّمها. بدأت أغار من هذه المراهقة ذات الشعر الأسود الطويل التي كانت تظهر بلا حجاب أمام مولانا لأن التلقين الذي تتلقاه كان عميقاً. وفي إحدى المرات، رأيت الرومي يصف لهذه الفتاة التي كانت لا تزال تمصّ إبهامها، تجلّي الله للإنسان. وذات ليلة، عندما جافاه النوم، رأى شمس الذي كان يتمشى في بيت صلاح، فاطمة واقفة بينما كان الآخرون يغطون في النوم. وعندما سألها عن سبب

وقوفها هكذا، أجابت ببساطة بأنها تظل واقفة في الليل. كانت تأكل قليلاً، ونادراً ما تتكلّم. ولم تتكلم معنا قط.

لم تكن تفضي بأسرارها إلا للرومي. وكانت صديقة ابنة الأميرة غوردجي ومعين سليمان، مدير المدرسة السابق وحاكم قونية مستقبلاً، الرجل الذي يلعق سبابته. كانت هذه الفتاة التي تدعى عين بخلاف فاطمة، ثرثارة. وقالت لأمّها إن صديقتها حكت لها عن ظهور السكّان الروحيين في الجنة الذين لا يظهرون أمام عيون الكفار. ورسمت عين تلك الكائنات السماوية المحاطة بالنور والطاقة، وأرتها لأبيها الذي، على الرغم من أنه كان من أشدّ الناس إيماناً، لم ير قط مثل هذه الخيالات. وقد فتنت شخصية فاطمة كلّ من زارها وعلى رأسهم سلطان ولد. وعلى الرغم من الفرق في العمر بينهما، كان يناسبها تماماً. فقد كانت فاطمة الرصينة الصامتة تحدّثه مطولاً وبإسهاب، وفي معظم الأحيان، كانت تبدي له إشارات تدل على الحبّ. وفي ضوء ذلك، وافق الرومي بالاتفاق مع صائغ الذهب وزوجته على خطبة ولديهما. كانت هي في الثانية عشرة من عمرها وكان هو في الثانية والعشرين. كان عليهما أن ينتظرا أربع سنوات أخرى حتى يتزوجا ويستمتعا شرعاً بملذات الجسد.

في بداية الخريف، احتفلنا بزواج شمس من امرأة في غاية الجمال، تصغره بأربعين سنة، نشأت وتربت في بيت مولانا. اسمها كيميا. وكان علاء يرغب في الزواج منها أيضاً.

على الرغم من أن شمس أحبّ المرأة التي ستصبح زوجته، فلم تكن تبدو عليه السعادة بفكرة الزواج. كنّا متحمسين أكثر منه بمائة مرة. فقد كان الرومي يرجو أن يحول هذا الزواج دون طيران الطير

بعيداً عنه. وقد أخبرني بعد سنوات، أنه منذ اللحظة التي التقيا فيها، أحس أن اتحادهما الرائع لن يدوم طويلاً.

أصبحت ماهراً في طلب مبالغ كبيرة من الأشخاص الذين يرغبون في رؤية الرومي، لاستخدام هذه النقود من أجل تغطية تكاليف حفل زفاف شمس. بدأت أجمع النقود، وكان عليّ أن أحسب أولاً الهبات التي قدمتها الأسرة المالكة. وقد قال لي ابن مولانا الحذر دائماً إنه ينبغي ألاّ نطلب مبالغ كبيرة من السلطان أو من أخته، الأميرة غوردجي. واقترح ألاّ نطلب منهما شيئاً إلا إذا كنا في حاجة ماسة إلى ذلك.

من أين نأتي بالنقود؟ لم يكن بالإمكان طلب أي مبلغ من صلاح مثلاً. فهذا الرجل المتوسط الحال كان لا يزال يزاول مهنة الصياغة، ولم يكن يملك غير حديقة صغيرة يمضي فيها جلّ وقته في أوقات فراغه. أما طلب نقود من أحد مريدي الرومي الآخرين المقربين مثل ذريانوس، فسيكون أمراً مضحكاً - فبعد أن تخلى عن «وجوده السابق»، كما كان يقول، حياته السابقة كلصّ، مجرم، رجل مدان، أصبح خالي الوفاض، يكاد يكون معدماً. أما المريدون الآخرون، فكان معظمهم فقراء، واحد منهم فقط كان لديه دخل كاف، وهو أنا.

توجهت إلى عدد من أصدقاء أبي السابقين. رجال أغنياء كرماء مخلصون للأخويّة التي أقامها والدي المرحوم والتي قمت بحلّها بعد موته. وبعد نقاش طويل عن الفوائد التي يمكنهم أن يجنوها من تقديم هديتهم، تمكنت من إقناعهم بفتح محافظهم قليلاً.

ثمّ أجريت بعض الحسابات المعقّدة لأحدد المبلغ الذي أحتاجه حقاً. في تلك الأثناء جاء شمس ليراني، وقال لي: «حسام، إن

الدين موجود حيث يوجد المال، أعط شيئاً، وكن خادماً، وادخل بيننا».

لماذا يجعل الدين تابعاً للمال؟ لم أفهم.

هل هذا اختبار جديد؟ لا يهم. كانت رغبتي الوحيدة هي أن ألج إلى أعماقه. لم يكن للثمن الذي سأدفعه أهمية. فبعت الأثاث الموجود في بيت أبي ومجموعات السجاد الأصفهاني، والعاج الهندي، والخزف الصيني المصقول، والخزف السوري.

«بيعوا كلّ شيء! كلّ شيء!» أمرت خدمي.

ظللت أكرّر هذه الكلمات حتى أخبروني بأنه لم يبق شيء في البيت إلاّ هم. لدى سماع هذه الأخبار غمرتني بهجة عارمة، وأصبح بإمكاني أخيراً أن أعتقهم وأنفّذ أمنية النبي بالعتق. قلت لهم: «أعتقكم جميعاً إكراماً لحبّ الرومي».

وهكذا غادر الخدم.

على الرغم من إغلاق صومعة الناسك، كان لا يزال عدد من رفاق أبي السابقين في الأخويّة يلتقون فيها. وعندما وجدوا البيت فارغاً، لا حياة فيه، انزعجوا كثيراً، لكنني لم أكترث لانزعاجهم هذا.

كان كل ما يهمني هو أن أكون سخياً مع شمس. وإذا اضطررت فسأبيع بستاني الجميل في فاليراس، وبتلك النقود سأملأ حذاء شمس. لكن لا داع لذلك، فقد تجاوز المبلغ الذي حصلت عليه من بيع أثاث بيتي وما حصلته من تبرّعات نفقات الزواج بكثير.

قرّرت أن أقدم لشمس المبلغ الإضافي. لم يأخذ شمس درهماً واحداً وطلب مني أن أوزع كلّ شيء على الفقراء. راضياً بكرمي، أضاف قائلاً، «المتهوّرون يسعون إلى الموت كما يسعى الشعراء إلى

القافية، وكما يسعى المريض إلى العلاج، وكما يتوق السجين إلى الحرية، والتلميذ إلى عطلة عصر يوم الجمعة».

وأكملت فكرته بنفسي: «الطريقة التي يسعى فيها الأحبة إلى هدية النفس».

وخلافاً للعادة، قرّر شمس أن يقيم حفلاً صغيراً.

كُلِّفت بنصب خيمة في وسط الفناء لاستقبال عدد من الضيوف المختارين، وركّبت عشرات المواقد للزوج الذي لا يفارقه الإحساس بالبرد. وزيّنت زوجة الرومي، كيرا، أكثر غرف البيت تعرضاً للشمس في البيت، تاب خانه، حيث سيقام حفل الزفاف، وتتلى الآيات القرآنية.

رفض شمس أن يحضر حفل الزفاف إمام، بل طلب أن يقرأ الرومي بعض القصائد عن الزواج. دخل ثلاثتهم: الرومي وكيميا وشمس إلى تاب خانه من الباب الذي تُرك مفتوحاً قليلاً. رأيت بتلات الأزهار مبعثرة على الأرض، ومصابيح رائعة، وسحابات من البخور. ثم أُغلق الباب وراءهم.

علمت لاحقاً، بواسطة مولانا نفسه، أن شمس طلب من كيميا أن ترفع حجابها أمام الرومي عندما كان يقرأ قصيدة الاتحاد. وقال لي إنه بينما كان يقرأ قصائد حبّ مختلفة بالفارسية، رفعت العروس حجابها، فرأى شعرها الذي ذكّره «بموجات بحيرة مضطربة في الليل»، وعنقها الذي «يقارب بياضه الناصع بياض ندف الثلج التي تهطل في بداية الخريف»، وخصرها الذي «يتوسل لمعانقته».

لم يكن شمس من ذلك النوع من الرجال الذين يشاركون الآخرين، فقد كشف عن شخصيته الاستحواذية في علاقته مع

مولانا. لقد كان هو من يقرر الزيارات والنزهات والاحتفالات أو إقامة جلسات السماع. حتى الاغتسال في الحمّام العام الذي كان الرومي مغرماً به، فلم يكن يتم إلا بإذنه. لقد سمح له مولانا بتكاسل أن يتحكم بحياته.

بعد حفل الزفاف، انتقلت كيميا، العروس الشابة، إلى الحرملك حيث أقامت لها كيرا حفلة خاصّة ضمت النساء فقط. تجمّع الضيوف الذكور في الخيمة التي رُفعت حرارتها، وراحوا ينتظرون عودة الرومي وشمس. وعندما وصلا، انحنى الضيوف لهما وتمنّوا لشمس وكيميا - اتحاد «الشمس» و«حجر العارفين» - حياة مديدة معاً، ثمّ قُدم لنا لحم الطير والطراد ولحم الضأن المنقوع بالليمون والريحان والثوم. وتلا ذلك تشكيلة رائعة من الكعك المخبوز بزهر البرتقال وماء الورد وعصير الرمان. وعندما رفعت الصحون، أُحرق البخور في الخيمة لإزالة رائحة الطعام.

حان موعد إقامة رقصة السماع. فطُلب من العازفين أن يعزفوا على الدف والرباب، وبدأ الرومي وشمس وآخرون، بمن فيهم أنا وصلاح وذريانوس، رقص السماع. لم يكن عدد الحاضرين كبيراً، لكنهم أبدوا اندهاشهم لما رأوه في تلك الليلة. في النهاية، لدهشتي، حكى لي شمس عن صلاح.

«إن كلمات صائغ الذهب هذا تشوّشني. فأنا أبدو مثل رجل يراقب بهلواناً يمشي على حبل مشدود، بتصميم وبلا وجل، يسير على حبل عال يجعله يشعر بأن الدم يفرغ من قلبه».

في ذلك المساء، رأيت لأول مرة، من خلال شمس، الجانب الآخر من صلاح في ضوء معين. المنحدر الذي تعين على الرومي أن يرتقيه بعد سنوات.

بعد حفل الزفاف، انتشرت كالعادة أقاويل عن أدنى التفاصيل المتعلقة بالزوجين وأصبحت حديث الناس في الأمسيات في المدينة كلها.

ولم يكن هناك حديث بين حريم الوالي والخصيان والمحظيات إلا عن جمال كيميا، المرأة التي أصبحت الغصن الذي يستقر عليه - وكان هذا أمل الرومي - شمس *الطير* ويبني عشّه إلى الأبد.

دفعني فضولي إلى أن أسأل شمس عن زواجه لكي أدوّن ذلك. كان عليّ أن أطرح أسئلة بذكاء وحذر. إذ يتعين عليّ أن أكون شديد الحذر أثناء التكلم مع شمس على قدر طاقتي لأن نوبات غضبه قد تنفجر لأدنى شيء: ما شكل الحبّ الذي يكنّه لكيميا؟ هل يشبه الحبّ الذي وحّده مع الرومي؟ هل هو أعظم؟ هل هو حبّ مختلف؟ وكالعادة، كانت إجابته غير متوقعة ومربكة.

فقال: «إني أتحلّى بالصبر. والناس يتعلّمون الصبر منّي. أترى مدى صبري مع كيميا؟ إنها تظن أنني أحبّها، لكني في الواقع، لا أحبّ إلا الله. يخيّل إلى البعض أنني أعاملها بفظاظة لأنني أريد أن أجرّدها من ممتلكاتها. إني أعذرهم، أغفر لهم وأغفر لها. ففي ذلك اليوم ذهبت إلى بيتها، وبدا لي أن أفراد أسرتها قد فوجئوا بي وبدا أنهم يقولون لي: «ما الذي أتى بك إل هنا؟» احتجت لزمن حتى تعتاد عيني على رؤية الجدران والسجاد. ولكي أجلس في مكان ما، يجب عليّ أن أتآلف إما مع الموجودين وإما مع الجدران والأثاث. ثمّ سمعتها تقول: «تعال وقابل زوجي»، ثمّ رأيت شخصاً يمد رأسه من جهة، وشخصاً آخر يمد رأسه من الجانب الآخر. لقد سرّها ذلك. كلّ هذا لأقول لك إن الصبر الذي أبديه لكيميا ليس شيئاً بالمقارنة مع صبري الحقيقي. لقد ندمت على النقود التي أعطيتها

لها، لكنّي أعطي من أجل الله. إني أعطيها لأنها تعلّمني الشطرنج. وسأعطيك مثالاً آخر: فمنذ أيام رأيتها تبيع *غندورا*، دثار ذو أشرطة زينة. ما إن يرى الناس الأذكياء الشمس حتى يبدأوا ببيع كسائهم الشتوي. أما في الأيام الماطرة، وعندما يهطل الثلج، وعندما يحييّ الجبل الأبيض المدينة، فإن هؤلاء الناس ذاتهم ينكفئون في ركن البيت ويندمون لأنهم باعوا ثيابهم التي تدفئهم. الآن، حسام، لخّص كلّ ما حكيته لك للتو لأعرف كيف ستصيغه».

لخصت ما قاله بأفضل ما يمكنني. بدا أن كلماتي أدخلت السرور إلى نفسه. لكنني عندما قرأت ما كتبته في ما بعد، رأيت أنّه كان محقاً في طلبه بأن أعيد عليه كلماته، لأن كلماته بدت هي أيضاً طيوراً تنتقل من غصن إلى غصن.

في خريف تلك السنة التي جلبت معها خاتم الفراق بين شمس والرومي، التي قارنها مولانا في القصيدة الأولى من قرآنه الصوفي، المثنوي، عندما تحدث عن فراق الناي عن الغاب الذي نما فيه، الفراق الذي أسفر عن قرابة خمسين ألف بيت من قصائد الحبّ تجسدت في قلوب العشاق لقرون قادمة، وربما إلى الأبد. عذاب الفراق والانفصال والتشتت. دعوتُ شمس لنتمشى في بستاني في فاليراس. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يثيرهم حفيف أوراق الأشجار، أو الخطوات التي سحقتها تحت الأقدام، أو حركة ابنة البستاني التي تتأرجح بين شجرتين، أو حتى البستاني نفسه الدائم التذمر، مثل كلّ البستانيين، من الطقس السيء، أو من هجرة اللقالق المتناغمة. رأى كل ذلك بعين مختلفة. لأن تفاصيل العالم بالنسبة له هي العشاق، وكلّ تفصيل في الكون ما هو إلا عاشق لوجهه، إلى حدّ نشوة الطرب.

في وقت لاحق، عندما اختفى شمس، كتب مولانا عن هذا الحبّ الشامل.

لو لم تكن الشمس عاشقة أيضا،
لما قبع النور في جمالها.

ولو لم تكن الأرض والجبل عاشقين،
لما نما نبات في قلبيهما.

وإذا لم يعرف البحر الحبّ قط،
فإنه سيكون لديه، في النهاية، مكان يرتاح فيه.

مشينا في دروب تحفّها على الجانبين أشجار الحور وأشجار عادية وأشجار السرو. لاحظ شمس بشيء من الازدراء، المرج بعشبه المنبسط، وشجيرات خشب البقس المشذّبة بعناية. لا بدّ أنه كان يتساءل ما الجدوى من كل هذا الاهتمام بالترتيب والاتساق، ولكي لا ينزلق حذاؤه فوق الرمل الذي يكسو الدرب، طلب من البستاني أن يغطي الأرض بحصر من الخيزران، لنتمكن أيضاً من الجلوس على الأرض بجانب سلال مليئة بأزهار الزنبق والنرجس والمنثور. وعلى الرغم من شدة احترامي له، اعتراني إحساس طفيف بالمرارة، لأنه لم يعر أي اهتمام للجهود التي بذلتها لتسليته باحترام.

جاءت زوجتي، الحامل بعدة شهور، لتحييّ شمس، وقبّلت يده، ثم سألته هل يوافق على تعليم طفلها الذي سيأتي بعد ثلاثة أشهر القرآن. كان ردّه مراوغاً. وبإشارة من يدي، طلبت من زوجتي أن تذهب وتتركنا وحدنا، لكي لا نزعج ضيفنا.

أحسست ببرودة غير موجودة تتسلل إلى جسد شمس، برودة قادمة، ثمّ ذكّرني بشعوره بالبرد طوال الوقت، وحكى لي كيف أن رعشات البرد تسري في أعلى وأسفل عموده الفقري إذا لمس قطعة معدنية بعيدة عن الشمس. وتابع قائلاً إنه بعد أن يستحمّ، فإن جلده يحتاج إلى ساعات حتى يجفّ، ولا تستطيع أي منشفة أن تتشرب قطرات الماء العاصية التي، على الرغم من قوانين الفيزياء الطبيعية، تتجمع على ظهره، خاصة بين عظام كتفيه. ثمّ وضع نظرية كاملة عن تكوين جلده الخاص الذي يجعل حاسة اللمس لديه تختلف عن حاسة لمس أي شخص آخر، وصعوبة إزالة الأصباغ التي تبقى عالقة على أصابعه، لذلك كان كلّ ما يفعله هو أن يتناول لقمة واحدة من الرزّ بالزعفران بأصابعه وسبابته المشرّبة بلون الحبر، حتى تصبح بلون الزعفران الأصفر المائل إلى البرتقالي.

فجأة، مدّ أصابعه لإثبات نظريته عن جلده، وقال إنه بعد أن قشّر بضع حبات من الجوز الطازج، أصبحت أظافره دائمة السواد. أمعنت النظر في أظافره الداكنة، وحاولت أن أحتفظ في ذاكرتي بالخطوط المرسومة على يده، وأصابعه الطويلة التي لا يمكن تبين أي أثر لعمل يدوي فيهما. ومع ذلك تساءلت. لأنه خلال رحلاته الطويلة، في بحثه الطويل عن الرومي، لا بد أنه كان يعمل لكسب قوته. أمسكت يديه وقبّلتهما طويلاً. حتى إنني كنت أعبد أظافره الوسخة المزرقة من البرد. صوت خفي همس في داخلي بأنّ الوجود العظيم لشمس لن يكون قريباً أكثر من غياب طويل قاس. يمكنني أن أرى اليوم الذي يتعين عليّ فيه أن أتعوّد على الفراغ وعلى الخسارة. واستمر الصوت يهمس بأنّ هذا الغياب سيغدو تسامياً ذات يوم.

سحب يديه عن شفتي وعدنا نسير في البستان. ثمّ، فجأة، راح

يكلّمني عن طفولته. لقد فاجأني ذلك. فلم أسمعه قط يعبّر عمّا يجيش في أعماقه بهذا الوضوح عن ماضيه.

«عندما كنت طفلاً. رأيت الله، رأيت الملائكة، رأيت أسرار العالمين العلوي والسفلي. ظننت أن معظم الرجال رأوا ما رأيته، لكنني سرعان ما أدركت أنهم لم يروا شيئاً. قبل أبي، لم أكشف لأحد المظهر الخارجي لعبادتي. فكيف يمكنني أن أكشف له عما يجيش في داخلي وعن ميولي؟ كان رجلاً لطيفاً كريماً. لا يكاد أحد ينطق كلمتين رقيقتين حتى يبكي، مع أنه لم يكن عاشقاً. هناك فرق بين الرجل الطيب وبين العاشق».

سكت. كعادته، كانت كلماته مليئة بالألغاز. حاولت أن أمعن التفكير فيها. حتى أنه لم ينظر إلى أشجار البرتقال أو أشجار الليمون التي تنوء بالثمار، فخر البستاني. استغللت صمته وطلبت من البستاني أن يحضر لنا خبزاً مرقوقاً مخبوزاً على الأحجار، وقليلاً من الجبن المصنوع من حليب الخراف. علا صوته مرة أخرى. هذه المرة، أخذ يتحدث عن مولانا، كما لو أن ذلك أعاد ذاكرته.

«كنتُ ماءً يغلي في داخلي، يبقبقُ وتنبعث منه رائحة كريهة. وفجأة، جاء مولانا وضرب معوله فيّ فتدفّق الماء. وها هو اليوم، يتدفّق ببهجة وبهدوء ورضا».

عاد إلى طفولته.

«لم يكن أبي يعرف شيئاً عنيّ. كنتُ أعيش غريباً في مدينتي. وكان أبي غريباً بالنسبة لي أيضاً. أصبح قلبي حذراً منه. كان يخيّل إليّ دائماً بأنه سيضربني. ومع أنه كان يكلمني برقة، كنت أظن أنه سيضربني، سيطردني من البيت. كنت طفلاً، ولم يكن أحد يتفهم مشاعري. لم يكن أبي يعرف حقيقة مشاعري. وذات يوم، حاول أن

يقول لي: «إنك لست مجنوناً...»، لكني أوقفته في الحال، وقلت له: «اسمع ما سأقوله لك. إنك تعاملني كما لو كنت دجاجة تبيض بيض بطّة وتربي بطّات صغيرة، وعندما تكبر ترافق أمّها إلى حافة الجدول وتقفز إلى الماء. تمشي أمّها، الدجاجة، إلى حافة الجدول، لكنها لا تنزل إلى الماء. الآن يا أبي، إني أرى المحيط يصبح سفينتي، بلدي. هذا هو شرطي. إن كنتَ لي أو إن كنتُ لك، فاغطس في ذلك المحيط، وإلا فاذهب وقف مع الدجاج»؛ فأجابني أبي، «إن كنت تتصرّف هكذا مع صديقك، فكيف ستتصرّف مع عدوك؟»

وتقاسمنا الخبز والجبن.

وجدتك وحيداً

منذ طفولته كان علاء، ابن الرومي الحقود، يرغب في الزواج من كيميا التي أصبحت زوجة شمس. كان الجميع يعرفون ذلك، حتى الرومي الذي على الرغم من ذلك زوّج الفتاة للرجل الذي يكنّ له علاء كراهية شديدة. فمنذ التحوّل الذي حصل لوالده، وتوقّف عن إعطاء الدروس وإلقاء الخطب، وداوم على إقامة جلسات الموسيقى والسّماع، نعت علاء شمس بالمشعوذ والدجال. وعندما رحل شمس، تمنّى علاء ألاّ يظهر ظلّه مرة أخرى في حديقة بيت الأسرة. وعلى الرغم من الألم الذي اعتصر قلب والده، فقد أمل علاء أن يزول هذا الألم مع مرور الزمن. ولم يحتمل أيضاً الموقف الطيب الذي كان يبديه شقيقه الأكبر، سلطان ولد، والذي وضع نفسه منذ اليوم الأول في خدمة هذا الرجل الغريب الذي لم يكن يعرف أحد اسمه الحقيقي وما أصله أو نسبه ومهنته. هذا الغريب الذي تمكّن من عزل والدهم عن عائلته ومريديه، وفرض عليه رغباته، وجعله يتوقف عن إقامة خلوات دينية معهم، ومنعه من قراءة أعمال الماضي العظيمة، بل وبلغت المهانة ذروتها عندما فرض على الأشخاص الذين يرغبون في زيارة الرومي أن يقدموا مبلغاً من المال أو هدايا.

لكن لماذا يستمر سلطان ولد، على الرغم من كل ذلك، في

مساعدة هذا الرجل وتأييده، هذا الرجل الذي تسبب في ألف اضطراب؟ لا بد أن سلطان ولد، مثل والده، قد فقد صوابه، بل ربما فقد قلبه أيضاً.

كان علاء يمرّ في الرواق المطل على غرفة نوم كيميا، ويتعمد أن يلقي نظرة عابرة إلى داخل الحجرة. لكن بعد زواجها من شمس، منعه شمس من أن يقترب من هذه الحجرة، وقال له: «إني أمنعك من الاقتراب من هذه الحجرة وإزعاجي. فقد اخترت هذه الحجرة لأنها منعزلة».

لاحقاً، وللتخفيف من حدّة كلمات شمس، زعموا أن شمس لم يهدّد ابن مولانا قط، حتى لو كان علاء مذنباً ويستحق التأنيب، بل متلصصاً إلى حدّ ما. وحسب ما ذكره هؤلاء المخبرون القادرون على تحلية أشدّ العبارات مرارة، فقد قال شمس لعلاء: «يا نور عيني، مع أنك تتحلى بجميع الصفات الطيبة من داخلك وخارجك، فيجب عليك، من الآن فصاعداً، أن تدخل هذه الحجرة بأدب»، لأن كلّ من يعرف شمس، يعرف أنه لا يمكن أن تخرج من فمه اللاذع، العنيف مثل هذه الكلمات.

كانت الكراهية التي يكنّها علاء لهذا الرجل الذي نعته بالدجال قد بلغت ذروتها. ولم يكن علاء يأتي بحركة واحدة من دون أن ينتقد هذا الرجل ويدينه ويشتمه.

أخذ أعداؤه المنتشرون في كل مكان يحيكون الدسائس ويناورون. وكان علاء يحضر جميع اجتماعاتهم، سواء تلك التي كانت تعقد في السوق أم في الحمّام العام أم في المدرسة أم في الخان. وكان يؤجج غضبهم بمهارة ويثير المرارة الكامنة في نفوسهم، وكان يحرّف بل يختلق عبارات تشي بالكفر وينسبها إلى

شمس، هازئاً من سلوكه - وهي عبارات كانت غريبة حقاً على الأشخاص الضيّقي الأفق. هكذا أججّ علاء تعصّب المتعصّبين، وبثّ فيهم فكرة قتل هذا الشخص غير المرغوب فيه، هذا المتطفل الذي جعل والده يمضي شأواً بعيداً إلى حد أن يتماهى مع الله العلي القدير، وكان عدد هؤلاء الرجال الحقودين في ازدياد، وكان من بينهم تلاميذ مولانا السابقين الذين أُغلق باب المدرسة في وجوههم، والكتّاب الذين نُبذت كتبهم، والأغنياء الذين عوملوا بازدراء، والأمير الذي لم يعد أحد ينحني له. كلّ هؤلاء تآمروا على شمس مع علاء.

في أحد الأيام، وفي منتصف الخريف، أحسّ علاء أن اللحظة قد حانت لتحويل هذه الدسائس إلى مؤامرة حقيقية. واختار حمّام دافالي المشهور بزخارف بلاطه والمشيّد بأحجار مستطيلة حمراء وصفراء وسوداء يكسوها رخام أبيض. وكان علاء يلتقي سرّاً بالمدلّك الذي شارك في المؤامرة مع أربعة رجال كانوا يتمنون موت شمس، وكانوا يجيدون الكتمان وحفظ السرّ. التقوا عند البركة المستديرة القائمة في وسط حمام البخار الثماني الأضلاع، وكان البخار وقطرات الماء تحجب وجوههم، وكانت مناشف طويلة حمر وزرق تغطي أجسامهم. كانوا يفركون أجسادهم بأوراق العنّاب الجافة أو بالصابون. وكان المدلّك الذي منع أحداً غيرهم من الدخول، ينظّف الأجران ذات الأنابيب التي تُزوّد بالماء الساخن والبارد من فتحات مثبتة في الجدار، ويشاركهم في حفلة الاتّهامات والاحتجاجات والشكاوى. وبدأ أحد الشبان، وهو تلميذ سابق للرومي كان شمس قد طرده، قد حلق شعر رأسه فأصبح رأسه الأصلع يلمع في المقصورة الواقعة في الوسط بين المدخل وحمام

البخار، ينتقد افتقاد مولانا للفطنة منذ أن أصابه ذلك الدجال «بالعمى». وأضاف علاء قائلاً: «لقد حبس والدي نفسه في حقل ترعى فيه خراف الشيطان، دائرة لا تُقبل فيها إلا حفنة من المجرمين مثل ذريانوس اليوناني، والجاهلين مثل صلاح الصائغ، ومصارعين أغبياء مثل حسام، لكن الأنكى من ذلك أنهم كلهم محتالون مثل شمس».

كان بائع الكتب الذي فقد أحد أفضل زبائنه، وهو الرومي، لأن أحداً لم يعد يقرأ شيئاً في المدرسة، قد غادر المقصورة الوسطى بعد أن نزف دماً بسبب معالجته بكؤوس الحجامة، كما يبدو من الضماد بين عظام كتفيه.

قال ضاحكاً وهو يقطر حقداً: «يقولون إن الرومي لم يعد يكرّم زوجته، وأنه أصبح يحتفظ بكلّ عواطفه لشمس. كيف يمكن لشخص أن يهمل امرأة جميلة مثل كيرا، ويمنح محبته لدرويش عجوز نحيل يرتجف من البرد؟»

أما المتآمر الثالث، وهو قاض لم يحتمل «الفوضى» التي سبّبها رقصنا، فقد جلس على مقعد من الرخام، يعرض لحمه المكتنز بعد أن أزال شعر إبطيه وصدره. وقال هذا الرجل الذي كان يظن نفسه كاتباً، بخبث: «يجب على المرء أن يرى ليلى بعيني المجنون».

بالطبع كان يُلمح إلى قصّة الحبّ التي نعرفها جميعاً عن ظهر قلب. فقد أحبّ المجنون ليلى فجنّ وهام في الصحراء، وصادق الوحوش البرّية. وطلب الخليفة هارون الرشيد إحضار ليلى ليرى عن قرب تلك المرأة التي سلبت عقل المجنون وجعلته يهيم في الصحراء، فأصبحت قصّته مرآة جميع العشاق الحقيقيين في الشرق والغرب.

أُنفقت أموال كثيرة، وحيكت ألف حيلة وحيلة لإحضار ليلى

للمثول أمام الخليفة. وبأمر منه أُخذت إلى قصر الحريم حيث أضيئت الشموع بعد حلول الظلام. عندما وصل الخليفة راح يرمقها طوال ساعة، ثمّ ساعة أخرى، لكنه لم يفهم سبب قصة الحبّ الأسطوري هذه. وقال لنفسه يجب أن أجعلها تتكلّم فلعل حديثها يُظهر على وجهها تلك الأعجوبة. فالتفت إلى ليلى وقال، «أهي أنت التي صار المجنون بسببك مضطرباً وغوياً؟ إنك لا تزيدين حسناً عن بقية الحسان!» فقالت: «نعم أنا ليلى، لكنّك لست المجنون! والعين التي في رأس المجنون ليست في رأسك. إن كنت تريد أن ترى جمالي، فانظر إليه بعيني المجنون».

عندما ذكر هذه القصّة، كان من الواضح أن الرجل الحليق الرأس يريد أن يقول إنك إذا أردت أن ترى جمال شمس مفضلاً إياه على جمال كيرا، فيجب أن تراه بعيني الرومي.

توقّف المدلّك الذي استمر في تنظيف الأجران، لحظة، وقال بافتخار: «إني أعمل كذلك مع الوزير الأعظم ويمكنني أن أؤكّد لكم إنهم هناك، في القصر، يشعرون بالاستياء أيضاً من شمس، ويقولون إنه رجل جاحد إزاء الذين أحسنوا إليه، وأنه مثل قطّة...».

فأكمل علاء جملته وهو يهز كتفيه وقال: «قطّة أصبحت رباً».

انطلقت اللعنات. فقد جعل هذا الكفر، تماهي شمس مع الله، جميع المتآمرين يتكلمون في وقت واحد. فلو انتشرت هذه العبارات في أرجاء قونية، لأخذ كل شخص على عاتقه أن يدين ويضرب ويرجم، بل حتى يقتل ذلك الرجل العجوز الذي اعتبر نفسه الخالق، بل الأسوأ من ذلك، الشخص الذي سمح لآخرين بتشبيهه بالرب.

صمت الرجال الآخرون. ففي حضور الابن المنبوذ، لم يجرؤ أحد على اتهام الرومي مباشرة، وللتخفيف من حدة اتهامه، قالوا إنه

تعرض لأسوأ أنواع السحر والخداع والإغواء من ذلك الرجل الذي أتى من تبريز، وأن عيب مولانا الوحيد هو توانيه وتساهله معه، وأنه كان عليه أن يدرك ما يحدث له، وأن عليهم أن يمنعوا أن يتحول سباته الطويل إلى ضعف، إلى نسيان، إلى غياب دائم.

«قطّة أصبحت الله!» جعل علاء هذه العبارة تشقّ طريقها وراء كلّ تلك الجباه التي تتفصّد عرقاً، قبل أن يطلق سهمه القاتل.

«لو كان بإمكان هذه البركة أن تنطق، لزادت من شدة غضبك على شمس ونقمتك منه. انظر إلى هذا الحمّام، إلى هذه القباب الصغيرة ونوافذها، إلى ألواح الزجاج تلك، إلى مقاعد الرخام هذه، والماء الذي نغتسل به، فقد شهدت كلها أسوأ الجرائم التي يمكن أن تربط رجلاً بآخر. فقد أتى شمس وأزلامه بأبي إلى هنا، ونزعوا عنه ثيابه وحثّوه على الرقص عارياً، والنزول إلى هذه البركة التي تغص بالرجال العراة، تتلامس أجسادهم التي تتحرّك تحت الماء على إيقاع الطبلة والناي. حتى العازفون كانوا عراة مثل ديدان الأرض، حتى من دون هذه المنشفة التي تسترنا».

فور سماع هذه الكلمات، خرج أحد المتآمرين وهو رجل دين متعصّب، من البركة لكي لا يلمس الماء الملوّث، ملاذ المداعبات المحرّمة، ثمّ تبعه الآخرون. نجح علاء في تحقيق ما كان يخطّط له منذ عدة شهور. وأخيراً، قرر المتآمرون تنفيذ الخطة. فانتقلوا إلى القسم الخارجي من الحمّام حيث الحرارة أقلّ شدّة. عند المدخل امتد رواق كسيت أرضيته بالسجاد وبحصر القشّ. تفحّص المدلّك المكان قبل أن يغلق الأبواب المفضية إلى الشارع.

كان القاضي البدين الذي وجد صعوبة كبيرة في انتعال حذائه الطويلة لأن بطنه الضخم حال دون انحنائه، أول المتحدثين، فقال:

«لنوجّه إلى شمس تهمة ارتكاب جريمة، اغتصاب مثلاً، حتى يمثل أمام القاضي».

أجاب التلميذ الشاب الحليق الرأس، وهو يحاول جمع طرف حزامه الذي اختفى في إحدى فتحات الحزام، بحركة تشي باللعنة، وقال: «لا جدوى من ذلك. لأن شمس لا يخشى العدالة أو سوء السمعة. يجب أن نكون أذكياء. قدموا له، ثمناً لمغادرته، بيتاً أو رجلاً أو امرأة، لاسيما رجلاً، في مكان خارج حدود مدينتنا، وأقسم لكم بأنّ هذا المحتال سيغادر المدينة».

قدّم بائع الكتب الذي كان يرتدي قميصاً أسود طويلاً حتى لا يهيّج البثور التي أحدثها النزيف، اقتراحاً آخر وقال: «أعرف أشخاصاً في معسكر المغول، ويمكنني أن أعطيهم مخطوطات مكتوبة باللغة العربية إزاء نسخ باللغتين الصينية والتبتية، وأشيع بأن شمس جاسوس، يتقاضى نقوداً من الأعداء وأن هذا هو السبب الوحيد لوجوده هنا، على الأرض التي فتحها ابن جنكيز، وأنه يجمع معلومات عسكرية لصالح الأعداء. كلّ ما هو مطلوب هو أن ندخل الشك في نفس أي جندي مغولي به حتى يفقد رأسه».

وجد تلميذ الرومي السابق هذا الحلّ متطرفاً، وهو يفرك جسمه بمادة طينية جمعت بعد موسم الأمطار من سهول ماهاراشترا بالهند، وتفتّق ذهنه عن خطة لا تخطر على بال.

«يمكننا أن نخطف شمس. نعصب عينيه وننقله إلى مدينة بعيدة. وبما أنه لا يملك نقوداً فلن يتمكن من مغادرة المكان الذي أخذه إليه، ولن يتمكن من العودة».

وجد الشيخ المتعصّب الذي عقد طرف عمامته بطريقة غريبة هذا الاقتراح اقتراحاً سخيفاً، وأجاب بنبرة لا تخلو من السخرية، «لو

أراد شمس فلن يعدم الوسيلة للعودة إلى الرومي. لا! يجب أن نؤلب أهل قونية عليه حتى لا يكون لديه خيار سوى الهرب من تلقاء نفسه، والاختفاء إلى الأبد، وإلا فسيحدث ما حدث بعد أن غادر أول مرة، وسيبحث عنه الرومي ويعيده مرة أخرى، حتى أنه قد يذهب إليه بنفسه ويأتي به منتصراً بكلّ الشرف الذي يليق بملك عند عودته من حملة ظافرة».

ظل علاء صامتاً. وكعادته، ارتدى ثيابه بسرعة، بعيداً عن أعين الآخرين لأنه يخجل من جسمه. وبدأ يشعر أن أعوانه قد نضجوا الآن. وأن الوقت قد حان لقتل شمس. فهو يرى الحلّ بوضوح. فتح فمه ليتكلّم، لكن صوته كان منخفضاً جداً، مما اضطر الآخرين إلى الانحناء إلى الأمام لسماع ما سيقوله.

«سنستخدم وسيطاً. سيستأجر هذا الرجل عصبة من المجرمين المعروفين بكتمانهم وعدم إفشائهم السرّ. وسيدفع لهم مبلغاً من المال وسيطلب منهم القضاء على هذا الشخص المزعج، شمس. متى وأين وكيف فهذا أمر يقررونه هم، لا نحن. لن يكون لنا أي دور في ذلك. لن يعرف أحد منا اليوم ولا المكان ولا الطريقة التي سيقضون بها عليه. لن يكون بوسع أحد منّا أن يوقف عجلة الموت. وما إن ينفذ هذا العمل حتى يختفي الوسيط. عندها سنظهر حزننا العميق على شمس ونبكي عليه ونندبه عند دفنه. لن يشكّ أحد فينا»، واختتم كلامه بطريقة تميّزه، وقال: «من الآن فصاعداً آمركم بأن تتوقفوا عن النهيق كالحمير لكي لا تحبطوا خططنا».

جريمة قتل! هذا ما اقترحه الابن العاق. فقد كانوا كلهم يريدون موت شمس، لكن من أجل ترجمة هذه الكلمات إلى حقيقة واقعة، فقد أثيرت عدة اعتراضات. كيف يمكنهم أن يضعوا ثقتهم في

شخص لا يعرفونه؟ وماذا لو قرّر أن يتزهم لكي يظلّ صامتاً؟ وبحركة من يده، كما ينشّ ذبابة، أزال علاء مخاوفهم.

«لقد اخترت للتو الرجل الذي سيقوم بهذه المهمة وهو لا يعرف أحداً منكم. إنه قاتل محترف. وهذ ليست المرة الأولى التي يمارس فيها القتل ولن تكون الأخيرة. وإذا فتح فمه، إذا ابتزّنا - مائة أير في مؤخرته - فستكون نهايته، وسيكون هو الوحيد الذي سيُحاكم ويُعاقب، ولن يتمكن أحد من إثبات شيء ضدنا لعدم وجود أدلة. ربما نكون موضع شكّ، لكن الشكّ مثل البخار في الحمّام، يتلاشى ما إن يتغير الماء. ابن العاهرة ذاك، مؤخرة الحمار ذاك، يعرف ذلك. إنه عمله. ولن يعرّض نفسه للخطر».

هزّ الجميع رؤوسهم. فمن يجرؤ على اتهام هؤلاء الرجال الشرفاء، كتبي ورجل دين وطالب مجتهد حليق الرأس وقاض بدين، أو حتى المدلّك، بأنهم تآمروا على اغتيال شمس التبريزي؟ وهكذا، مثل الماء في البركة، تلاشت كلماتهم واختفت من ذاكرتهم.

قبل أن يغادروا الحمّام، أصرّ علاء. سألهم سؤالاً أخيراً. هل وافقوا على خطته؟ أجاب صمتهم وتعابيرهم الصارمة عنهم. نعم، وافقوا.

كان الكتبي آخر من غادر. ألقى على ظهره حقيبة مليئة بالجلود المعدة لتغليف كتبه، وشكّلت قطرات الدم التي سالت من جرحه - بالرغم من حرص الحجّام - على الرخام الأبيض، إكليلاً رقيقاً من البقع الأرجوانية.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي من التقاء المتآمرين في الحمّام، سلّمني خادمي رسالة عليها ختم شمس. فتحتها على الفور،

وقرأت ما يلي: «قابلني بعد ظهر اليوم عند مدخل سوق مربي الطيور. أحضر شيئاً لتكتب عليه، لأني لست معتاداً على الكتابة».

رأيته واقفاً وسط حشد من السابلة والعمال. ناديته من بعيد، لكنّه لم يسمعني في وسط ضجيج وأصوات آلاف الطيور. سرت نحوه، وعندما اقتربت منه انحنيت أمامه وقبّلت يديه المتجمدتين، وأظافره المبقعة بالحبر والتوابل. كانت الدهشة ترتسم على وجهه وهو يركز على الأقفاص أكثر من تركيزه على الطيور. قال: «يعجبني الريش القزحي الذي يزيّن عصافير الدوري، ولون ريش تلك الببغاوات الصغيرة الذهبي، ولون تلك الببغاوات الأخضر والأصفر والأحمر. سددت أنفي من شدة رائحة زرقها القوية. كانت الضوضاء التي تحدثها تلك الطيور تصم الآذان بالإضافة إلى نداءات الحمالين وصراخهم وهم يجرّون عرباتهم، ويحذّرون الناس ويطلبون منهم الابتعاد وإفساح الطريق لهم، وتشتت انتباهي بين بجعة وطاووس، وحلّقت أفكاري إلى أول مؤتمر للطيور في قصيدة العطّار «منطق الطير» عندما قرَّرَت أن تنطلق بحثاً عن ملكها الحقيقي، وفكّرتُ أيضاً باسم شمس، الطير. هل إنه يتماهى مع أحد هذه الطيور؟ لا أحد يعرف، ربما باستثناء الرومي الذي كان سماؤه.

توقّف فجأة أمام دكان، وحيّا مُربّي طيور عجوز له لحية بيضاء كأنه صديق قديم، وطلب مني أن ألحق به إلى الحجرة الخلفية. مررنا بأقفاص بعضها مصنوع من الحديد وبعضها من الخيزران وأخرى من الزجاج. وقد صنع أحد الأقفاص من الذهب لخليفة بغداد. كان في تلك الأقفاص طيور نادرة، أصواتها رهيفة، وألوانها مميزة.

عندما اقترب المساء، بدأ هدوء غير متوقّع يحلّ شيئاً فشيئاً محل

الضوضاء، وببطء بدأت آلاف الطيور تهدأ وتصمت بعد أن غطيت أقفاصها بقطع من القماش لحثّها على النوم، الواحد تلو الآخر. وخيّم الصمت نفسه أيضاً على المحل الذي التقينا فيه. لقد بدأت الطيور تطير إلى مملكة الأحلام.

ما إن أنهى مضيفنا العجوز عمله حتى انضم إلينا حاملاً قنينة نبيذ أوكبارا، أشهر أنواع العنب الذي ينتجه جيراننا في الجنوب، وثلاثة أباريق صغيرة. كان يشاع أن هذا النبيذ أجود أنواع النبيذ في المشرق كله. بدأنا نشرب بدون ندم، فلم يمنعنا تحريمه من احتسائه. ومن المعروف أيضاً أن خليفة بغداد وقضاته ووزرائه كانوا يستسلمون لإغراء هذا الشراب أيضاً. وكنت أعرف، أنا حسام، أن بعض القضاة كانوا يقيمون، بعد أن يحكموا على مصير زوجة مسلوبة الإرادة، وجندي مغتصب، أو كاتب انُتحلت أعماله، حفلات شراب أسبوعية، ويخلعون ثيابهم الرسمية الصارمة ويستبدلونها بعباءات ملونة ثم يسيرون في أروقة المحكمة الواسعة، متنكرين ومتوّجين بالأزهار.

قال لي شمس: «أشعر بشيء يدور حولي مثل حيوان يقترب مني. أشعر بأنني مهدّد، مطارد. أبدو ثقيلاً وبعيداً عن نفسي، عن بهجتي. أشعر أنّ م بدأ يملّ الاضطرار إلى المكوث في البيت، لأنه لم يعد يخرج إلا نادراً، ولم يعد يخرج معي. لا بد أنه تعب من اضطراره إلى تبرير سلوكه لأفراد أسرته وللآخرين، ومن اقتصاره على وجود دائرة المريدين المخلصين الصغيرة، ورقص السماع على أنغام موسيقى مكتومة في كهوف مهجورة. أعرف أنه يفعل كلّ ذلك لإنقاذي. لكن لا يمكنه مواصلة ذلك، إني أشعر بذلك. إنه يريد أن يظهر علناً مع الشخص الذي يحبّه على الملأ، ويشاركه نشوة رقص

السماع، ويعانقه بعيدا عن كلّ خوف بمحبة. نعم، إنه يريد أن يغمض عينيه في الليل ولا يسمع إلا صوت تنفّس حبيبه بلا قلق ولا وجل من الخطوات التي تسير حوله، الخطوات التي تتجسّس، الخطوات التي تحوم حول المكان. حسام، لا يمكنه أن يفعل ذلك معي. أنا الرفيق الوحيد الموسوم بختم الخزي والضعة والدجل. ذات يوم عندما يبدأ بالرقص مع شخص آخر على الملأ، تذكّر نبوءتي هذه. حسام، لقد حسمتُ أمري، لكنّي لن أكشف لك عمّا عزمت على فعله. لقد طلبتُ منك أن تلقاني اليوم لتدوّن بعض المشاعر التي أكنّها لـ م.

أردتُ أن أحتجّ وأن أقنعه بأن مولاي لم يمّله، وأن لا أحد يعزّه ويقدّره غيره، لكنّي لم أجرؤ على قول ذلك. فمن أنا حتى أواسي شمس التبريزي؟

أفرغ إبريق نبيذه وتابع كلامه.

«حسام، لو كنتُ أعرف أن الأحداث ستأخذ هذا المنحى لما غادرت دمشق وأتيتُ. وعندما عدت إلى قونية، جئت إكراماً له فقط. لأن فراقي عن الرومي لم يسبب لي أي معاناة، ولم يجلب لي اتحاده أيّ سعادة أيضاً. إني أدين بسعادتي لطبيعتي، ومعاناتي أيضاً. عندما جاؤوا لإحضاري من دمشق، كنتُ ما كنته قبلاً. كان بإمكان الرومي أن يعيش بهدوء مع كيرا، ولم أشعر بأن سلطان ولد، ابنه، غريباً عني، بل اعتبره ابني أيضاً. لكن عليه أن يطلب من شقيقه أن يتصرّف بتواضع أكبر معي وأن لا يضحك أو يتكلّم كثيراً في حضوري. إن الرومي ينحني أمامي ويجلسني إلى جانبه، ويمتدحني دائماً، إلا عندما تأتيه رؤية. إن الرومي أمر مختلف. شيء مختلف. هذا ما أردت أن أقوله لك. احفظ ذلك جيداً».

كعادتي كتبت كلّ شيء، كلمة بكلمة، من دون أن أحاول ترتيب

أفكاره، من دون أن أحاول فهم ما كان يقوله أو لمن يوجّه كلامه، ثم أتت التوضيحات في ما بعد - عندما وردتني - في ضوء أحداث جديدة، معلومات أخرى.

رفع شمس محبرتي وراح يرمقها كأنها شيء يهدّده، لأن نقطة واحدة من الحبر، كما قال، قد تلطخ إصبعه لفترة طويلة من الزمن. رفعها إلى أنفه وشمّها، ثمّ وضعها بعناية على الأرض، وواصل كلامه.

«حتى اليوم، حتى لو طلبت من م أن يرسل ولديه بعيداً عن قونية لفعل ذلك».

شككت في ذلك. بالتأكيد، كان سلطان ولد متعلّقاً بشمس مثل أبيه، ومن أجل شمس قد يوافق على مغادرة قونية، والانتقال من مدينة إلى أخرى. أما علاء، الابن العاق الذي أقسم بأن يخمد أنفاس «رب أبيه»، فلن يفعل كذلك. أما ولدَي مولانا الآخرين، وهما ابن وابنة من زوجته كيرا، فكانا لا يزالان صغيرين، ولا علاقة لهما بالأمر. ولا يمكنني أن أتخيّل أنه سيكون لدى والدهما الذي أنهكته العزلة والمكائد وتوخيه الحذر الشديد والنفاق الذي كان يمارسه في أثناء وجود شمس، الجرأة والإرادة على طردهما من قونية. لا ريب في أنه في الأيام القليلة الأولى بعد ذلك اللقاء الذي لا ينسى - مضت سنتان على ذلك الآن - كان من الممكن أن يفعل ذلك لو طلب منه شمس، وهو أن ينفي أولاده الأربعة جميعاً. هذا ما كان سيفعله، أن يقدم ابنه البار وزوجته الشابة إلى «سارق قلبه».

ثم تابع شمس كلامه.

«إن م هو ضوء القمر. لا يمكن أن تبلغ العين شمس كياني لكن يمكنها أن تبلغ القمر. إن ألق ونور الشمس يمنعان العين من الرؤية،

ولا يمكن للقمر أن يبلغ الشمس، لكن بإمكان الشمس أن تبلغ القمر».

دوّنتُ هذه الكلمات مع أني أدركت أنه وضع نفسه في مرتبة أعلى من الرومي، كما أن الشمس فوق القمر. وعرفت أيضاً أن ليس في علاقتهما من هو أعلى وأدنى. ففي بعض الأحيان كان أحدهما الرب وفي أحيان أخرى هو الآخر، شيء لا يمكن تعريفه، لا يمكن تسميته.

خَفَتَ هديل الطيور. لكن زوجين من الهدهد، عشاق آخر الليل، واصلا هديلهما. وبينما كان شمس يضرب بقدمه اليمنى بالتناغم مع صوت غنائهما، غيّر الموضوع مرة أخرى، على الأقل من الناحية السطحية.

«في داخلي أحبُّ أشخاصاً كثيرين. في داخلي تقبع رقة كبيرة تجاههم لكنّي لا أظهرها لهم. مرّة أو مرّتين، كشفتُ لهم عنها في حديثي، لكنّهم لم يقدّروها. ومنذ ذلك الحين، بدأت أحرص على ألاّ تبرد الرقة في داخلي. لقد كشفتها لمولانا. ظلت تنمو ولم تتضاءل قط. حسام، يمكنني أن أسكت الحقيقة فقط».

بينما استمرت قدمه تدق على الأرض، كان جذعه ورأسه يهتزان على إيقاع رومانسية الهدهدين. لم يتوقف إلا عندما دخل فجأة ثلاثة متسولين إلى محل مربي الطيور وطلبوا قليلاً من الطعام.

«اذهب واحضر لهم شيئاً»، أمرني شمس، «وإذا أحضرت لهم شيئاً، فإن جزاءك على ذلك يساوي عشر حجّات إلى مكة المكرمة».

غادرت المحل. بدا لي السوق هاجعاً. لم يعد يوجد هرج ومرج، ولا صخب. كانت أبواب جميع المحلات مغلقة، ماعدا محل استطعت أن أرى من وراء الباب الشبك نصف المغلق أن أرى

مربي طيور يحصي نقوده الفضية، على ضوء مصباح. سمعتُ نباح الكلاب التي ترافق الحراس الذين يجوبون الأزقة. اقتربت هالة فوانيسهم. رحت أغذّ الخطا لتحاشيهم لأنني لم أكن أعرف كلمة السر المطلوبة من أي شخص يتواجد في السوق في هذه الساعة المتأخرة، وأردت كذلك أن أتفادى استجوابهم لي بأي ثمن. اجتزت بسرعة سوق بائعي الصابون وسوق العطارين التي فاحت منها روائح شتى أنواع البهارات. فعلى الرغم من أبواب المحلات المغلقة، كانت آلاف الروائح التي تهبّ من أصقاع أخرى من العالم تملء هواء الليل. ومع أنني كنت مستعجلاً، فقد رأيت السوق كأنه صندوق يضم كلّ روائح الأرض. خريطة من روائح عديدة.

عندما خرجت من تلك المتاهة، لم أجد صعوبة في العثور على باعة لحوم مشوية، وفطائر محشوة بالخضراوات، وفاكهة ملبّسة بالسكر، موزّعة في سلال من القصب تضيئها فوانيس على ظهر بغل تتدلى من رقبته لآلئ وأجراس صغيرة. اشتريت قليلاً من كباب الدجاج المحشو في معجنات، ثمّ طلبت كلمة السر من الحراس الذين منعوا الناس من دخول السوق. وهكذا تمكنت من العودة بسهولة إلى محل مربي الطيور.

كان شمس يرقص. رأيته يدور على أنغام طائري الهدهد الساهرين أمام أنظار المتسولين المندهشة، بأسنانهم المكسورة، وعيونهم الدامعة، وأجسامهم الممسوخة. ما إن رأوني، حتى خطفوا الكباب من يدي، وهمهموا بعبارات شكر مضطربة، وسرعان ما اختفوا في عتمة الليل لكي لا تجذب رائحة اللحم المشوي متسولين آخرين ويطالبونهم بحصتهم.

بعد أن غادروا، توقف شمس عن الرقص، وأمسكني، ووضع

جبهته على جبهتي، وهمس قائلاً: «بدأ الفراق ينضج ويتعقّد. سأسأل م ، وإذا قال اذهب، فإني سأذهب».

لامَسَت أنفاسه شفتي. كان يلهث قليلاً. تنفست تلك الكلمات المقنّعة التي تنبّأت بمغادرته. لم أعرف ماذا أقول. هل أقنعه بالبقاء والمجازفة بحياته، أو الأسوأ من ذلك، المجازفة بزيادة قلق مولانا الذي اضطُرَّ، بعد الكثير من الكتمان، والكثير من الحذر، إلى أن يعيش حالة توتر مستمر. أم أدعه يغادر من دون أن أحذّر أستاذي، وأجلب بذلك على نفسي، لا شكّ إلى الأبد، كراهية الرومي؟ لا. فأنا لا أتجاوز العشرين من العمر، ولست إلا تلميذاً بسيطاً، ولا يتيح لي ذلك الحقّ في التدخّل بعلاقة كهذه. بالإضافة إليهما، لا يستطيع أحد أن يتدخّل إلا الله.

خطا شمس بضع خطوات إلى الوراء، وقال: «إني أعهد إليك بمولانا. لا تدعه يزدرد شيئاً. لا تعامله بحدّة. أخفض رأسك في حضوره، ولتدرأ عنه الأخطار، توسل إليه أن يغيّر أسلوب تصرفه».

عمَّ يتحدّث؟ لم أفهم. هل كان يخشى أن ينتحر الرومي إذا تركه أو هجره؟

في تلك الليلة، في عتمة الحجرة الخلفية لدكان مربي الطيور، لم أكن سوى كاتب شمس، أدوّن بدقة، على ضوء شمعة، ما سأطلق عليه تنبؤاته. بدا لي مرهقاً، شديد القلق أيضاً. لقد فقدت عيناه بريقهما المعتاد. أغلقت دفتري واقترحت عليه أن يعود إلى بيت صلاح ويخلد إلى النوم. وافق. لكنه قبل أن يغادر، دعا مربي الطيور الذي كان يكيل البذور، وقبّله على جبينه.

عندما خرجنا من الدكان ورحنا نسير في أزقة السوق المظلمة،

سألت شمس عن مربي الطيور. من هو؟ هل يعرفه شمس منذ زمن طويل؟ هل هو عارف يكتم أسراراً لم تكشف بعد؟

عندما سمع هذه الأسئلة، استعاد شمس حيويته المعهودة، ولمعت عيناه ثانية في الظلام، ثمّ حكى لي القصّة التالية، التي نقشت كلماتها في ذاكرتي.

في مساء أحد الأيام، بينما كان شمس عائداً من السوق، التقى بمربي الطيور العجوز وهو عائد إلى البيت. كان يعلّق على كتفيه قفصين بعصا. وفي كلّ خطوة، كان القفصان يتأرجحان إلى الأعلى وإلى الأسفل. كان الرجل المتعب يسير ببطء، مطرق الرأس. في ذلك اليوم لم يبع سوى طيرين، وكان يحمل ثلاثة أو أربعة طيور بدا أنها كانت نائمة في ظلال الغروب.

قرّر شمس أن يسير إلى جانب الرجل، لمسافة قليلة على الأقل. سمع الرجل الآخر يقول بصوت منخفض، كما لو كان يكلّم طيوره، «لا، لا، لا يوجد شيء يمكن أن أتذمّر منه... لا، لا. لقد أخرجتكم وسأعيدكم... إني أعتني بكلّ شيء. في الصباح أطعمكم السكّر، وأحرص دوماً على أن يكون الماء الذي تشربونه عذباً. ألمّع مناقيركم، وأصقل ريشكم، وأنظّف أقفاصكم وأعطّرها، وأعيد صبغها كلّ سنة. لو يحملني أحد على كتفيه في قفص مثلكم! لو يقدم لي أحد شيئاً آكله وأشربه كلّ يوم».

ثمّ، خيّل إلى شمس بأنه سمع صوتاً ضعيفاً يردّ على مربي الطيور. اقترب منه أكثر وأنصت بدقة، وسمع أحد الطيور يكلّم الرجل العجوز بلغة يفهمها الرجلان. قال الطير: «هل تظن أننا في قفص، إنك مخطئ. اسمع: إن الحشرات الصغيرة هي سجينة في ريشي وهي لا تدرك ذلك. وأنت نفسك تعيش في قفص: بيتك

قفص، شارعك قفص، هذه المدينة كلها قفص... أين تظن ستنتهي قضبان قفصك؟ الأرض بأكملها، كوكبنا كله قفص. القمر قفص. الشمس قفص. الكون نفسه قفص، يتأرجح على كتفي اللامتناهي».

فأجاب مربي الطيور العجوز بتنهيدة مفعمة بالتعب. لم يكن شمس متيقناً من أنه سمع شيئاً. بعد قليل، عندما بدأت الظلال تملأ الشوارع، بدأ التاجر يشكو مرة أخرى، وأراد أن يعرف ما هو مصير الطير. عندها، تناهى صوت أوهى، صوت طير يكاد يكون نعساً. اقترب شمس من مربي الطيور الذي لم يره في الظلام، وسمع صوت الطير الثاني يقول بلغة تختلف عن لغة الطير الأول:

«انس كلّ ذلك، أغلق عقلك لأن الليل هنا. فما الطير الذي كلّمك إلا أنت، إنها فكرتك أنت: وأنت قفصها. أتظن أن هذا القفص موجود، إنك مخطئ. إن أفكارك مقفل عليها بقضبان متينة، وإنك تجد صعوبة كبيرة في فكّها لكنك لا تراها. عد إلى البيت، وضع ما تظن أنها أقفاصك على الأرض، وتوقّف عن التفكير، ثم تناول طعامك واخلد إلى النوم. وعندما تغفو، ستُفتح جميع أقفاص العالم وعندها يمكننا متابعة حديثنا. طابت ليلتك».

«طابت ليلتك» قال لي شمس وهو يدخل بيت صائغ الذهب.

بعد بضعة أيام، وبناء على طلب الرومي، حظي بعضنا بشرف مرافقته إلى المسجد الجامع الذي اشتُهر بجمال زخارفه وأسلوب بنائه. كنت أنا وشمس وسلطان ولد وصلاح الصائغ، كاتم أسرار الرومي. فقد أصرّ الرومي على أن نصلي الفجر في هذا الجامع. كان وجود شمس إلى جانبه في مكان يتردّد عليه المؤمنون من شتى الأماكن، من جنود وحرفيين ومتسولين وأرستقراطيين ورجال دين،

أمراً محفوفاً بالخطر. فلو شجب أحدهم شمس، فربما يُرجم شمس أو يُطعن بسكين أو تُجزّ حنجرته. كنت أخشى أن تنتهي رحلتنا في هواء هذا الصباح المنعش، نهاية سيئة. كان ذلك أشبه باحتفال يقام بعد أن ينطلق سراح سجين، أو مثل الاحتفال الذي يسبق أحياناً خلوة أو فراقاً.

ربما كانت هذه هي آخر مرة يظهران فيها معاً. لم أجرؤ على التفكير بهذه الاحتمالية. ماذا سيكون الرومي بدون شمس ؟ فإذا رحل شمس فلن يعود الرومي إلى إعطاء الدروس أو إلقاء الخطب، ولن يكون محاطاً بمريديه وأتباعه، ولن يواصل كتابة تفسير القرآن. بدون شمس هل سيرقص وحده؟ بدون شمس هل سيلقي بنفسه في بركة المدرسة وهو يضحك؟ بدون شمس هل سيخلع ثيابه عندما يغمره الوجد؟ بدون شمس هل سيظل يحبّ الله؟

مع أن الوقت كان مبكراً، امتلأت الباحة أمام المسجد بكتّاب العرائض الذين نصبوا أكشاكهم، وباللاعبين ذوي العيون الزرق والشوارب المتهدلة الذين يبتلعون السيوف، وبالحكواتية والحواة والمغنين الذين يجوبون الشوارع. انحنى بعضهم عندما اقترب مولانا، وتساءل الذين لا يعرفونه عن سبب كل هذا التبجيل والإكرام، مع أن لباسنا وهيئتنا لا تنم على أننا قضاة أو عسكر أو رجال دين.

قبل أن ندخل حرم المسجد، خلعنا أحذيتنا وصنادلنا ووضعناها على الرفوف المرقمة المخصصة لها، واصطف مئة إبريق بجانب باب الحمّام لكي يتطهّر المؤمنون ويتوضأوا بها. عندما اجتزنا البوابة الكبيرة المزيّن بابها المقنطر بمقرنصات عديدة، تناهى إليّ صوت موجّه إلى شمس يقول: «حرام على الكلاب دخول المسجد».

التفتُّ غاضباً لأضرب الرجل الذي تجرأ على إهانة شمس. كان الناس يتقدمون ببطء نحو صحن الجامع. توقّفتُ ورحتُ أتفحّصهم واحداً واحداً لعلي أعثر على الشخص الذي أهان شمس. عندما لم أفلح، حاولت أن أطمئن نفسي بالقول إنني الوحيد الذي سمع الإهانة.

من فوق المئذنة التي تشبه قمتها شكل الإبرة، بدأ المؤذّن الضرير - كان أعمى لكي لا ينظر إلى الأسفل ويرى النساء حاسرات الرأس في حدائق الحرملك - يؤذّن لصلاة الفجر. وما هي إلا لحظات حتى بزغت الشمس. كان يحدد وقت الصلاة أسطرلابٌ أو ساعةٌ مائية تشير إلى الساعة، ونصف الساعة، وربع الساعة، بإصدار نغمة موسيقة أثناء النهار، وبإضاءة نور في الليل.

بعد أن توضأنا، صلينا في الشابستان، وأمّنا الشيخ الذي وقف أمام المحراب المزيّن بفسيفساء وأخشاب ثمينة باتجاه مكة المكرمة. في أحد الأيام قال لي رجل صيني كان يحدّثني عن ديننا بأن المعابد البوذية أيضاً تحوي كوة بهذا الشكل. وحكى لي أيضاً رجل زرادشتي فارسي أنّ لديهم في معابد النار «أتاش كاديه»، شيء يشبه المحراب أيضاً. وقد أضفى نور يتسلل من جميع الجوانب في وقت واحد صفاء وهدوءاً على الشابستان. وبدت الأرض التي لامستها جباهنا عند سجودنا مثل سطح يعوم في الفضاء، مرآة.

بعد انتهاء الصلاة، عاد الإمام ورأى الرومي بين صفوف المصلين. اتجّه الإمام نحو مولانا وقبّل يده لكنه تجاهل شمس ولم يظهر له أدنى إشارة امتنان. لاحظ جميع الموجودين أن الإمام لم يُبْدِ أي احترام لشمس. ازدادت بشرة الرومي الشاحبة شحوباً لهذا التصرف. فابتعد بسرعة عن الإمام وأشار إلينا بأن نلحق به إلى غرفة

تفضي إلى أحد الأروقة المغطّاة، غرفة يأوي إليها الخطباء لنيل قسط من الراحة وأخذ قيلولة. ابتعدنا عن الشابستان، لكننا سمعنا الإمام يصعد الدرجات السبع إلى المنبر. كان الصوت المنبعث عن سيفه يشير إلى كلّ درجة يرتقيها.

ما إن دخلنا غرفة زُخرفت جدرانها بالقيشاني، حتى أسند الرومي رأسه إلى كتف شمس وطلب منه ألاّ يكترث بالأمر. أدخل شمس يده في عمامة الرومي وقبض على بضع شعرات من شعره المجعّد، ثم أخرجها وقال: «في هذا العالم، لا يهمني الناس، فلم آت من أجلهم. أما الذين يعبّدون لنا الطريق حقاً في هذا العالم، فهم الذين أشير إليهم، أضع إصبعي على عروقهم».

ترك رأس الرومي، ثم اتكأ على الوسائد الممددة على الأرض، وحكى لنا القصّة التالية:

«نذر أحدهم أن يحجّ إلى مكة المكرمة. وفي الصحراء، علقت قدمه ببعض شجيرات الأشواك وكُسرت. لم يعد بإمكانه اللحاق بالقافلة. بعد ساعات من المعاناة بالوحدة واليأس، رأى رجلاً يقترب منه، فراح يصيح: «أنقذني». وعلى الفور، أعاده الرجل إلى القافلة. فقال له الحاجّ: «باسم الله الواحد الأحد، قل لي من أنت وأنت تمتلك كل هذه القوّة». فتنحّى عابر السبيل جانباً، وقال خجلاً: «انس فضولك. فقد أنقذتك من الخطر لأنك كنت على وشك أن تنال مبتغاك»، فأجابه الرجل، «أقسم بالله لن أتركك حتى تفسّر لي ذلك»، فأجاب الرجل، «أنا الذي يقرأ الأطفال في كتبهم بأنه سيحمل لعنة الله معه إلى يوم الدين. أنا الشيطان».

واختتم شمس قصّته بهذه الكلمات: «أردتكم أن تعرفوا أن الرجل الذي يؤمن بالشيطان، يحقق الشيطان له أمنياته. أما الرجل

الذي يتّبع النبي من دون إيمان فإنه يضيع في المهانة كما سيضيع الإمام والشخص الذي تلّفظ بكلمات مشينة عند باب الجامع».

أمسك صلاح، صائغ الذهب، الذي بدأ مولانا يسميه «روح الصوفيين» مع أنه لم يكن أكثر من حرفي متواضع، ولم يكن يستطيع أن ينطق الكلمات نطقاً صحيحاً، بياقة معطفه بين إبهامه وسبابته وخلع عباءته، وطواها ثلاثاً، ووضعها على الأرض أمام شمس. فعل صلاح ذلك كما يفعل الرومي وشمس عندما يبلغان مرحلة الوجد أثناء رقص السماع، فيخلعان عباءتيهما ويلقيان بهما على الأرض، إشارة إلى الانعتاق والتحرر الروحي. لذلك خلع صلاح عباءته بالرغم من عدم وجود موسيقى أو غناء. بتلك الحركة أشار إلى أنه يكشف عن نفسه، وأنه أصبح «عاريا»، وأنه يترك الآخرين يرون ذنوبه.

ثمّ قبّل الأرض التي لمستها قدما شمس وطلب حمايته. فقال له شمس الذي كان لا يزال جالساً: «ذات يوم، سمعني طفل أتكلم. ومع أنه كان صغيراً، ابتعد عن والديه وتعلق بي. وكان يسند رأسه إلى ركبتي طوال اليوم، ولم يتمكن والداه من ثنيه عن ذلك. وكنت أسمعه أحياناً يقول:

في شارعك، يأتي الأحبة ويذهبون،
من عيونهم سيتدفّق الدم، ويذهبون،
وهناك آخرون، سيأتون كالريح، ويذهبون.

قلت له: «هل لك أن تعيد ما قلته للتو؟» فأجاب، «لا شيء».

صمت شمس. بدا مستغرقاً في ذكرى ذلك الطفل الذي ربما كان أحد القلائل، قبل الرومي، الذين فهموه. ثم سأله صلاح، «وماذا حلّ به؟»

فأجاب شمس، «مات وهو في الثامنة عشرة من عمره. لذلك لا أستطيع أن أكلّم إلاّ نفسي، أو شخصاً أرى فيه نفسي. هناك أشياء لا يمكنني أن أقولها. فهو لم يقل سوى الثلث».

قال الجملة الأخيرة وهو يحدّق في مولانا بعينيه الرائقتين. بدأ يتضح لنا أنّ هذا الثلث فقط هو الذي أظهره للرومي، الرجل الذي سمّاه «الغوّاص»، وأشار إلى نفسه باسم «التاجر»، وقال إنه وضع «لؤلؤة» بينهما.

وتابع قائلاً: «لا نزال غير قادرين على الكلام. هناك ختم على قلوبنا. هناك ختم على ألسنتنا. هناك ختم على آذاننا».

وبما أن الحجرة لم تكن مدفّأة، فقد أخذ شمس الذي يشعر بالبرد دائماً، عباءة صلاح، وفتحها وتكوّم في داخلها. لم يظهر من العباءة المحاكة من الصوف واللباد والقطن، إلا رأسه، وبرزت يده اليمنى التي ازرقّت من البرد، ولامس بسبابته حاجبي الرومي. عندما فعل شمس ذلك، اعترتنا جميعاً الدهشة، خاصة مولانا. ومع الوقت، بدأنا نعتاد على هذه الحركة الغريبة التي تشي بالرقة. لكن تلك الرقة كان من الممكن أن تظهر في طرق أكثر غرابة. فقد قرّب شمس وجهه من وجه الرومي ودغدغ أذنه. لم يبد مولانا أي حركة. ثم سمعت أن مولانا لم يكن يعرف كم كانت هذه الحركة تدخل السرور إلى نفس شمس.

واصلت السبابة النحيلة مداعبتها، ثمّ قال شمس للرومي: «في قلبك، لم أر نفسي كما رأيت نفسي من قبل. أدعو الله أن يجعلني لطيفاً على قلبك مرة أخرى. إني أتضرع إلى لله أن يتحقق ذلك وإني أدعو أصدقائي لأن يفعلوا ذلك! إني أصلّي لأنني لا أستطيع أن أنصحك».

كانت تلك أول مرة نرى فيها في شمس، هذه الشمس الساطعة، لهباً يوشك أن ينطفئ. فقد تعوّدنا على قدرته على الهيمنة على الرومي. ها هو الآن يظهر ضعفه، عيبه. إذاً، حتى شمس التبريزي يمكن أن يتأثر بفتور مشاعر حبيبه تجاهه.

منذ فترة من الزمن، كما ذكر شمس، كان الرومي يبحث عن انجذاب صوفي آخر غير رقص السماع، غير التحوّل الذي حدث له عند لقائهما الأول.

بعد حوالي عشرين سنة، عندما أصبحتُ مقرّباً من قلب مولانا وعزيزاً عليه، كان يذكر، دائما بعبارات مقنّعة، الفترة التي سبقت مغادرة شمس. فكان يقول لي إن تحوّله لم يكتمل، وأنه كان بحاجة إلى حدوث أمر جلل، مثل مجيء شمس، ليحرر فيه شيئاً لا يزال لا يدرك ما كنهه. وبعد حوالي عشرين سنة، عندما دوّنت، وهو يملي عليّ تلك القصائد الصوفية التي أصبحت «المثنوي»، أدركنا أنا وهو وجميع الهائمين في طريق العشق، ما كان يفتقده في نفسه، وهو: الشاعر. فقد تحوّل إلى شاعر بسبب حدث فريد ومقلق، وهو اختفاء شمس.

كنت أظن دوماً أن فتور مولانا تجاه شمس وملله من الاستمرار في إخفاء علاقتهما وعدم تلبية طلباته، كان سببه أن شمس لم يكن يريد إلا شيئاً واحداً فقط، وهو أن يعود الرومي الحبيب إلى ما كان عليه عند بدء لقائهما، لكن السبب يعزى إلى حاجة أعظم. فقد دفع الرومي علاقتهما إلى حدّ اللامبالاة، مع أنه كان لا يزال يحبّ شمس.

أثناء صلاة الصبح هذه، طلب شمس أن يتصرف مولانا بطريقة مختلفة. ربما كان يريده أن يوبّخ الإمام الفظّ، أو أن يقتل الرجل

الذي نعته بالكلب. ربما كان يريد أن يضع الرومي تعقله جانباً، وأن يجازف بإلحاق العار به.

لم يحدث شيء من ذلك. لقد حافظ مولانا على هدوئه. تصرّف كأنه لم يسمع الإهانة التي وجهها الغريب، أو أنه لم ير ازدراء الإمام. لم أستطع تفسير فتوره. لا بد أن هذا السؤال راود شمس أيضاً.

توقّف عن مداعبة حاجبي الرومي، وقال له، بأسلوبه المألوف، المفعم بتعابير غير معتادة، فاضطررنا إلى أن نركز انتباهنا: «لا يمكنني أن أطلب منك أن تغادر. لكن من واجبي، أن أطلب منك، لمصلحتك، أن تغادر. إن الفراق طاوٍ. أثناء الفراق، نسأل أنفسنا: لماذا لم أفعل الشيء القليل الذي طلبه مني الحبيب؟ التفكير بالفراق. في بعض الأحيان، كنت أسبب شقاقاً لأنني لم أتكلّم، وفي أحيان أخرى، كنت أتكلّم بإبهام وبغموض، وكنت أحافظ على طرفي فكرتي، مع أن الوضوح ضروري. ماذا سيكلّفني ذلك؟ من أجلك، سأقوم بخمسين رحلة. قمت برحلتي إلى هناك لأحلّ مشكلتك. وإلا ما الفرق، بالنسبة لي، بين روما وسوريا، بين مكة المكرمة واسطنبول؟ إن الفرق ناجم عن الفراق، الفراق الذي يُطبخ، الفراق الذي يتحقق. الآن، أمِنَ الأفضل أن يُطبخ ويتحقق في الاتحاد أم في الفراق؟ أين هو ذاك الذي يطبخ في الاتحاد ويفتح عينيه فيه؟ أين هو الذي يقف في الخارج ويسأل متى سيتمكن أخيراً من الدخول؟»

قال سلطان ولد إن أحداً لا يوافق على فكرة وقوع فراق جديد بين مولانا وشمس، ولو كان شمس قد قرّر حقاً أن يفارق الرومي، لفسّرنا هذا التصرف بأنه سرّه، لكن الحقيقة تكمن في رغبته في إيلام الرومي.

متلفعاً في ثوب صلاح، انحنى شمس أمام مولانا، وسحب يديه من محيط القماش الذي يغطيهما، وأمسك قدميه، وقال: «كيف يمكنني أن أفعل شيئاً ضد رغباتك؟ أنا الذي أخاف، عندما أقبّل قدميك، أن تزعجهما ملامسة جفني لهما».

وتحوّل صوته إلى همس، لا يكاد يكون مسموعاً وقال: «وجدتك وحيداً. أنا صديق من لا صديق له». وبحركة من مولانا، غادرنا الحجرة. كان آخر شيء أراه وأنا أغادر الحجرة هو صورة هذين الوحيدين يعانق أحدهما الآخر، ويصبحان واحداً.

مضى خريف الانفصال قدماً نحو البرد. وفي أحد الأيام، دعاني ذريانوس لمشاركته في مباراة. فقد كنت مثله أجد متعة في المشاركة في هذه المباريات. ولم يقلل عدد الساعات التي كنت أمضيها في المبارزة بالسيف والسباحة والجري من ولائي للرومي ولشمس. وفي أحيان كثيرة، كنت أتدرب، حتى داخل المدرسة، بأيد فارغة على اللعب بقضبان وعصي متخيّلة.

ربما بدا المشهد مضحكاً، لكنّه كان يتبع إيقاعاً معيّناً، كما يفعل الرياضيون وهم يؤدون مجموعة من الحركات الإيقاعية. وفي مرات عديدة، كان الرومي يتوقّف ويبدي إعجابه بعضلاتي وهي تنثني وتلتوي تحت ثقل متخيّل. وكان شمس يقدّر أيضاً قيمة الجسم البشري، الذي يهدف، أثناء رقصة السماع، إلى ربط السماء بالأرض، دون أن ينال منه الوهن أبداً.

مصارعان شابان في سروالين قصيرين بجسدين عاريين مليئين بالأوشام، يتصارعان في ساحة مغطّاة أمام جمهور صاخب غير منضبط. وقد شارك في تحكيم المباراة مصارعون سابقون، عراة مثل المتنافسين، لا تزال صدورهم المرهقة تظهر آثار أوشام قديمة كان

يفترض أنها تمثّل وجه رستم، البطل الأسطوري، وقد اختفى شاربه الكث بين طيّات بطونهم.

كان المصارعون قد جاؤوا من بلدان شتى، فمن بينهم مغول وإيغور وتبتيون وإيرانيون وأتراك ويونانيون. وكانوا يكسبون جيداً. وحسب القواعد المتبعة، كان يتعين عليهم المحافظة على عفتهم للحفاظ على قوّتهم، لكن قلة قليلة منهم كانوا يلتزمون بذلك. وكان معظمهم يفضلون طرائق أخرى من التواصل الجسدي، مع أفراد من جنسهم، تنساب خلال ذلك عضلاتهم المتصلّبة في أحدهم الآخر، وتشكّل عقداً مثل أوتار حجرية فوق نتوء صخري.

خلال المباراة، بينما كان كلّ مصارع يحاول جاهداً تثبيت كتفي خصمه على الأرض لكي يفوز، حدّثتُ ذريانوس عن القلق الذي يساورنا من التهديد الذي يتعرض له شمس. كنا نتفرج على المبارة مشوشين. كانت المباراة بين المصارع التبتي والمصارع الإيغوري. كان صديقي قد راهن بمبلغ صغير على فوز أحد المصارعين. لم أكد أركز على المتصارعين حتى أخبرني اليوناني بأمر يساورنا الشك فيه منذ فترة وهو نية شمس القويّة في المغادرة. وأعاد ذريانوس على أسماعي بدقة الكلمات التي قالها له الطير: «إنهم يبذلون كلّ ما بوسعهم ليبعدوني عنه. سيكونون في غاية السعادة لو ذهبت. لكني هذه المرة، سأغادر ولن يعثر عليّ أحد، ولن يكون بوسع أحد أن يعرف عني شيئاً. وستمضي السنوات وسيختفي أي أثر لي، وسيقولون إن أحد الذين يكنّون لي العداء قد قتلني».

هززت رأسي وقد اجتاحني حزن عميق. لم يعد للمباراة وجود بالنسبة لي. كنت أحاول أن أقدم لذريانوس تحليلي للأمر المؤلم الذي قد يقع في وقت وشيك. كانت رغبة شمس في المغادرة تخفي

شيئاً من الاستياء. فقد أحسّ أن الرومي في انتقاده يطلب شيئاً يتجاوز علاقة أخذت تتعقد وتتشابك، يوماً بعد يوم، بالخداع والنفاق والتمويه. ورأى شمس الذي كان يتمنى المزيد من الحبّ الذي لم يتحقق قط، والذي كان يواجه أيضاً تهديداً بالتآمر على حياته، أن الفراق الوشيك أمر مؤكد. كنت أعرفه جيداً حتى أؤكد أن سبب تأخير موعد رحيله هو لكي لا يعرّض حبيبه، على الأقل لفترة قليلة، إلى مزيد من المعاناة إذا انفصل عمن يحبّه إلى الأبد.

أطلق صديقي اليوناني صرخة تشجيع، فقد لامس كتفا بطله الذي طلى جسمه بالزيت، الأرض، لكن المصارع الإيغوري قوّس ظهره، وتمكّن من مقاومة المصارع التبتي. وبجهد مصحوب بأنين، تمكّن من رفع ظهره.

أطلق ذريانوس تنهّيدة ارتياح، وقال لي إنه وجد تعليقاتي ملائمة تماماً. وقال إنه يرى أن شمس لم يعد الرجل الذي كان، الرجل الذي كان يتبجّح بالقول إنه حطّم الرومي، لأنه، كما كان يقول، فإن البناء يكمن في التدمير. فبعد لقائهما، لاحظنا جميعاً تحوّل مولانا، لكن أحداً لم يتحدث عن الحبّ الذي تدفّق في عروق شمس، وكان شمس هو من أصرّ على أن يدعوه الرومي «الحبيب بلا ضمان» و«مصباح المهرّب» و«مهيّج النوم،» و«فيض حصاد الدراويش» و«ملك باب الخزّافين» و«حلقة المفاتيح». وبينما طلب شمس الانفتاح على أيامهما الأولى، بدأ الرومي يزداد تحفظاً. وقد أدت هذه الحالة من عدم الاستقرار، كما كان شمس والرومي يعرفان، إلى نشوء حالة جديدة، حالة فقدان، فاقة، عيون لم تعد تستطيع أن ترى الحبيب، وأغمضت لاستعادة ذاكرته.

هذه المرة، تمكّن المصارع الإيغوري من اعتلاء خصمه. لا

أعرف السبب، لكني في تلك اللحظة بالذات، تذكّرت حكاية حكاها لي شمس. أردت أن أحكيها لذريانوس، لكنّي لم أكن على يقين من أنه سيبدي اهتماماً. بالإضافة إل ذلك، هل بإمكانه أن يسمعني في وسط هدير المشجعين؟

«ذات يوم، رأى السلطان محمود طائر الحوم الأسطوري الذي يجلب ظلّه السعادة. وعلى الفور أمر جيشه بأن يصطف تحت الطير. نفّذ الجميع ما أمر به، إلا خادمه الأثير أياز. وعندما عرف السلطان أن خادمه لم يكن واقفاً تحت ظلّ الطير، ذهب السلطان بنفسه يبحث عنه، ووجده أخيراً متكوّراً تحت حصانه. «لماذا لست واقفاً تحت ظلّ طائر الحوم؟» سأله السلطان، فأجاب الخادم، «أنت طيري الأسطوري! إنّ الظلّ الذي أبحث عنه هو ظلك. فلماذا تصرّ على أن أتركك وأبحث عن ظل آخر؟»

بالطبع، أشرت، والتفت إلى ذريانوس الذي كان متحمساً الآن في مشاهدة المباراة، إلى أن شمس، عندما حكى لي هذه القصة الخرافية، لم يكن يوجّه كلامه إليّ، بل إلى الرومي. فالظلّ الذي كان يبحث عنه، والذي وجده، هو ظل مولانا. قد لا يكون طير سعادته شيئاً سوى الواحد الذي يشير إليه باسم م.

أبدى ذريانوس اهتمامه بقصّتي وتعليقي وكان لا يزال مركّزاً على الحلبة التي تجري فيها المباراة، وقال لي: «إن الخلاف بين الحبيبين ناشيء من الواقع بأنّ الإنجاز قد تحقق بالنسبة لشمس لكنه لم يتحقق بالنسبة لمولانا. ومن أجل اكتمال هذا العشق، كان عليهما أن يفترقا. إنهما يعرفان ذلك، وبعضنا يعرفه أيضاً. أنت أيضاً، يا حسام - لا تحاول إخفاء ما تعرفه - إنك تعرف ذلك. لكن هل يمكنهما، هما المسكونين بانجذاب أحدهما إلى الآخر أن يحققا هذا الفراق؟

من سيفكّ هذه اللحمة، من سيرسم الحدود، وسيقيم الجدار؟ أيّهما؟ من؟»

ثمّ بدأ صديقي يقفز في مقعده، رافعاً ذراعيه، مضيفاً صوته إلى صوت مشجعي المصارع الإيغوري. فقد تمكن مصارعه المفضّل من تثبيت كتفي المصارع التبتي على الأرض. سيحصل صديقي على مبلغ زهيد لأنه كسب الرهان. كان المصارع التيبتي لا يزال مستلقياً على الأرض. قبّل المصارعان الرابح والخاسر جبهة أحدهما الآخر وغادرا الحلبة. نهض الحكم. انفتحت طيات معدته لتكشف عن وشم رستم أعمى وقد مُحِي بؤبؤ عينيه مع مرور الزمن. ولكي يحصل على المبلغ الذي ربحه، شقّ ذريانوس طريقه عبر الحشد الذي بدأ يتفرق. فكّرت بشمس وبمولانا. من منهما سيثبّت كتفي الآخر على الأرض؟ هل يجب أن يكون رابحٌ وخاسرٌ؟

في اليوم التالي، أشاعت شمس الظهر الدفء في هذا اليوم الخريفي، خريف الفراق. رافقتُ شمس إلى منتزه تتناثر فيه برك وينابيع اصطناعية. بعد أن خلعنا حذاءينا، دخلنا سرادقاً تظلّله أشجار الحور يُقدَّم فيه الطعام. كان هناك عدّة زبائن. جلس شمس على مقعد تكسوه حصر. طلبنا لحم جدي مشوي وقليلاً من النبيذ. أخذ شمس بضع رشفات وقال إن نوعيته ليست جيدة، وكالعادة أكل بدون شهية. أما أنا فقد أعجبني النبيذ، لكن عندما قال شمس إن نوعيته ليست جيدة، قلت في نفسي إنه ليس جيداً أيضاً. كان يكفي أن يقدم شمس رأيه بطعام أو شراب أو قصيدة أو كتاب حتى أتبنّى من فوري رأيه بالرغم من مقاومتي الداخلية. وإذا صادف ولم أتفق معه، فإني أظل مقتنعاً بأنه محقّ باستمرار وفي النهاية أوافق على ما يقوله. كنت أُهزم حتى قبل أن أبدأ.

قال شمس: «عندما رآني، فوجئ شيخ، وأطرق آخر، وسجد رابع ولم ينهض، وتدحرج خامس على الأرض. وضرب سادس رأسه بحذائه حتى سال الدم من جبهته».

دخلت فرقة من الراقصين الغجر، أو «القولي». هؤلاء الراقصون، بعيونهم البراقة الداكنة، كانوا قد جاؤوا إلى أرضنا هذه منذ قرون عديدة من الهند، يقال من لاهور، وهم لا يزالون يعُاملون معاملة الغرباء هنا، مثل شمس، ويتحدثون لغة غير معروفة. لكن الخيول تطيعهم.

ما إن دخلوا حتى بدأت الفتيات يرقصن على أنغام لحن شعبي. لدهشتي، سمعت شمس يدندن كلمات تلك الأغنية المعروفة. كيف يمكن لشمس الذي كان يملّ أحياناً الاستماع إلى القرآن أن يعرف هذه الأغاني؟ سألت نفسي هذا السؤال وأسئلة عديدة أخرى، لكني لم أجد ردّاً شافياً، مع أنني فهمت أنّ افتناني يتغذّى على هذه الحيرة. كنت أحبّ المفاجأة. وخلال جولاتي مع شمس ومرافقته إلى الخانات والحانات أو إلى الأماكن العامة الأخرى، طلب مني مرات عديدة أن أعطي العازفين المتجوّلين بعض النقود، لا لمكافأتهم على عزفهم بل ليتوقفوا عن العزف. وعندما لم يكن يتمكن من إيقافهم، كان يسدّ أذنيه أمام العازفين المذهولين. وكان يعتريني في تلك اللحظات حرج عميق، وأحاول أن أقابل نظراتهم المتسائلة وأن أسترضيهم بابتسامة متكلفة.

لكنه في ذلك اليوم أحبّ أغاني غجر القولي، وشاركهم في دندنة أغانيهم. وبما أنه لم يكن يتحمّل أدنى هبّة هواء، فقد طلب بطانية تلفّع فيها وتابع مشاهدة الرقص.

عندما أنهى الغجر أغانيهم، بدأ مطرب يغني، ثم بدأ حكواتي

يحكي حكايات. وكان باستطاعة هذا الحكواتي أن يتلاعب بصوته وكان بإمكانه تقليد شخصيات مختلفة. وكان من بين القصص التي حكاها قصّة أميرة ضاجعت عبداً التقطته من ناصية أحد الشوارع الفقيرة في المدينة، ثمّ حمّمته وعطّرته وجعلته يتناول مخدراً ثم قادته إلى الأريكة الملكية بصحبة ثلة من الجواري. وقلّد طراوة الأميرة وسوقيّة ودهشة فلاح كان يخيّل إليه أنه يعيش حلماً. ولم يتردّد الحكواتي في استخدام تعابير بذيئة كنت أعرف أنها تدخل السرور إلى نفس شمس الذي يعارض بشدة المجاملات والأعراف السائدة والتهذيب البسيط، والتعاليم الصارمة للمبادىء الأخلاقية الشائعة.

سعيداً بالاستماع إلى تلك التفاصيل السوقية تماماً عن المضاجعة التي جرتِ بين العبد والأميرة، راح شمس يشرب بنهم. هل نسي أحكامه المشددة واحتقاره للخمر؟

عندما كان الحكواتي يقلّد مضاجعة الأميرة في أوضاع مختلفة، بكثير من التفاصيل بدءاً من اللون الداكن لقضيب العبد، واللون الوردي للفرج الملكي، إلى الدور النشيط للجواري، والموسيقى الخفيفة، والتنهدات والأنفاس الثقيلة، ظهر شخصان في السرادق شككت في أنهما ينتميان إلى عصابة علاء.

توقّف قلبي عن الخفقان للحظات. وفي ومضة عين رأيت شمس ميتاً. في عقلي رأيته هناك، في تلك اللحظة، وسكاكين أعدائه تخترق جسده، ودمه يسيل ويمتزج بالجدول الذي يتدفّق أسفل الأشجار. رأيت نفسي أمدّد جثمان الشخص المبارك، حبيب مولانا، مثخناً بجروح عميقة، ثم أقبّل أصابعه النحيلة المبقعة بالحبر أو باللون الأخضر من تقشير الجوز الطازج. سمعت صيحات الناس يطلبون النجدة. منعت صاحب الحانة الذي أراد أن يوقف النزف بكي جروح

شمس بسيخ معدني متوهّج، نفس السيخ الذي يستخدمه لشي الكباب. سمعت حفيف تنورات فتيات القولي وهن يجرين إلى الخارج، لكي لا يتّهمن بارتكاب جريمة القتل. وفي عيني الحكواتي، شاهدت دموع الأميرة واضطراب العبد.

اقترب أحد القتلة المفترضين من شمس. نهضت لأتدخّل، لكن القاتل الآخر أشار إليه بإصبعه وقال للزبائن بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، إن الكفر يُرتكب أمام عيونكم وأنتم لا تفعلون شيئاً. انظروا إلى هذا الرجل الذي كتب اسم الله في قبعته، وهو يشرب الشراب الذي حرّمه الله بدون ذرة ندم».

وضع شمس الذي كان لا يزال متلفعاً ببطانيته، كوب الفخار المليء بالنبيذ على الأرض، وقال بلا مبالاة: «إن تحليل شرب الخمرة أو تحريمها هو بحسب الشخص الذي يشربها. فلو دلقنا قربة مليئة بالنبيذ في البحر، فلن يغير النبيذ البحر، ولن يعكّره، ويُسمح باستعمال ذلك الماء في الغسيل والشرب؛ لكن يمكن أن تلوث قطرة واحدة من الخمر بركة ماء صغيرة. وبعبارة أدق: لو كنت أنا من يشرب هذه الخمرة، فأنا هو البحر، أما شخص مثلك، يا أخا العاهرة، فحتى خبز الشعير، يصبح محرّماً عليه».

اقترب الرجل الثاني من شمس ليضربه. استويت واقفاً. من بنية جسدي القوية ونظرتي المحدقة المهدّدة فيه، تراجع إلى الوراء. لحقته حتى الباب كما لو كنت أطارد حيواناً مفترساً.

ارتبك رفيقه الذي أثار الجلبة واعتراه شيء من الخوف. بدا أقلّ خطراً من الآخر. تسلّيت بتخيّل هذا المتعصب المتمسك بقواعد القرآن بحذافيرها وهو يتساءل هل صحيح أن خبز الشعير الذي يحمله محرّم. وبعد أن رأى اسم النبي واسم الله منقوشين على عمامة

شمس، ربما تيقن أنه مؤمن محترم، جدير بتقليده؟ لم أكن بعيداً عن الحقيقة، لأنه سأل شمس أخيراً، بشيء من الخجل، «ماذا يجب أن نفعل كي نبقى في حدود الشريعة؟» متلفعاً داخل بطانيته، كانت عمامته المكتوب عليها اسم الله ووجهه النحيل لا تكادان تظهران من فتحة الصوف. أجاب شمس، «إن كنت تجنبت حتى الآن كلّ ما حرّمه الله، فيجب عليك من الآن فصاعداً أن تتجنب ما حلله الله. ولكلّ إنسان خطاياه وآثامه: فالإثم بالنسبة للبعض هو الزنا والخداع، وبالنسبة للبعض الآخر غياب الوجود الإلهي، ويرى البعض أن جلباب الزنا مبتدع، ويرى آخرون أن الجلباب المبتدع هو العادات والأعراف».

استطاع شمس أن يوقظ وميضاً في الرجل الذي أهانه. ابتعد الرجل الذي بدا مستغرقاً في التفكير وابتعد مع رفيقه الذي ظل واقفاً وراء الباب. سددت لصاحب الحانة ثمن ما شربناه، ونفحته إكرامية كبيرة للراقصين وللحكواتي. لقد نجونا بأعجوبة من الخطر. أشرت إلى شمس بأن الوقت قد حان لنغادر. آن الأوان حتى يعود إلى مخبئه، ليختفي عن العيون الفضولية، إلى خلوته، حتى من دون الرومي.

على مضض رفع بطانيته ونهض واقفاً وتبعني إلى الباب، وعن طريق الخطأ انتعل حذاء زبون آخر. ففي أحيان كثيرة كان الأمر يلتبس على شمس ويأخذ أغراض غيره بدلاً من أغراضه هو. وعندما أحسّ أن الحذاء ليس مريحاً، خلعه وراح يفتّش بين الأحذية. أخيراً وجد حذاءه، الحذاء الطويل المبطن بالفراء، وانتعله. أصبح بإمكاننا الآن مغادرة السرادق: كنت في عجلة من أمري حتى نعود؛ فقد تعرضنا للتو للخطر، ولا أريد أن أتعرض لمجازفة ثانية. لكن أحد

الزبائن الذي رأى شمس يرتدي حذاءه، أطلق ملاحظة مهينة. لبث شمس واقفاً لا يتحرك، وأطلق تنهّيدة بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، «دع أحداً يخلع هذا الثوب حتى لو كان لي».

ولتفادي لقاءات أخرى غير متوقّعة، شجّعته على أن نسرع في العودة إلى البيت، لكنه قاوم، وتلكّأ في السير، وقال لي أخيراً: «لا تستطيع يدي أن تفعل شيئاً. لا يستطيع قلبي المسكين أن يحطّ في أي مكان. لا يستطيع هذا الطير أن يتغذى على أيّ نوع من البذور».

وجدنا نفسينا على شاطئ بحيرة تعجّ بقوارب مليئة بالناس. جاءتني رؤية: انقلب أحد المراكب. كان على متن القارب الحكواتي وجميع شخصياته، وانضمت إليهم الأميرة والعبد، حتى بعد أن غرقوا.

كنت نيئاً، فطُهيتُ، وتفحمّتُ

دخلت إلى بيت مولانا وسمعت جلبة غير معتادة. كان الخدم في حالة اضطراب شديد وهم يستعدّون لمرافقة النساء من الحرملك إلى حديقة ميرام، وكان آخرون يجرّون البغال التي ستركبها النساء إلى الباب الرئيسي. وكانت النساء، اللاتي كن لا يزلن في غرفهن، يتهامسن ويعترضن على الخروج بعجلة. فلم تكن أي منهن مستعدة بعد للخروج قبل أن تهيئ نفسها جيداً لأنها ستظهر أمام قونية كلها، في حديقة ميرام الرائعة التي يلتقي فيها العزاب المأهلون للزواج في المدينة.

كان مولانا واقفاً في غرفته وعلى وجهه علائم الانزعاج. تقدّمت بحذر، خلعت حذائي قبل أن أدخل إلى الحجرة، وحيّيت الرومي بوقار ويداي مشبوكتان على صدري، وأصابع يدي اليمنى تلامس كتفي اليسرى، وأصابع يدي اليسرى تلامس كتفي اليمنى، ووضعت الإصبع الكبير لقدمي اليمنى فوق الإصبع الكبير لقدمي اليسرى، وانحنيت إلى الأمام دلالة على الاحترام والتوقير. إن وضعية القدم تعكس الولاء الشديد الذي أبداه ذات يوم أحد الطهاة للرومي. ففي أحد الأيام، خرج الرومي إلى أطراف قونية، وقيل إنه عندما رأى الطاهي نار موقده انطفأت، أشعل قدمه لكي يكون الطعام

الذي يعدّه لضيوف الرومي جاهزاً في الوقت المناسب. وعندما رأى أن إبهام قدمه اليسرى هي التي تفحّمت فقط، فسّر الطاهي أن ذلك ناجم عن عدم إيمانه التام. شعر أن عليه أن يترك قدمه كلها تحترق بالرغم من الألم. عندما ظهر الرومي أمامه، خبأ الطاهي التعيس «إبهام قدمه المخزي» تحت قدمه اليمنى. أشار مولانا الذي لاحظ كلّ ذلك إلى الطاهي وقال له إنه واحد من المؤمنين الحقيقيين القلائل على وجه الأرض، وقال إن وضع إبهام القدم فوق إبهام القدم الأخرى، سيصبح من الآن فصاعداً، الإشارة التي تدل على الاحترام والإيمان ونقاء التفاني والإخلاص بين أتباعه.

ردّ مولانا على تحيتي بأن وضع يده اليسرى على صدره، داخل ثوبه، ووضع يده اليمنى فوقها، خارج الثوب. اقتربتُ منه وقبّلتُ يده التي خارج الثوب. وبالمقابل، وضع شفتيه على عمامتي. إن هذه الطقوس الجديدة التي بدأنا نمارسها في داخل دائرتنا الصغيرة، ترمز إلى الهروب من هذا العالم، والدخول إلى العالم الآخر، من خلال رقصة السماع. إذ تجسّد العمامة مثلاً شاهدة القبر، أما الرداء الأبيض الذي يرتديه راقصو السماع، فهو يجسّد الكفن الإسلامي؛ ويدلّ خلع العباءة على نبذ الروابط المادية، أما الدوران فيمثّل الطيران باتجاه الحقيقة. وتكشف راحة اليد اليمنى المنبسطة باتجاه السماء عن الاستعداد لدخول الجنة، ويعني انبساط راحة اليد اليسرى المتجهة نحو الأرض إرسال تلك الفوائد إلى أمّنا الأرض.

عندما فرغنا من تبادل التحيات، قال لي الرومي يبدو أن شمس غاضب لأنه تجادل مع كيميا التي غادرت البيت وذهبت إلى حديقة ميرام. «لذلك أمرتُ النساء بأن يذهبن ويعدن كيميا بأسرع ما يمكن، لكنّهن يتلكأن. بل إنهن لم يغادرن حتى الآن. اذهب واطمئن على

حال شمس، الشمس. أخشى أن يؤثر غضبه تأثيراً سيئاً على صحته».

غادرت الحجرة. عندما وصلت إلى غرفة شمس، سمعت كيميا تضحك، ثم سمعت صوت زوجها كذلك. بحذر شديد ألقيت نظرة إلى الداخل من ثقب المفتاح. رأيتهما يتعانقان. جريت لأطمئن مولانا، وقلت له: «لقد عادت كيميا، ومن المؤكد أن شمس ليس غاضباً. إنهما يستمتعان بوقتهما وهما يضحكان».

لم يفهم الرومي كيف يمكن أن تعود كيميا والنساء لم يغادرن البيت بعد. لا يمكن أن تكون هي. طلب مني أن أصف ثيابها. من القدر الضئيل الذي رأيته، كانت ترتدي تنورة زرقاء، وسترة خضراء بردنين طويلين. أقرّ الرومي بأن هذا ما كانت ترتديه كيميا عندما أسدلت حجابها قبل أن تخرج بسرعة. مضطرباً، نهض واقفاً، وتوجّهنا إلى غرفة شمس حيث شاهد مولانا، مرة أخرى، عبر ثقب المفتاح، أنهما يتعانقان. فقفز إلى الخلف، لكنه سمع صوت شمس يدعوه إلى دخول الحجرة، فدخل مولانا.

لم يخبرني بما حدث بعد ذلك إلا بعد سنوات، بعد مغادرة شمس بفترة طويلة. فقد كان الرومي يكلّم صوفيين آخرين يسألونه عن تجليات الله المختلفة.

«في ذلك اليوم، عندما دخلت غرفة شمس، كان وحيداً في الحجرة. لم أتمالك نفسي عن سؤاله عن ظهور كيميا واختفائها الغامض، فقال لي: «إن الله القدير يحبّني إلى درجة أنه يأتيني في أشدّ ما أحبّه من أشكال. فقد كشف لي نفسه الآن في صورة كيميا». واستشهد مولانا بمثال آخر، وهي قصّة البسطامي، الرجل الذي يشبه شمس إلى حد بعيد، والذي رأى الله مجسّداً في رجل مخنث.

وعندما أدرك أن الصوفيين الذين اعتادوا جميعاً على فهم كلماته، لم يفهموه، اضطر الرومي إلى التعليق أكثر على هذا الموضوع.

«في حالة البسطامي، هناك احتمالان. فإمّا أنه رأى الله في صورة رجل مخنث أو أن الله قدّم له نفسه في الصورة التي يفضّلها هو نفسه، أي في صورة رجل مخنث». إن هذا الله الذي ظهر في صورة شابّة جميلة، وأحياناً في صورة رجل مخنث، هو إله مولانا الذي يتحدث عنه.

إلا أنه خلال خريف الفراق ذاك، ظلت كيميا الجميلة تعكّر صفو حياة شمس اليومية. ولم أعرف أنا ولا ذريانوس ولا حتى سلطان ولد طبيعة علاقة شمس مع زوجته، فقد كان يدّعي بأنه لا يحبّها، لكنه كان يبدو أنه يجد متعة في حضورها. وإذا، صادف أن تركته لسبب ما، لفترة من الزمن، كنت تسمع صراخ شمس في جنبات البيت. وقد علمت من سلطان ولد الذي جمع معلوماته من زوجة أبيه كيرا كاتمة أسرار كيميا أنها تحبّ زوجها كثيراً، لكن شمس كان قد أعلن جهاراً بأنه لا يهتم بالأمور العاطفية. هل يجب أن نؤمن بأنه لم يكن لنوبات غضبه هدف آخر؟ وكان قد أكّد لي ذلك، وطلب أن أدوّن ما يلي: «اكتب أنّني أنا، شمس التبريزي، أسبّب المعاناة والألم لكل من يحبني».

قال لي ذلك بعد بضعة أيام من حدوث القصة التي زعم البعض أن كيميا ذهبت إلى حديقة ميرام فغضب شمس كثيراً لأنها لم تستأذنه في ذلك.

كان الطقس في ذلك اليوم شديد البرودة. كان شمس يقبع بجانب الموقد عندما دخلت كيميا إلى غرفتهما فهبّت ريح باردة. حيّت زوجها من دون أن تدرك أن ذلك قد أثار غضبه. خلعت

حذاءها وأزالت الطين العالق به عند حافة الباب، وارتدت جوربين، واحد فوق الآخر، لكي لا تصاب بالبرد، وتوجهت لتجلس إلى جانب شمس.

ظل شمس يحدّق فيها منذ أن دخلت الحجرة. وبغتة بدأ يصرخ ويشتم. أدارت رأسها نحوه. كانت مندهشة بقدر ما كانت مذعورة. ألم حادّ اخترق رقبتها وجعلها تتجمد. لم يعد بمقدورها تحريك رأسها أو ذراعيها. وفي الحال توجهت إلى الكورسي، الطاولة المنخفضة التي يقبع تحتها موقد، لتستلقي وانتظرت حتى يهدأ شمس فتطمئنه وتفسر له سبب غيابها.

غادر شمس الذي ندم على ما بدر منه، غرفة نومهما وتوجّه إلى الحجرة التي يلجأ إليها غالباً للتأمّل برفقة الرومي. عند فجر اليوم التالي، وجد كيميا ممددة على الأرض. كانت منهكة من الألم، مشلولة، حتى أنها لم يكن بإمكانها أن تروي عطشها. كان فمها فاغراً، وعيناها مغمضتين، ووجهها مشوّهاً، كأنها جثّة هامدة. ناداها شمس عدّة مرات، لكنه لم تجب. اقترب منها، جسّ نبضها، تفحّص تنفّسها. فتحت عينيها بصعوبة لكنها لم تقو على الكلام. حاول شمسها أن يهدّئ من روعها. لا بد أنها أول الذين يعرفون أنه كلما زاد حبه لأحداً، ازدادت معاملته سوءاً له، وأنه سريع الغضب لكنه سرعان ما يهدأ، وأنّه لم يعد غاضباً منها، وأنه متعلق بها بشدة. فقد كانت كيميا تعلّمه الشطرنج. وكان يعرف جيداً أنه لولا دروسها له، لهزمه أقل اللاعبين خبرة. استجمعت كيميا كلّ قواها لترسم على وجهها ابتسامة أخيرة، ثم غابت عن الوعي.

تعاقب أكبر الأطباء في قونية، الواحد تلو الآخر، على معالجتها، لكنهم لم يتمكنوا من إنعاشها. ولم تؤثر المستحضرات

الهندية والصينية، ولم تجدِ التعاويذ والأدعية. حتى وجود مولانا الذي سهر مستنداً إلى جدار غرفة النوم، برفقة شمس، لم ينقذها. وماتت في اليوم الثالث.

وكما جرت العادة، نُقل جثمانها إلى حمّام الموتى لتغسيل جثمانها بالماء ودعكه بأوراق العناب المجففة. بعد ثلاث غطسات، غطّت النساء الجثمان بالكافور، وبناء على طلب كيرا، أضفن بضع قطرات من زيت خشب الصندل والكهرمان وماء الورد، ولففنه أخيراً بقماش قطني لونه فضي مائل إلى اللون الأصفر.

كان موكب الجنازة ينتظر. وبعد أن غسل الجثمان ووضع على نقالة، توجّهنا إلى المقبرة. مشى الرومي وشمس اللذان كانا بعيدين قليلاً عن بقية الناس، بجانب بعضهما. اقتربتُ لأعطي شمس، الذي يشعر بالبرد دائماً، وشاحاً صوفياً. مدّ يده، أخذ الوشاح وتابع كلامه. ودون أن ينتبه إلى وجودي، قال: «لا علاقة لي بالمعاناة. فالمعاناة تأتي من الوجود. إن وجودي يفيض بالبهجة: لماذا أسمح للمعاناة الخارجية أن تخترق كياني؟ بردّ، بإهانة، إني إذن أرفضها، وألقي بها خارج البيت».

غطّى كتفيه وظل صامتاً. ابتعدت للانضمام إلى الآخرين ومشاركتهم في تلاوة آيات من القرآن الكريم. عندما ووري جثمانها التراب، ألقيت نظرة على الرجلين. كانت أعينهما مغمضة، وكانا يهزّان رأسيهما على إيقاع كما لو أنّ موسيقى غير مسموعة توجّه حركاتهما ورقصهما الداخلي.

بعد موت كيميا المفاجئ، أصبح التهديد الخارجي أكثر جلاء. وضعنا حارساً عند باب المدرسة، وطلبنا منه أن يغلق الباب وألاّ

يفتحه إلا بعد التثبت من هوية الزائر. أعددت قائمة بأسماء الأشخاص الذين يمكنه أن يسمح لهم بالدخول بدون قلق. هل أضع اسم علاء، ابن الرومي، ولا أسمح له بالدخول إلى بيت أبيه الذي يعيش فيه؟ هل أسمح له بأن يأتي ويذهب في الوقت الذي تشير فيه جميع الإشاعات إلى خيانته ونواياه الإجرامية؟

لم أجرؤ على سؤال سلطان ولد عن هذا الأمر. وبعد كثير من التردد، أعطيت الحارس قائمة لا يوجد فيها اسم علاء. بإبعاده من بيته، أحسست بأنّني أتصرّف بتعقل. بين غضب الابن العاق والمجازفة باغتيال شمس، بدا اختياري جلياً، واضحاً.

في الخامس من شوال سنة ٦٤٥ للهجرة (٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤٧)، بعد مضي أسبوعين على جنازة كيميا، كان الرومي ينتظر وصول شمس وبعض العازفين لإقامة جلسة سماع تحت سقف بيته. فبعد سبعة شهور من الاختباء في بيت صلاح، قرّر الرومي أن يعود إلى بيته ويواجه التهديد مباشرة.

كان الثلج يهطل في الخارج. انتظرنا شمس في ذات الحجرة التي استقبل فيها الرومي الدرويش العجوز بعد لقائهما الأول. وصل أخيراً، سعيداً بالأسئلة التي طرحها عليه الحارس.

«سألني الحارس الذي لا يعرفني: من أنت؟ فأجبت: هذا سؤال صعب. يجب أن أفكّر في الأمر، ولمّا لم يفتح الباب، قرعت الباب مرة أخرى وعرّفت نفسي على النحو التالي: عاش ذات مرة رجل مهم يدعى آدم. وأنا أحد أبنائه».

تعرّف ذريانوس الذي كان واقفاً وراء الباب على صوت شمس ورأى الحارس يدقق في قائمته، يبحث عن اسم «آدم». وحتى لا أضيع الوقت، طلب ذريانوس من الحارس، بإيماءة من رأسه، بأن

يفتح الباب لـ«ابن آدم» الذي لم يظهر اسمه في القائمة المعتمدة.

بدا شمس سعيداً، وبدت تعابير وجهه، المتجهّمة والعابسة عادة، منبسطة الآن. لم يخلع عباءته، وكما توقّعنا جميعاً، علّق على البرد. دعاه الرومي للجلوس إلى جانبه، وأمسك بيديه وراح ينفخ عليهما بأنفاسه ليدفئهما. ثم، مردداً سؤال الحارس، سأله، «من أنت؟»

فلم يجب شمس.

كرّر مولانا السؤال، «هل أنت نور جوهر الله؟ هل أنت الله؟» وتلا ذلك مزيد من الصمت.

وتابع الرومي قائلاً البيتين التاليين:

كنتُ حذراً، مستأنساً،
بحصيرة صلاة واحدة،
فجعلتني لعبة،
يلعب بها الأطفال في الشارع.

مزيداً من الصمت. كما لو كان الرجلان يستعدان للعب لعبة، ثم سأله الرومي، «هل أنت ساحر؟» فابتسم شمس، ابتسامة تحوّلت إلى ضحكة، وقال أخيراً، «إنها ليست مسألة سحر. إن الأمر يتعلق باستحضار الله».

لقد تغيّرت الأشياء، فقد ولد شيء جديد مع «من أنت؟» كانت هذه هي أول مرّة منذ أن ظهر الدرويش العجوز فجأة أمام البغل الذي كان يمتطيه مولانا، قبل أن يغمى عليه، يسأله الرومي «من أنت؟» توقّف عازف العود عن دوزنة عوده، وتوقّف ذريانوس عن تقليد الحارس وهو يبحث عن اسم ابن آدم في قائمته. سلطان ولد الذي

لم يعد يفكر منذ فترة إلا بسبائك الذهب، ترنّح وهو داخل إلى الحجرة وكاد أن يقع على الأرض. وأخرجت أنا، حسام، قلمي وورقتي لأدوّن الكلمات الغامضة التي سيقولها شمس التبريزي بدقة.

«من هو؟ هل سيقول لنا أخيراً؟»

بصوت عادي جداً، الصوت الذي يرفض به عادة البطيخ غير الناضج، والكباب المحترق، وكؤوس العصير، قال: «استخدم خطاط ثلاثة أساليب في الكتابة: الأول واضح له وغير واضح للآخرين، والثاني واضح له وللآخرين، والثالث غير واضح له وللآخرين. إن الشكل الثالث من الكتابة هو أنا».

سأله الرومي سؤالاً آخر، «كيف نشأت هذه الرابطة بيننا؟»

ولكي لا أفتقد أي كلمة من ردّ شمس، ضغطت بكتفي على كتفه.

«في ذلك اليوم، ماذا كنتُ؟ رجلاً ضعيفاً هشّاً. وأنت شاب صلب البنية. لم يكن فيّ شيء يمكن أن يلفت انتباهك إليّ. لكنّك نظرت إليّ برقة وغمرك حبّ لي».

واصل الرومي، «ماذا أردت مني؟»

«أنا وثلاثة آخرون، كنا راضين بما أعطيتنا إياه؟»

«من هم هؤلاء الأشخاص الثلاثة الآخرون؟» سأل ذريانوس.

«صلاح وحسام وبهاء».

سمعت اسمي، اسمي البائس، يخرج من فم شمس، لقد وقع الاختيار عليّ من بين رجال يُعتبرون جديرين. من بيننا نحن الثلاثة، بهاء، اسم آخر لسلطان ولد، يمثّل في عيني، الوحيد الجدير بأن يخلف مولانا ذات يوم. لكن من يمكنه أن يدّعي بأنه يمكن أن يخلف شمس؟ ميل الرومي الواضح تجاه صلاح الذي اختار بيته،

وتوصيته بأن يدعى إلى جميع اللقاءات، المبالغة المستمرة بمعرفته، التي كانت موضع تساؤل، والتي كان من يستحيل أن تبرّر اقتراحه المجيد. كيف يمكن لصائغ ذهب أن يحلّ محل الشمس؟

كان ذلك أمراً مستحيلاً، وكان شمس يعرف ذلك. لكنّه كان يعرف أيضاً أنه في أحد الأيام، إن آجلاً أم عاجلاً، سيحل صلاح مكانه. وتحدث معه بلغة الرجال من فئته.

«إن كياني هو حجر العرفانيين الذي لا يسمح له بالاحتكاك بالنحاس. في وجودي يتحوّل النحاس إلى ذهب. وينطبق الأمر على كمال حجر العرفانيين».

أما بالنسبة لي، فمن المؤكد أني أُحسد على موقعي في المدرسة كثيراً.

لا يمكن أن يدّعي أحد في الدائرة الأولى من المريدين بأنه يتمتع بذات الدرجة من الألفة مع شمس، ومن خلال تلك الألفة لفتُ انتباه الرومي. إن إدراج اسمي في ثلاثي يضم ابن مولانا، والرجل الذي، حسب معرفتنا، جذب الرومي لأسباب لا تزال مجهولة بالنسبة لنا، فقد أنقذني شمس من البقاء مجهولاً.

إن التعليق الذي أبداه، مصباح لامع ممتد نحوي في الظلام، جعلني مكشوفاً فجأة أمام نظرات الآخرين المعبّرة عن الإعجاب. لقد رأوني الآن من خلال عيني شمس. لم أعد ذلك الشابّ القوي والمفيد، المستعدّ لمساعدة كل من يطلب المساعدة. الرجل الذي يقفز غريزياً ليحضر كتاباً ذكره أحد التلاميذ وهو يتكلّم ويبقى في الجانب الآخر من البيت. الرجل الذي يتوجه إلى المطبخ لإعداد كباب اللحم والدجاج حتى ينتشر اسمه مع اللحوم المشوية، في أفواه الزوّار؛ الرجل الذي يجري إلى المخزن لشراء أكياس مليئة بالرزّ

وقناني ماء الورد والنعناع، ويعود محمّلاً بما تسوّقه فقط ليري الجميع كم هو مفيد. الرجل الذي يسرع إلى المقبرة، والدموع تغطي وجهه، لأداء صلاة الميت عند قبر شخص توفى للتو، حتى قبل وصول المعزين. الرجل الذي يظهر في حجرته رسم الأستاذين اللذين يعرف أن زيارتهما وشيكة. الرجل الذي غيّر شكل لحيته لكي تشبه لحية هذا وذاك، الذي غطّى نفسه بلفاع مستورد من الهضاب المرتفعة في وسط إيران، ليتميّز عن الصوفيين الشباب الآخرين الذين لا يزالون يحاولون إرضاء وتدليك الأقدام والأذرع المترهلة للآباء المسنين. الرجل الذي يُدعى إلى جانب سيده لحمايته من أعدائه بقوّة ذراعيه.

أمام مصباح شمس، أصبحت رجلاً يُمتدح، يُخطب ودُّه. أمام مصباح شمس، أصبح شعري، لحيتي، العقدة في عمامتي، موضع تكريم. أمام مصباح شمس، جئت إلى العالم.

نظرت إلى الرجل الذي قارن نفسه بلا تردد «بكمال حجر العارفين»، وأنا الذي عرفته جيداً، رأيت على وجهه، على الرغم من قدرته على التحكم في الشدائد التي تعترضه، معاناة فظيعة تنبئ بالفراق، الرجل الذي تنبّأ بالأسف المرير.

كان شمس جالساً إلى جانب الرومي، مع أن كلّ شيء فيه كان يوحي بالرحيل والاختفاء. وبعد سنوات، عندما سألت مولانا إلام تشير، في لغة الصوفية، عبارة «غيبة شمس»، أصرّ على أنها ضرورية، جوهرية، ولم يذهب للقول إنه كان يريدها أن تحدث، لكنني أستطيع القول إن التحول الحقيقي حدث له بعد «طيران» شمس. بعده مباشرة.

بعد سنوات، عندما طلبت من مولانا أن يعلّق على تحوّلاته الداخلية، قال «كنت نيئاً، فطُهيت، وفُحّمت».

اليوم يمكنني القول إن «الطهي» قد تم بعد لقاء شمس وأن «التفحيم» حدث بعد مغادرته. ويمكنني أن أرى أيضاً كيف أن حكاية «الفراشات الثلاث» التي حكاها العطّار يمكن أن تتجسّد في الشخص نفسه، وكيف يمكن أن يصبح الشعر تجربة إنسانية حقيقية. إن محطات الرومي الثلاث الأولى تماثل استكشافات فراشة طارت لترفرف حول شمعة في قلعة بعيدة لكي تفهم ما هية طبيعة النار. ويتيح لها بحثها أن تتحسس حرارة اللهب. وهذا ما كان مولانا يعنيه عندما تحدّث عن كونه «نيئاً». إننا نعرف أنه يوجد لهب، لكنّنا نحافظ على مسافة معقولة. ونعود إلى البيت.

أما الفراشة الثانية فهي التي «طهيت» بعد أن اقتربت كثيراً من الشمعة وتركت أحد جناحيها يحترق. وقد تعلّمت عن النار أكثر مما تعلّمته الفراشة الأولى، لكن بعد عودتها، فإن الطبيعة الحقيقية للهب ظلت تهرب منها. وإني أرى أن الرومي دخل هذه الحالة بعد لقائه بشمس. فلم يعد عالم الدين الذي يدرِّس في مدارس تحفيظ القرآن. لقد اشتعل أحد جناحيه وبدأ بالرقص.

أما «التفحّم» فكان ذروة الرحلة بلا عودة بالنسبة للفراشة الثالثة التي سكرت باللهب والتي غمرها العشق، فألقت بنفسها في اللهب، وتوحّدت معه. ويقول العطّار إن هذه الفراشة المتفحّمة فقط هي التي عرفت ما هية النار لكنها لم تتمكن من إخبار أحد عنها. لقد تعرّض الرومي أيضاً للهب، لكنه بخلاف الفراشة، احترق، اشتعل، والتهمته النار، وترك لنا أكثر من خمسين ألف بيت من الشعر الذي لا ينسى.

بينما أخذت أستمع إلى الكلمات التي قيلت في الحجرة التي أقام فيها الرومي وشمس وحدهما لمدة أربعين يوماً، رحت أنصت إلى برودة الليل. في الخارج، كانت يسمع وقع خطوات تُلوّث

الثلج، أيد وسخة تفرك إحداها الأخرى، أصابع قدم محنية، أنصال سكاكين مسنونة تتدلى من أرداف ناتئة العظام. في الخارج، استمر غرباء في الدوران حول بيت مولانا.

هذا ما يمكنني أن أخبركم به عن تلك اللحظة الأخيرة. من الخارج، صوت مكتوم قاطع الحوار الطويل الذي كان يدور بيننا عن طبيعة شمس. دعاه إلى الخروج، وقال: «شمس التبريزي، هل أنت قادم؟»

نهض شمس واقفاً على الفور، ودون أن يترك لنا وقتاً لحثّه على البقاء، لمنعه من عمل ما لا يمكن إصلاحه، قال للرومي بصوت هادئ، «إنهم يدعونني ليقتلونني».

لم ينبس أحد بكلمة. لم نعد جزءاً من الحديث الذي كان يدور في بستان الملائكة. كنّا الشهود الوحيدين على هذا الحريق الطوعي. بعد صمت طويل، قال الرومي: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»، وأضاف بضع كلمات كانت آخر ما سمعها شمس من الرجل الذي تأسف الأنبياء لأنه لم يكن معاصراً لهم: «يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد».

كانت تلك هي الكلمات التي قالها الرومي بدقة.

«يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد».

من دون انتظار، من دون إلقاء نظرة نهائية على الرجل الذي حوّله، الثمرة التي أنضجها، بدون أي إيماءة أو كلمة وداع، سوّى شمس عباءته - وبعدها سيقول ذريانوس إنه، في تلك اللحظة، سمع رفرفة أجنحة - انتعل حذاءه، واعتمر قبعته التي سميناها تاجه، وغادر.

في الخارج، كان سبعة رجال مسلّحين ينتظرونه لقتله. في الداخل، سُمع صدى صيحة شمس. في الخارج، شوهدت بضع قطرات من الدم.

في الداخل، بدأ التفحّم.

سأشتتك

لـم يكـن مـن أي أثـر لـشـمـس أو لـلـذيـن اعـتـدوا عـلـيـه خـارج المدرسة. خرجت أنا وذريانوس وبحثنا عنه في أرجاء قونية. في حاناتها وفي خاناتها وحمّاماتها، وفي الغرف المدفّأة في السوق، لنتأكد من أنه ما زال على قيد الحياة أم لا. الرجل الذي خرج من حياتنا بغتة. «إن ذلك أفضل شيء تفعله». شمس الذي يشعر بالبرد دائماً، لا يمكن العثور عليه إلا داخل البيوت التي يمكن أن يلجأ إليها اتقاءً للثلج والبرد. لم يثمر بحثنا. إلى أين ذهب؟ «لقد طار الطير» قال البعض، وزعم آخرون أنه مات، وأنّهم رأوا قاتليه يلقون بجسده في بئر خارج المدينة، وزعم آخرون، لكنّهم جاؤوا في وقت لاحق، أن شمس هو الأب الأسطوري لطفل حمل من دمه، وقد أخذه متسكعون في ليلة مقتله.

لم يرد أي خبر عنه في اليوم التالي، أو في الأيام التالية.

طلب مولانا تعديل آلة الرباب العربية المربّعة الشكل لتصبح بستّ زوايا، وأوضح أن الزوايا الستّ تمثّل زوايا العالم الستة، وأن ألِفَ الوتر يمثّل ألفة الأرواح مع حرف الألف في كلمة الله، لكن بالرغم من تعديل آلاته، لم يتمكن أحد من مساعدته في العثور على شمس.

فتشتُ جميع المقابر، حتى المقابر التي تدفن فيها الأجنّة والسجناء المشوهون والزنادقة، لكني لم أعثر على ما يدل على وجود جسد شمس. وفتّش ذريانوس جميع الآبار، حتى أنني رأيته يحشر جسمه المتين في سلة صغيرة ويهبط في بئر ثمّ يخرج حاملاً عظام غربان وقطع ذهب تعود إلى عصر آخر.

أما سلطان ولد الذي لم يغمض له جفن وهو يبحث عن جواب لسؤاله، «لماذا تركه يغادر؟» فهو الوحيد القادر على أن يشهد معاناة أبيه عندما غادر شمس أول مرة قبل اثنين وعشرين شهراً، وهو الوحيد الذي رأى الحبيبين يصبحان واحداً عندما توحّد مولانا وشمس مرة أخرى. وقد سأل والده مرة ومرّتين وثلاث مرات، بل ألف مرة. سأله بصمت، في أحلامه، في صلواته، وهو صائم، وفي أثناء الخلوات.

في أحد الأيام، وصله التفسير التالي:

«في بداية علاقتنا، دأب شمس على أن يطلب مني أن أكشف له كائناً واحداً من الكائنات التي يخفيها حجاب عشقي، فأُوحي إليّ: «بما أنك تصرّ على ذلك، فما الذي ستقدمه لي لقاء ذلك تعبيراً عن الشكر؟» فأجاب شمس، «رأسي». فعندما قُدم له الاتحاد بهذا الجمال، وعندما أصبح بإمكانه أخيراً أن يجني فوائد عشرته ولامسته رؤية نعمته، لم يعد في مقدوره التراجع عن كلمته. لقد أخذ على نفسه عهداً، ووعد بأن يقدم رأسه لقاء سرّي. إن الأقدار الإلهية هي التي قرّرت ذلك، ولم يكن لي أي دور فيها».

لكن كان له دور عظيم فيها. جميعنا نعرف ذلك، ولاسيما أنا.

حتى اليوم، يمكنني أن أتصوّر عطش شمس في حضور مولانا. هذا الرجل، المحيط، قدّم الماء للرجل الظمآن، لكن قطرة فقطرة،

لا أزال أستطيع أن أرى الاضطراب، ثمّ الاستسلام، ثمّ، مرة أخرى، قلق شمس إزاء فتور حب مولانا، الحبيب الذي، من البداية حتى النهاية، لاحق شمس، حتى ظله، والذي بدأ يظهر الآن علامات واضحة تنمّ عن اقتراب موعد الفراق. وفي إحدى المرات، رأيت مولانا يترك شمس فجأة ليلتقي بمريد واصل للتو من دمشق. لم يفعل ذلك من قبل قط. لكن ذلك سيتكرّر. مهجوراً في وسط المدينة، فقد شمس الذي يعرف قونية جيداً، إحساسه الدقيق بالاتجاهات، راح يسير على غير هدى حتى قرر أخيراً أن لا يعود إلى البيت.

وفي مرة أخرى، رأيت مولاي مغادراً سوق الدباغين حاملاً مخطوطات مجلدة. وفجأة، أعطى صرّة الكتب إلى شمس، وقفز إلى عربة يقودها شاب تركي وانطلق فيها وحده تاركاً شمس يمشي متعثراً، يحطمه البرد - دائماً البرد - من حمله صرة الكتب وتخلي صديقه عنه. قطعت الرحلة كلها مشياً على القدمين وراءه، حريصاً على ألاّ يراني. كان يبدو دهشاً. لا بد أنه كان يقول لنفسه إن الرومي لم يعد الحبيب الذي كان في الأيام الأولى تلك، الساعات الأولى تلك. ولا بد أنه أخفى اضطرابه، لأنه كان يعرف، شأن جميع المحبين، أنه على طول الطريق، كلما ازدادت الحاجة إليه، كان يتلقى أقل.

بينما أكتب هذه الكلمات، أنا حسام، أعرف أن مولانا كان قد كتب قبل بضعة أيام من اختفاء أو مقتل أو اختطاف شمس، قصيدة كانت كلماتها ستحدث في قلب الفار في المستقبل، ألماً ودماً أشدّ وأعظم من خناجر أعدائه.

في بيت صلاح، داخل الحجرة التي ضمت ألفة الحبيبين طوال

سبعة شهور، كان ذريانوس حاضراً في أحد لقاءاتهما الأخيرة.

كان شمس الذي كان يبدو دائماً حاسر الرأس لاعتياده على تغطية رأسه بأقمشة وشالات غير ملائمة، يخاطب مجموعة صغيرة من الناس، ويقول: «من يعرفني يرغب فيّ. ومن يرغب فيّ يبحث عني. ومن يبحث عني يجدني. ومن يجدني لا يختار أحداً سواي».

آنذاك، خيّل إلينا جميعاً أن مولانا لن يختار حبيباً غير شمس، وأن وجوده المطمئن إلى جانبه كان يرضيه. لكن باستفزازه على المغادرة، لا ريب في أن الرومي كان يجرّب، من خلال الغياب والفقد، الوجود المتعدّد والمتواصل للحبيب. لأننا نفكّر في ما ليس لدينا، عوضاً عن التفكير في ما لدينا. بقدرته على التغلّب على الشعور بالخزي في الحب، ربح الرومي رهانه، إلى حد أنه أصبح هو نفسه شمس التبريزي، إلى حدّ أنه قال إن مائة ألف شمس تتدلى من كلّ شعرة من شعره، إلى حدّ محو شخصيته، فعنون ديوان شعره «ديوان شمس التبريزي».

يمكننا أن نبقى فوق سطح الأشياء في حياتنا ولا نرى إلا زبد مشاعرنا، ويمكننا أيضاً، وهذا ما أحاول القيام به بكل تواضع، أن نهبط قليلاً إلى اللا شفافية في داخلنا.

من شدة دهشتنا للفراق الذي حصل بين هذين الرجلين، ولاسيما السؤال المزعج وهو لماذا سمح مولانا للرجل الذي يحبّه أن يغادر، كان بإمكاننا أن نردّ مثل أي شخص آخر ونقول ببساطة لقد «تركه يغادر نتيجة شعوره بالسأم، لأن شمس فقد سحره تجاهه، لأن مودّة الرومي بدأت تتجه باطّراد إلى مكان آخر».

هذه الأسباب تافهة. يبدو لي أن هناك أسباباً أخرى حاولت أن أحددها خلال تلك السنوات وعلى رأسها: أن مولانا قد طُهي. لقد

أصبح جاهزاً. كان يولد فيه شاعر عظيم، وكان يشعر بذلك. وأن هذه المرآة المحبوبة، تلك النفس الأخرى، قد تمنعه من التفتّح والتبرعم. كان هناك الكثير من الواحد. لم يكن باستطاعة الرومي أن يواجه جوهر وماهية شمس إلى أن يختفي شمس نفسه، وعلى الرغم من صعوبة فراقهما، كان ذلك ضرورياً. إزاء قوى المودّة والإعجاب القائمة بينهما التي كانت تتكرر يومياً، برتابة متزايدة، انتصرت قوى أخرى في الدخول إلى الساحة، انبثقت من أشد الأجزاء غموضا في كيانه، القوى التي كانت تطلب بأن يصبح الرومي أخيراً حقيقة من هو.

ولكي يتم ذلك، فقد كان لا بد أن يغادر شمس، حتى لو أدى ذلك إلى المعاناة التي يرفضها الرجال العاديون بكلّ قوّتهم، العاجزون، مثلنا، عن قراءة جميع أسرار الألم، يجب أن ينحني الحبّ أمام احتياجات أعظم. مهما بلغ الثمن. كان مولانا بحاجة إلى وجوده ذات يوم، أما الآن فهو بحاجة إلى غيابه.

في ذلك اليوم، كان ثلاثة أو أربعة مريدين ينتظرون ردّ مولانا على تعليق شمس، «ومن يجدني، لا يختار أحداً سواي»، ارتجل الرومي بعض الأبيات التي تنبّأت بوضوح بالفراق، بالدمار، بالفقد، بالدوار، بالجهل، بالتضحية بالرجل الذي تجاسر على إعلان حبّه له:

حبك لي غمرك
وأرسلتك بعيداً،
اسمع جيداً.
إني أحذّرك، إياك أن تبني شيئاً،
لأنني سأحطّمك،
اسمع جيداً.

لو بنيت منّي بيت،
مثل النحلة والنملة،
سأجعلك مشرّداً،
سأجعلك بلا شخصية،
اسمع جيداً.

لو كنتَ جبل قاف،
مثل طاحونة تدور بسرعة،
سأجعلك تدخل في الطاحونة،
وأجعلك تدور،
اسمع جيداً.

لو كنتَ أفلاطون أو لقمان،
بعلمك وجلالك،
بسرعة سأجعلك،
جاهلاً بنظرة واحدة،
اسمع جيداً.

إنك مثل طير ميت،
في يدي، عندما اصطدتك.
أنا، الصيّاد، سأجعلك،
طعماً للطيور الأخرى،
اسمع جيداً.

أنصال الحديد لا تقبع،
على حنجرتك، أو تجرحك.
ومع ذلك فإني أضحّي بك،
كما ضُحّي بإسماعيل،
اسمع جيداً.

كما قال ذريانوس، بعد أن «استمع جيداً» إلى القصيدة، أضاف شمس البيت التالي: «لو قلت الحقيقة، لطردتني المدينة كلها، شيباً وشباناً، و م معهم» ثمّ لاذ بالصمت.

من أفضل منه يمكنه أن يقدّر أطلال الحبّ.

حتى اليوم ما زلت متيقناً من أن شمس، عندما غادر فناء المدرسة استجابة لنداء المتآمرين المسلّحين الذين كانوا بانتظاره في الخارج، كان يعتقد بأن أنصالهم الحديدية لا يمكن أن تطاله، لأنه حتى قبل هجوم القتلة الذين كانوا دائماً أعداءه، فإن اليد التي طالما أحبّته وداعبته هي التي ضحت به، مثل إسماعيل.

في الأيام التالية، لم نتلق أي خبر.

في اليوم الأربعين، خلع الرومي عمامته البيضاء واستبدل بها بعمامة دخانية اللون، وأمر بأن تخاط له عباءة من القماش المخطّط المستورد من اليمن والهند، وارتدى هذه العباءة إشارة على الفراق طوال حياته. وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة في ٥ جمادى الأخرى سنة ٦٧٢ للهجرة (١٧ كانون الأول/ديسمبر ١٢٧٣)، نزعتها أنا بنفسي عن جسده.

طوال ستّ وعشرين سنة، كانت تلك العباءة المخطّطة التي كان يبدّلها باستمرار بأخرى مثلها، تذكّره بغياب شمس.

حتى اليوم، وبعد مضي فترة طويلة على وفاة مولانا ، كلما رأيت تلك الخطوط المعروضة على رفوف بائعي القماش أو في قطع ثياب أخرى، يخفق قلبي بقوة في صدري، بل في بقعة فوق سرتي مباشرة وتحت قفصي الصدري. إحساس يشبه تقلصاً عضلياً، يشبه جرحاً ناكئاً.

بعد مغادرة شمس، بدأ مولانا ينظر إلى كلّ شيء بمنظور مختلف. فقد بدأ يبدي اهتماماً بكل شخص كان على تواصل، سواء من قريب أو بعيد، مع شمس. فقد كان يدعو أناساً عاديين، تجاراً وكتبة وموظفين، لم يكن يعرفهم من قبل، لكنهم احتكوا ذات يوم بشمس التبريزي، ويتفحص كلّ تفصيل في وجوههم. وفوجئ هو نفسه بأن ظهرت على الجانب الأيسر من وجهه جعدة عند زاوية شفته السفلى. كنت أعرف هذه الجعدة تماماً، لأنني كنت أراها أحياناً على وجه شمس. كانت عيناه وأذناه تريان وتسمعان مثل عيني وأذني الحبيب المفقود. وعلى الفور، أصبح صوت الإسكافي عند ناصية الشارع، مع أنه كان صوتاً عادياً، تميمةً، أثراً، لأن المعبود قد استمع إليه ذات يوم.

وبدأ مولانا يزور جميع الأماكن التي كان شمس يتردّد عليها في الماضي. وبعد ذلك بفترة طويلة، اعترف لي قائلاً بأنّ قلبه كان يخفق بقوة كلما مرّ من أمام محل دخل إليه بصحبة شمس. وقد أصبح الحمّام، المكان المفضّل الذي كان يرتاده كل يوم تقريباً مع شمس، مكان عبادة، حيث كانت تتدفق ألف وألف قطرة من الذاكرة. وعندما كان يلتقي مع أتباعه، كان يتخيّل أن شمس ينظر إليه ويستمع إليه. وفي الشارع، كان يمشي كما كان يحبّ شمس أن يراه يمشي. لم يكن يتخيّله يسير إلى جانبه، بل كان مخفياً في داخله. نعم، فمنذ اختفاء

شمس التبريزي، أصبح مسكنه، سكنه. وعندما كان يتذكّر النكات التي كان يحكيها شمس، النكات التي لم تكن تضحكه في الماضي، كان يضحك من قلبه، بل ويرغمنا على الضحك، مثل النكتة عن «إزالة الشعرات البيضاء من لحيتي». فقد كان حلاق منزعجاً من عدد الشعرات البيضاء التي غزت لحية زبونه، فحلقها كلها، ثمّ أراه كتلة الشعر، وقال له: «هيا اختر أيّها تريد. فليس لديّ وقت».

ضحك مولانا وهو يحدّق في لحيتي وفي لحى أصدقائي، وكرّر النكتة، ثم ذكر نكتة أخرى قال فيها وزير لرجل: «خذ الألف دينار هذه ولا تقل كلمة واحدة مما سمعته الآن». فأمسك الرجل الدنانير الألف وتوجّه إلى جميع الأماكن وهو يقول: «أتعرفون ضرطة الوزير؟ أنا من جعلها تخرج». وكان غالباً ما يردد هذه النكتة لمجموعات مختلفة من الناس، وفي كلّ مرّة يقولها، كان يضرط ويضحك.

في بعض الأحيان، كان يجيب عن الأسئلة بنفس السخرية التي كان قد سمعها من فم شمس، لذلك عندما سأله أحدهم عن ميول درويش شاب، أجاب مكرراً كل ما قاله حبيبه السابق، كلمة بكلمة:

«سأل أحدهم إن كان الرجل قادراً على عمل شيء، فجاء الردّ، «نعم كان والده قادراً»، فقال له الرجل ثانية، «إني لا أسألك عن والده، بل أسألك عنه»، فكان الردّ، «كان والده قادراً جداً»، فأصرّ الرجل، «هل تسمع ما أسألك إياه؟»، فكان الردّ، «أنت الذي لا تسمع. إني أسمع جيداً. لست أصمّ»، ولم نعد نرى الدرويش الشاب». وفي اجتماع عقده الوالي لتكريم بعض الصوفيين، بعد انتهاء الطعام، حكى مولانا نكتة أخرى من نكات شمس:

«اجتمع سبعة صوفيين معاً في بيت، وصاموا أياماً عديدة

متتالية. فانزعج مضيفهم عندما رأى أنهم لم يلمسوا طعامهم، وسألهم كيف يمكنه أن يجعلهم يأكلون. فقال له أحدهم: اجلب لنا كمية كافية من الطعام، وأفرغ البيت من الكبار والصغار، ولا تدع أحداً يدخل، وغادر أنت البيت أيضاً. فأعدّ المضيف طعاماً يكفي عشرين شخصاً، وأخرج زوجاته وأطفاله من البيت، وطرد الفضوليين، لكن بالرغم من وعده بأن يغادر البيت، بقي في البيت وراح يتجسّس على ضيوفه من إحدى الفتحات، ورأى الصوفيين الذين ظنّوا أنهم وحدهم، يلتهمون الطعام، إلى حد أن أحدهم استلقى على الأرض بعد أن انتابته تشنجات في معدته، بينما استمر الستة الآخرون يحشون أنفسهم. بعد ساعة، سقط صوفي ثان واستلقى على الأرض لا يأتي بحركة. واستمر ذلك حتى الشخص السادس. انزعج رب البيت ودخل، «رب البيت»، كما نطلق عليه، الحجرة مدّعياً أنه وصل لتوّه من الخارج، وسأل من بقي على قيد الحياة هل كانت كمية الطعام كافية، فأجاب، لا، لم تكن كافية، وإلا لرأيتني ميتاً أيضاً».

عندما حكى هذه القصة، كان مولانا يحدّق في ضيوف الوالي الذين كانوا يلتهمون لحم العجل المنقوع بالخلّ ولحم غزال متبّل بالثوم ونبات الشبت، فبدأوا يتجشّأون ويطلقون ريحاً. وبما أنهم كانوا المقصودين بجلاء من هذه القصّة، فقد اضطروا إلى الضحك.

وفي مناسبة أخرى، عندما رأى مولانا أن عازف الناي الأثير لديه قد وصل، انتحى بي جانباً وحدّثني كيف أنه، بعد أن أمطر هذا شمس بأسئلة عن علاقتهما الغامضة، قال شمس للرجل إن علاقتهما تشبه العلاقة بين الناي وعازفه. وعندما ذهبت لأجلب دفتري حتى أدوّن الكلمات التي ستنير علاقتهما أخيراً، أوقفني، وأضاف: «بعد

أن قال ذلك، ضرط شمس، ثمّ أمسك الناي وقرّبه من ظهره وقال: إن كنت تستطيع أن تعزف أفضل من ذلك، فخذه واعزف» عندما حكى لي هذه القصّة، أمسك بناي أفضل عازف في المدينة وقلد الحركة التي فعلها شمس التبريزي.

أين هو الآن؟ في أي خان ينزل؟ لمن يبتسم ابتسامته الغريبة؟ من يلاحظ ثنية شفته؟ من يغطيه بالصوف عندما يتسلل برد الشتاء إليه من النوافذ؟ في الليل، من كان يردّ عندما كان يتمدد بخمول؟

لم يكن هناك جواب. لا توجد أخبار عن شمس. لا شيء سوى الخواء.

حاول بعض الأصدقاء تهدئة الرومي بتذكيره بسوء تصرف شمس وفسقه، لكن بلا جدوى. بالنسبة لهم كان لدى مولانا ردّ واحد فقط وهو: «إن إشارة الحبّ هي أن يبدو العيب كأنه مهارة». تجرأ ذريانوس وسأل، «ألا يمكن أن يكون رجلاً عاشقاً عرّافاً؟» فقال الرومي بعد لحظات من الصمت: «لا يمكننا أن نمنع حدوث مثل هذه الإمكانية».

أنا حسام، بعد أن أدركت أن شمس قد اختفى إلى الأبد، بدأت أدوّن كلّ شيء تذكّرت أنه قاله. فبدأت أدوّن العبارات التي كانت تبدو لي غامضة، آملاً أن يساعدني مولانا ذات يوم في فكّ طلاسمها، وسرعان ما أصبح يضم هذا الدفتر مجموعات من الكلمات المفاجئة منها على سبيل المثال: «ورجال الله، جائعون». وبعد عشرين سنة، أضاف الرومي بيده، «لقد حزن شمس أشدّ الحزن من هؤلاء المسلمين. فقد قتلوه بجوعهم والتهموه بشهيتهم، بينما ظل رجال الله جائعين».

وفيه يستطيع المرء أن يقرأ، من دون ترتيب، «سأل أحدهم: هل

يجب أن نصلّي؟ فردّ آخر نعم، فقال الأول: «آه»، فقال الثاني: سأمنحك صلاة عمري كلها إذا أعطيتني هذه الآه».

أو «هذه البقعة في الداخل، أيّ ماء يمكن أن يزيلها؟»، أو «لنذهب الآن إلى الأماكن السيئة السمعة ونرى الذين ضلوا الطريق. لقد خلق الله تلك النسوة، سواء أكان ذلك جيداً أم سيئاً، فلنراقب أنفسنا فيهن»، أو «كن في المركز، وكن وحدك».

ذات يوم، بينما كان يُسأل عن الخلوات التي تقام في الصحراء أو في الجبل، قال شمس إنه يعرف شخصياً زاهداً عاش في خلوة على جبل. وفي رأي شمس لم يكن هذا الرجل بشراً، بل كان «جبلياً»، وأضاف، فلو كان بشراً لكان ذكياً، لكان حالماً، وجديراً بمعرفة الله. فماذا سيفعل رجل كهذا على جبل؟ ما الصلة بين الرجل والحجارة؟ ثمّ أنهى كلامه بقوله: «كن في المركز وكن وحدك».

حتى اليوم، أستطيع أن أراه وهو يحكي ويقلّد بحركات يديه قصّة الأمير المخنث الذي جلب له والده الملك رجلاً فحلاً وقاسياً وشجاعاً ليعلّمه، وطلب الملك من ذلك الرجل أن يعلّم ابنه فنون القتال، وأن يتصرف كما يتصرف الذكور، وأن يعلّمه صفات الرجولة والبطولة، لكن تعليمه ذهب سدى. فعلى الرغم من كلّ التمارين التي جربّها معه لتنمية عضلاته، استمر الأمير في اللعب بالدمى مثل فتاة صغيرة. وفي أحد الأيام، عندما أعلن كبير أمناء البلاط مجيء الملك لزيارة ابنه والمعلم، غطّى الأمير رأسه بوشاح على الفور، وأمسك بدمية. أما المعلم فقد خلع عمامته وغطّى رأسه كما فعل الفتى، وأمسك تمثالاً صغيراً ووقف بجانب تلميذه. عندما وصل الملك وسأل أين المعلّم، كشف الرجل عن وجهه، وسجد أمام الملك وقال مقلداً صوت امرأة: «أنا هنا، المعلّمة هنا».

عندما حكى شمس هذه القصّة، غطّى رأسه بوشاح كان يضعه على كتفيه دائماً - البرد، دائماً البرد - وقلّد صوت فتاة صغيرة خافتاً، وراح يمشي ويتمايل مثل امرأة. كان عدد قليل منا حاضراً في تلك اللحظات، عندما بزّ بذكائه جميع المهرّجين في البلد.

عندما علم مولانا من ذريانوس بوجود الدفتر الذي كنت أملأه بأقوال شمس. دعاني، بل بمعنى أدق، أمرني بأن أقرأ له فصلاً في كلّ يوم، وهكذا تمكنت من التقرب منه أكثر، مع أنني، حتى ذلك الحين، كنت أظن أنه لم يكن يعتبرني أكثر من مجرد مريد شاب مفيد وميسور الحال، وأمتاز بأن شمس قد لاحظ وجودي.

وهكذا أصبحت أذهب صباح كل يوم، بعد صلاة الفجر مباشرة، إلى غرفة نوم الرومي، متأبطاً دفتري، وأقرأ له، لا على التعيين، مثل نبوءة- هذا ما كان يريده - كلمات «المختفي». وكبرتُ في عينيه. فأضحى فمي فم شمس، وبدأ صوتي يردد كلمات حبيبه، ونقلت له رسائل عصية على الفهم. كنت أنا صوت العرّاف.

ومع أن مولانا كان حاضراً في معظم الأحيان عندما قال شمس تلك الكلمات وسمعها، كان يخيّل إليّ أنه بتشجيعيه لي على قراءتها كيفما اتفق، بعد عدة سنوات، كان يريد أن يدع أذنيه تسمعان تلك الكلمات مرة أخرى بصوت آخر. كان يتعمد أن يحاول الهرب من أوهامه، ويدرك، بواسطة كائن حالي، الغياب نفسه.

لن أنسى أبداً قراءتي الأولى. فقد أخذ يرمقني على نحو غريب. ماذا سيخرج من فمي؟ كلمات شمس، الرجل الذي كان يدعوه «الحبيب بدون ضمان»، يظهر له المغفرة أخيراً؟ في ذلك اليوم، بعد أن تبادلنا التحيّات المتعارف عليها، أخرجت الدفتر من جيب معطفي الداخلي وبدأت أقرأ ما كنت قد عنونته «مقالات شمس التبريزي»،

انحنى مولانا فجأة عند قدمي، رغبة منه في أن يكرّم الكلمات العادية التي أصبحت، بسبب غيابه، كلمات رائعة، مقدّسة.

وعلى الرغم من تحفظه، ساعدت مولانا على النهوض وقدمت له الدفتر ليقرأه كما يشاء. أغمض عينيه، ولامس الدفتر، ثم شمّه كما لو كان شمس نفسه، وفتحه على صفحة لا على التعيين، ثم أعاده إليّ من دون أن ينبس بكلمة. أحسست بأنّه ينصت إليّ بكل جوارحه.

قرأت: «قال شيخ لأحد الدراويش: «لقد حرّم الخليفة رقص السّماع. فأحسّ الدرويش على الفور بتشنج في صدره ومرض. فاستُدعي الطبيب وجسّ نبض الرجل، لكنه لم يعرف حقيقة مرضه. وعندما مات الدرويش، نبش الطبيب قبر الدرويش وأخرجه وشقّ صدره وأخرج منه «التشنج» الذي كان يشبه قطعة من حجر العقيق. وبعد فترة من الزمن، بعد أن حطمه الفقر، اضطر إلى بيع قطعة العقيق، وهكذا، انتقل التشنج من يد إلى يد إلى أن وصل إلى الخليفة، فصنع منها خاتماً ووضعه في إصبعه. وفي أحد الأيام، كان يتهيأ لإقامة رقص السّماع، لاحظ الخليفة أن رداءه ملوث بالدم. فتفحّص جسمه، لكنه لم ير أي جرح، فتحسّس الخاتم ورأى الحجرة تتوهج، تشتعل، تنزف. وعلى الفور دعا البائعين المتعاقبين حتى توصل إلى الطبيب الذي حكى له قصّة الدرويش».

تأثر مولانا كثيراً بالقصّة التي يتنقل فيها الموت مثل قطعة الحجر، وعلى الفور دعا عازف الناي الذي يحبه بالإضافة إلى ابنه وعدد قليل من المريدين الذين يحيطون به على الدوام، لإقامة جلسة سماع. وبأمل أن يخفّف الرقص من معاناة والده، شجّع سلطان ولد الجميع على أن يكونوا جذلين ومبتهجين. بذلنا كلّ ما بوسعنا، لكن

بلا جدوى. لأن كلّ شيء كان يذكّره بشمس، غياب شمس: قبّل الأرض، وكرّر العبارات المعهودة، واستمع إلى صوت الناي، وخلع معطفه إشارة على الوجد والنشوة، وراح يدور ويدور ويدور، ينطق الحرف الأخير من «هوو»، ويستمع إلينا ونحن نردد «هوووووووووو» الختامية، حتى تنقطع أنفاسنا. كم عدد الحركات، كم عدد الدورات، كم عدد الأصوات، كم عدد الأحاسيس بدونه. وتذكّر، كما أخبرني في ما بعد، أول رقصة سماع، عندما تلامست أيديهما، وتعلّق أحدهما بالآخر، أحبّ أحدهما الآخر، انسحبا، بحث أحدهما عن الآخر، وجد أحدهما الآخر. نعم، تذكّر كيف قبّلتُ أيديهما. تذكّر رقصة سماع أخرى أيضاً، منذ بداية لقائهما، نسيا خلالها وجود الحاضرين، الحيرة، التعليقات، النظرات المختلسة والفضولية، لذلك لم يطيعا إلا سيداً واحداً: دهشتهما في عثور أحدهما على الآخر في الرقص. كانا لا يزالان ينتظران. حتى ذلك الحين، كان شمس يبحث عن الرومي في كلّ المدن التي «طار فوقها» وشعر الرومي بالوهن بأمل أن يحترقا. التقيا ومزّقت جاذبيتهما المتبادلة القوانين الأخلاقية واللباقة والأصول العائلية والاجتماعية، ليصبح كل منهما جزءاً من نظام الآخر، نظاماً كونياً، نجمياً، فوضوياً، نظاماً أفلتت قواعده البائسة، وفي أيّ حال، التصنيفات النسبية للبشر.

بدأ مولانا يرقص، يدور، يهزّ رقبته، ثمّ، شاعراً بأنّ كلّ حركة من حركاته تريد شمس، توقّف في مكانه، وطلب من العازفين أن يتوقفوا عن العزف وأن يخرجوا. في وقت آخر، قال لي: «إن رقصة السماع من دون شمس مثل صلاة بدون الله». لكن قراءتي «مقالات شمس» تواصلت. في اليوم التالي، جئت إلى مولانا مرة أخرى،

الدفتر تحت ذراعي، مستعداً مرة أخرى لسماعه وإخلاصه للكلمات القديمة التي كان حبيبه قد قالها ذات يوم، وأصبح الرومي يفسرها الآن تفسيراً مختلفاً. فالكلمات التي كانت تبدو بريئة أصبحت تبدو مبهمة وأصبح عليه أن يفسرها فجأة وحده. وأصبح يتذكّر حواراتهما ويحلّلها في ضوء جديد. ولي وحدي، تذكّر عدداً من مقولات شمس التي تؤكد على حقيقة أنّ الطير لا يقبع قط في البقعة نفسها، وأنه يتخلى عن أصدقائه وعن أسرته بسعادة لأنه يكتشف كنه حياة أخرى، تحت سماوات عوالم أخرى. نعم، فقد تذكّر مولانا أحد تجليات شمس الأولى، عندما قال الدرويش الغريب بوضوح إنه كان عليه أن يغيّر بيئته عدّة مرات ويتعرف على حاشية جديدة. حينها لم يُعر الرومي أي اهتمام لما قاله. في ذلك الوقت، تساءل الرومي كيف يمكن لشمس ذي السلوك المفاجئ وغير المتوقع، أن يجذب كراهية حاشيته إلى درجة أنهم أرغموه على الرحيل. كيف يمكن للمرء أن يرفض الجمال والدهشة الحقيقية؟

أضاء رحيل شمس تلك الأسرار العتيقة الآن. فلم يحل الحبّ، أو التبجيل، أو الانّقاد دون الكشف عن طبيعة الرجل العجوز الحقيقية بالبرد، والتحريض على رحيله، ولم تمنعه من صفق الباب وراءه والاختفاء. بل كان هو من منع أن تتشكل العادات، «الواحد الذي لا تستطيع أذن الحبيب احتواءه»، كان «اللؤلؤة الأعظم من البحر»، «ملك الجن الذي لا يؤثر فيه السحر»، «إنه الحارق المحترق، الهزاز المهتزّ، الكسّار المكسور، الهاجر المهجور».

في ٥ شوال سنة ٦٤٥ للهجرة، في اللحظة ذاتها التي اجتاز فيها شمس عتبة الحجرة استجابة للدعوة التي أتت من الخارج ليضحّي بنفسه، مكرراً كلمات الرومي الأخيرة، «يفعل الله ما يشاء ويحكم ما

يريد»، شهدنا أصل الفراق الذي صنع شاعراً. لقد قايض شمس حياته بشعر سيولد. لقد دفعه مزاجه المتقلب إلى أن يغادر، وترنّح قلبه بين حقيقة التبادل في الحبّ - أساس غبطة مضمونة - والشكّ الذي هو من المؤكد مبرّر للهجران والانطلاق إلى المرعى.

لم يستغرق اتخاذه قراره هذا جزءاً من لحظة: أن ينهض ويغادر الحجرة ويغلق الباب وراءه على تردد الرومي في التفاوض، المقايضة، بيعه لقاء أن يكون في أفضل حال. لو كان أحداً غير شمس لبقي، كان سيذكّر الرومي بتحوّله، بعزلتهما، بالرقصة الأولى، بالليالي التي مرت بسرعة في وجود الحبيب، بالخوف، بالمزاح، والتواطؤ المشترك.

كان أي واحد غير شمس سيختفي لفترة من الزمن لإنقاذ حياته ويحاول أن يطيل الأمد لتمديد حبل الحبّ. لكن شمس لم يكن ذلك الرجل الآخر.

حتى اليوم، أعتقد أن هذا الفراق كان يبدو حتمياً بالنسبة لشمس. فهو طير، والطير لا يمكث أبداً على الغصن نفسه. إني متيقن بأنه يعرف أن الرومي كان منجذباً بقوة نحو الشيء المؤقت، الزائل، الغامض، الفاني فيه. إن الطير لا يتلكأ، لكن يمكن الإمساك به. مقيداً بإحكام بالرومي كما كان، كيف ترك شمس نفسه يغادر؟ لا يعلم أحد إلا اللّه.

أنا حسام الذي حظيتُ بشرف مرافقة شمس في جولاته في المدينة، يمكنني أن أقول إنه كان يلوم الرومي في النهاية على لا مبالاته وانفصاله عنه. مثل أيّ حبيب، هل كان يخشى منافساً؟ هل كان يشكّ في أنه سيتمكن من استمالة حبيبه؟ لا أعرف. إن إدراكه بأن حبّه خفت وأصبح يبدو في شكل إيحاء: عليه أن يغادر. نعم،

أظن أن شمس كان سيغادر حتى بدون سخرية المجرمين منه ودعوتهم له للخروج ولقائهم. ويمكنني القول أيضاً إن هذه الدوافع العادية قد تفسر تصرفاته، بالإضافة إلى مشاعر الغيرة والندم والكبرياء، وهي الأسباب الأهم التي أفضت إلى افتراقهما. ولا يعرف أحد السبب الحقيقي إلا الرومي. فالرومي هو الوحيد الذي رأى، نعم، رأى، قدرة شمس القويّة على تحويل الأستاذ إلى عاشق، وتحويل العاشق إلى شاعر. حتى ذلك الحين، لم تكن مهمّته قد أنجزت بعد. لأنه لكي يولد الشاعر، يجب أن توجد معاناة، انفصال، صيحة، دمعة. بالنسبة إلى الرومي فإن تلك الدمعة هي دمعة الفراق. نعم، عندما صفق شمس الباب وراءه، مع أنه كان يشعر بالإهانة والهجر، مهدّ الطريق أمام أكثر تجارب الحبّ مرارة، وهي الفراق. عندما وقف شمس ليغادر، خُيّل إليّ أنني رأيت على وجهه الشاحب البارد باستمرار، وميض شعور بالرضا. كان الفراق مثمراً. لقد بذر الرومي، ولم يكن من ذلك النوع الذي ينتظر أن يجني ما بذره.

بعد سنوات، بعد أن أُنهكت من قراءة وإعادة قراءة أعمال العطّار وسنائي، طلبت من مولانا أن ينظم شعراً، فأرخى عمامته، وأراني ثمانية عشر بيتاً من أول قصيدة للمثنوي تبدأ على النحو التالي:

استمع إلى هذا الناي يأخذ في الشكاية،
منذ أن كان من الغاب اقتلاعي،
ضج الرجال والنساء في صوت التياعي،
أبتغي صدراً يمزقه الفراق،
كي أبث آلام الفراق.

فقبل أن يصدح الناي، يجب أن يقتلع من الغاب. يجب أن يعاني.

أعرف أن الشاعر قد ولد في مولانا في اللحظة التي وطأت فيها قدما شمس باب المدرسة ولن يعود بعدها أبداً. كانت مغادرة مثمرة. لقد أُنجزت المهمّة. يقول البعض إنها مهمّة إلهية.

هل كان يدرك أن رحيله سيتمخض عن ولادة الرومي الشاعر؟ إني على قناعة تامة بهذا الأمر، بالإضافة إلى قناعة العديد من الأشخاص الآخرين. لقد ولد الشعر من ألم الحبيب. لكن ماذا عن معاناته هو؟ من سيحلّ خصلات شعره، من سيدفّئ يديه، من سيحرص على ألاّ يلطّخ أظافره بالحبر؟ ماذا سيحلّ «بالجمرة» التي ألهبت مولانا؟ لا يُعرَف إلى أين ذهب. باءت جميع محاولاتنا للعثور عليه بالفشل. فقد عاد جميع الأصدقاء والمريدين الذين خرجوا للبحث عنه منهكين مضطربين. هل كان مولانا يتمنّى أن يعود؟ نعم، أعتقد ذلك. لكن جزءاً منه، الجزء الذي حلّق فوق مروج الملائكة، كان يطلب استراحة، فراقاً، افتراق الناي عن الغاب، انفصال ورقة الشجرة عن الشجرة، وانفصال الفراشة عن الشرنقة، والمطر عن الغيمة. كان يطلب انفصال جسدين اتّحدا ذات يوم بجاذبية مغناطيسية يتعذر تفسيرها.

فإذا لم يُفصل الناي عن الغاب، فكيف يمكن أن ينبعث صوت الموسيقى؟

أنا حسام، ومعي سلطان ولد وذريانوس وآخرون، على قناعة بأن رحيل شمس لم يكن ليبعث الشعر في الرومي فقط، بل في شمس أيضاً. لا أعرف كيف يمكنني تفسير ذلك. فشمس لم يكن حاضراً في عقولنا كما أصبح حاضراً بعد رحيله. ومنذ صلاة الفجر حتى

صلاة العشاء، كان اسمه يعود ويتردد مثل تميمة حتمية، ومع مرور الوقت، بدأنا نرى الرومي وقد أصبح شمس.

آملاً أن أصرف تفكيره عن شمس، دعوته ذات يوم إلى بستاني في فاليراس مع المجموعة الصغيرة من الأشخاص الذين أصبحوا يشكلّون دائرته المباشرة. جال في البستان، وقطف بعض الثمار، ثم جلس عند حافة الجدول وشمّر ساقي سرواله، وخلع نعليه، وغطس قدميه في الماء. وتحلق الأصحاب حوله على الأرض. وبسرعة شرع يتحدث عن شمس. فقد اعتدنا من الرومي أن لا يتكلّم إلا عن شمس، كلما أمكنه ذلك وطالما استطاع ذلك. أطلق أحد المريدين المخلصين الذي عاد من رحلة طويلة وأسف لأنه لم يتعرف على شمس، تنهيدة عميقة. فسأله سيدنا، بنبرة لا تخلو من المفاجأة:

«لماذا تتحسّر؟ أيّ حسرة؟ تتحسّر على ماذا؟ وتتحسّر من ماذا؟ ما الحاجة إلى هذا «التحسّر» بيننا؟»

فقال المريد المرتبك: «لعل الحسرة تنبعث من الحقيقة بأنني لم أتمكن من الاستفادة من الوجود المنير لشمس».

بعد صمت طويل، قال الرومي: «صحيح أنك لم تر شمس، فإني أقسم لك بروح أبي بأنك تجد الشخص الذي تتدلى من كلّ شعرة من شعراته، مائة ألف شمس التبريزي، الشخص الذي امتزج بفهم سرّ أسراره».

تجلّى هذا التماهي بين الرومي وشمس التبريزي بأبهى صورة في أشعار مولانا التي بدأ ينظمها، وقد اختار له اسماً مستعاراً هو «الصمت»، لكن قصائده لم تتكلم إلا عن شمس. فقد بدأ اسم شمس يظهر باستمرار، بينما ظل اسمه، جلال الدين محمد، مخفياً، صامتاً، قبل أن يصبح أخيراً «خاموش» التي تعني «المطفأ»، «بلا

صوت». بهذه الطريقة اختار أعظم شاعر فارسي أن يعرّف نفسه. عندما كان يتكلّم عن هذا الحبّ المتقد، كان يفضّل، بدلاً من الكلمات العديمة الفائدة والناقصة، «صمت السمك»، كما كان يقول، «فقد مزّقتُ رداء الكلمة، هجرتُ الخطابة، تخليتُ عن التعبير. تركتُ اللغة». وكان يقول:

الصمت، لأنه من الآن فصاعداً،
مهما فعل الآخرون،
فلن نتمكن قط،
من التوفيق بين الشعر والقافية.

أو:

توقف عن قراءتك،
اصمت، كن صبوراً،
أنت من سأقرأه،
كما أقرأ القرآن.

أو:

كفّ عن الكلام، وإذا قال أحد:
«بدون الكلمة والصوت،
لا يكون للكلام شكل» -
اكذبْ.

ماذا كان «شكل الكلام» ذاك الموجود خارج الكلمة وصوتها؟ إذ

يسعى أعظم الشعراء إلى ذلك، لكن قلة قليلة منهم يستطيعون تحقيق ذلك، حتى لفترة وجيزة.

لقد خبرنا غياب شمس باعتباره وجوداً، وقد استخدم الرومي نفسه كلمات «الاتحاد والفراق» بنفس تلك الروح، عندما كان يتحدث عن الحب اللاهب، كان يشير إلى نفسه بأنه «مطفأ،»، «بلا صوت». رأيت أن فترة الفراق تلك كانت هامة، لأننا أحسسنا أنها بمثابة فترة حَمْل. لا كنهاية، بل كبداية. لقد ولد الشاعر أمام أعيننا. كان فجر كل يوم يجلب معه نوره وجدوله من الكلمات، مقدّرة على نحو غريب في كمال الرجل الذي منحها حياة، حتى تسكت أو تنطفئ.

بعد فترة طويلة، عندما منحني شرف أن أكون رفيقه النهائي، اعترف لي مولانا قائلاً: «في بلدي، لا توجد مهنة أكثر احتقاراً من مهنة الشاعر. لو بقيت هناك، لعشت وفق نزواتهم، والتزمت بما يطلبونه مني، أعلّم، أكتب كتباً، ألقي خطباً، وأصبح زاهداً - كلّ الأمور الخارجية».

لكنه نسي أن يقول إنه لو بقي في ذلك البلد، ولو لم يلتق بشمس، لما أصبح الرومي قط.

واصلت الكتابة. ازداد عدد صفحات دفتر «مقالات شمس». كتبتُ كلّ جملة، مُزّقت من النسيان أو من الغزارة في الدفتر الثمين الذي أضحى بالنسبة لمولانا فم حبيبه. أثناء كتابتها، كنت أسأل الرجال والنساء، السادة والخدم، الأصدقاء والأعداء. هكذا أصبح بإمكاني أن أكشف، من الكلمات القليلة التي قالها شمس قبل أيام قليلة من تعرّضه للإهانة على الملأ، عن نيته في الرحيل.

متعباً من تراجع اهتمام الرومي - لا نعرف إن كان ذلك متعمّداً

أم عفوياً - ممزّقاً بين الإحساس بفهمه بالكامل، فهم ردّ فعله، والرغبة في أن يكون كلّ حبيب من الحبيبين في المركز، النور، تيار الهواء الذي لا يمكن للحياة أن تستمر بدونه، كشف شمس هذه المعضلة لذريانوس، معضلة، في يوم ما، مثل عابر سبيل مجهول، يطرق باب العاشقين:

«بالنسبة للبعض، قد يكون الوصول هو الخلاص. وأما بالنسبة لآخرين، فإن الرحيل هو الخلاص. انتبه وانظر جيداً هل الخلاص بالنسبة لك هو الوصول أم الرحيل».

إننا نعرف الجواب. ففي ٥ شوال سنة ٦٤٥ هجرية، رحل شمس التبريزي. لا بد أنه خرج من باب المدرسة ليظهر نفسه للقتلة، أو ليلبي رغبات الرومي -«يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد» - لكنه فعل ذلك لأنه أراد أن يفعل ذلك. نعم، لقد أراد شمس التبريزي أن يرحل. بالنسبة له كان الرحيل هو الخلاص. لقد أحسّ بذلك، حتى لو لم يأت القتلة الذين استأجرهم ابن الرومي الأصغر، حتى لو توسل له مولانا أن يبقى، شمس الطير، «نَفَس نَفَس النَفَس» - وهنا يمكنني أن أعدّد بسرور دعاء المحبوب «الذي يلج من الصدر، ويخرج من العقل، ويمضي إلى الفراق» و «موقد الماء والطين» و«مدمر السطر والأسلوب» و«أفضل نبيذ صاف مقطّر من الأسرار» و«اللهب من عالم النور» و«الليل» و«صوت العود» و«المسك المطحون مع العطريات» و«يوسف بحد ذاته» و«غازي الصدأ» و«المصباح فوق طور سيناء» و«من يخلع رداء الزهرة» و«أعظم منجم من بين جميع المناجم» و«الواحد الذي قبل ذاك» و«القمر على الأرض» و«الفجر في منتصف الليل» و«الدرع في خطر» و«سحابة المطر الحلو» و«المحيط، حامل اللآلئ» و«مشعل المهرّبين» و«سلسلة

قساة القلوب» و«السعادة المبتسمة» و«رفيق السجن» و«اللصّ والدليل على طول الطريق» و«مسيح كلّ الأحزان» و«مقلقل الصبر» و«سارق العقل» و«منشئ النظام» و«القطرة والمحيط» و«الرقة والغضب» و«السكّر والسمّ» و«الماء والمزهرية» و«فاكهة الفقر» و«حجرة الشمس» و« البذرة والفخّ» و«الخمرة والكأس» و«النيء والمطهو» و«الراحة والإعياء» و«السائر البهي» و«محطم الأيقونات» و«شافي العشاق» و«مختزل العالم» و«القلق الآن» و«السيل الذي يُسرق» و«الملك الذي يغذّي العشق» و«القدم واليد» و«وجود كلّ وجود» و«البصر والسمع» و«ضوء النهار» و«البهجة التي تحرق الحزن» و«الغيمة حاملة السكّر» و«علم العالم الجديد» و«القلب الملطخ بالدم» و«نَفَس نوح» و«رغبة الروح» و«صحة المرضى» و«الماء المتدفّق في قلب الجدول» و«عمى الآخرين» و«أبو البهجة الجديدة» و«ثاقب شريان الحياة» و«الكرة التي يرى فيها العالم» و«مصحح النكتة» و«البهجة في البهجة» و«قاطع السهام» و«سيد البحث عن العالم» و«القمر الذي يفيض في السماء» و«اللؤلؤة الأعظم من البحر» و«الجبل الذي يتجاوز السهل» و«ملك الجن الذي يستطيع القمقم احتواءه» و«ماء الخلود» و«بداية النهاية» و«السكران وساقي الخمر» و«المرئي والمخفي» و«قاسم الفجر» كان سيغادر.

حُكي عن فراق شمس والرومي، كما حكي عن اتحادهما، بلغات مختلفة وبطرق شتى. وقد تناول كلّ من تلك الروايات جزءاً من الحقيقة، الحقيقة التي شهدها أو كان يتمنّى أن يشهدها ذلك الرواي، فقد حُكي لي أنه في ٥ شوال، عندما اكتشف الرومي أن شمس لم يعد للانضمام إليه كدأبه، تجشم عناء الذهاب والبحث عنه في المدرسة. وعندما لم يجده في المدرسة، جرى إلى غرفة النوم

التي ينام فها سلطان ولد، وقال: «يا بني، اترك نومك، استيقظ، واذهب واجلب لي مرشدي. فللمرة الثانية، حُرمت أنفاسي من عطر رقته».

وقيل إنه في ٥ شوال، بينما كان الرومي وشمس وحدهما، نادى رجل بصوت واهن، من الخارج شمس. فنهض شمس وقال لمولانا إن أحداً يدعوه ليقتله، فردّ الرومي، «إنه أفضل شيء تفعله»، فغادر شمس. وعلى الفور، طعنه سبعة رجال، فصرخ صرخة شقّت عنان السماء إلى حد أنه أُغمي على قاتليه، وعندما استعادوا وعيهم، لم يجدوا شيئاً على الأرض سوى بضع قطرات من الدم.

سمعنا صيحة شمس. صيحة ألم، صيحة عزلة، صيحة النفي، صيحة العزلة والفراق، صيحة الرحيل. بالنسبة للرومي، كانت صيحة تنطوي على قوة إبداعية. قرأت في «فهرست» ابن النديم أن النبي والرسّام ماني كان يعتقد بأن الخلاص هو نداء يُرسل من عالم النور إلى عالم الظلال، إلى الإنسان البدائي العالق في المادة، نداء مثل سيف مشهر كشف للإنسان البدائي أصله المضيء. لفترة طويلة حاولت أنا نفسي أن أسمع هذا النداء في نفسي. كيف يمكن أن تبدو صيحة الخلاص، صيحة الخلق، صيحة تُحبل الكون؟ لكن بلا جدوى سألت الفقهاء. بالنسبة لكهنة الزرادشتية، كان ماني كافراً (وقد قُطع جسده إلى نصفين ثم عُلّق بالمسامير على إحدى بوابات كتيسيفون)، وبالنسبة للمسلمين فإن مواهبه ليست أعظم من مواهب رسّام ممتاز. لم أشعر باليأس. عرفت أن شمس، العصبي المتقلّب المزاج، كان بإمكانه أن يُسمعني هذه الصيحة. لقد فعل ذلك في ٥ شوال ٦٤٥. نعم، في داخلنا، سمعنا جميعاً صيحة ستغدو بالنسبة للرومي، صيحة خلق، صيحة ولادة، صيحة خصب، صيحة حبلى

بالأشعار. رأيت هذه الصيحة تخترق عروق مولانا الستّمائة والستّة والستّين عرقاً، رأيت مولانا يتحوّل إلى شخص آخر، رأيت الاحتراق يحدث أمام عيني.

لقد عبر الشيء الذي لا يمكن عبوره. لقد هجر الرومي شمساً. لقد غادر شمس بمحض إرادته، سواء أرغم على ذلك، أم لأنه أحسّ بالإهانة، لا أعرف. لقد تردد صدى تلك الصيحة في آذاننا. كان اختفاؤه جزءاً من دورة تنبؤية، تشبه اختفاء الإمام الثاني عشر للشيعة، الإمام الذي ينتظر يوم الغضب والعفو. لقد تبخّر شمس. تحلّل. ذاب. تلاشى. شمس لم يعد. لقد نفذ شمس إلى داخل الرومي.

كان ذلك رحيله الثاني. اليوم، عرفت ذلك. فهو لن يعود أبداً. لقد عرفت ذلك منذ يوم الصيحة.

قال البعض، بل وكتبوا بأنه قُتل في قونية. قتله الغيورون والغاضبون بتشجيع من ابن مولانا العاق.

لا أظن ذلك. لأنني لم أر جثّته. ولم يظهر طيفه قط في الليل ليدعو إلى الثأر.

غادر شمس للمرة الثانية، ولم يعد قط. هذا كلّ ما في الأمر. راح ينتقل من مدينة إلى مدينة، وقد غيّر اسمه، وبكلماته الغامضة، أرهب أرواحاً فاترة. ربما يكون قد مات الآن في مكان لا يعرفه أحد منا. في مساء أحد الأيام، تعرف أحدهم عليه. متى؟ في أيّ مدينة؟ من هو هذا الشخص؟ لا أهمية لكل ذلك. إني أجد متعة باستعادة ذلك المشهد. يسأله الشخص، «هل أنت شمس التبريزي؟ ماذا تفعل؟»

«عمَّ تتحدّث»، أجابه شمس.

فقال الرجل: «إني أتحدّث عن الدرويش العجوز الذي لا يطاق الذي تمكّن من استعباد أعظم المعلمين. إني أتحدّث عن شمس التبريزي، شمس الجامح الذي لا يمكن ترويضه، شمس الذي لا سبيل إلى الخلاص منه، شمس الغاضب، شمس المخزي، المهين. شمس غير المخلص. إني أتحدّث عنك».

«لست أنا الرجل الذي تتحدّث عنه»، قال شمس.

«إنه أنت، ولا أحد غيرك».

«لست أنا»، قال شمس.

«إنه أنت».

ثم رفع شمس عينيه نحو السماء، وعاد وأطرقهما إلى الأسفل، ووضع رأسه بين يديه، وقال للشخص الغريب الذي دنا منه، بصوت لايكاد يكون مسموعاً، «لست أنا شمس التبريزي لأن شمس التبريزي مات. لقد رأيته ميتاً».

«ممَ مات؟ هل قُتل؟ من قتله؟» قال الرجل.

مدّ شمس يديه إلى الأمام وأجاب بصوت متهدج: «إنه أنا. أنا من قتله. أنا من قتل شمس التبريزي».

تراجع الرجل خطوتين وحدّق في الرجل الذي ظنّه شمس التبريزي - إنه هو - أضاف، «من الطبيعي أنني لم أكن وحدي. إننا لا نكون وحدنا عندما نقتل أحداً. كان مولانا لا يفارق محبوبه. لم نعد نحتمل ذلك، كنا نريد أن نراه معنا، أردناه أن يعود إلينا. لذلك صرخنا، جميعاً بصوت واحد «شمس التبريزي، اخرج إلى الشارع إن كنت رجلاً! ناديناه عدّة مرات ليخرج».

«وهل خرج؟» سأله الرجل.

شمس التبريزي - هل كان هو؟ - يتنفّس الآن بسرعة، خفض

صوته قليلاً، كما لو أن شيئاً فيه يريد أن يصرخ، وقال: «في لحظة واحدة، من الداخل، سمعنا صوت مولانا. سمعناه بوضوح. سمعنا ذلك الصوت يقول: «اذهب، لا يمكننا أن نهرب من قدرنا»».

«هل هذا ما فعله؟»

«هذا ما فعله. لقد أطاع سيده. أطرق برأسه وغادر. كنّا جميعاً معاً، ننتظره في الشارع، حاملين العصي والسكاكين. كنت واحداً منهم. ما إن خرج، حتى قتلناه».

«لكن لماذا خرج شمس؟ فقد كان يعرف أنه يجازف بحياته».

«خرج لأن سيده طلب منه أن يغادر».

«لكن سيده كان يحبّه! من غير الممكن أن يرسله سيده إلى حتفه».

«في الحب كلّ شيء ممكن»، أجاب شمس، «حتى غياب الحبّ».

صامتاً، نظر الغريب إلى الرجل الذي ظنّه شمس التبريزي. ثمّ سأله مرة أخرى: «وهل غادرت؟»

«نعم، غادرت. أما الآخرون فلا أعرف عنهم شيئاً. لا أريد أن أعرف ماذا يفعل الآخرون. لقد غادرت، ومنذ ذلك اليوم، وأنا أسير باحثاً عما فقدته».

«ماذا فقدت؟»

«لا أعرف»، ودّع شمس الرجل بإيماءة بيده. استدار وغادر، وهو يعرج قليلاً. بدأ الضوء يبهت. وسرعان ما اختفى الرجل العجوز.

كتاب صلاح الدين

أنا هو....

في هذه الفترة، بدأ الرومي يقيم جلسات السّماع باستمرار، وكان العازفون والراقصون والمغنون المنهكون ينهارون من شدة التعب ويغطون في النوم على أرضية «السّماع خانه»، بينما يستمر أنين الناي الذي خَفَتَ الآن المنبعث من شفتين مرهقتين يصل إلى آذانهم المليئة بالنوم. كان مولانا لا يتوقف عن الدوران ونظم الشعر، بلا كلل ولا ملل.

الشيخ، الطبيب العظيم،
أصبح شاعراً للعشق،
وأصبح التقي تاجر خمر،
وأصبح العشق طريقه،
أصبح دينه وديدنه،
وكلّ ما هو ليس عشقاً
فهو مجرد وهم.
في طريقه، لم يعد هناك كفر،
أصبح شمس التبريزي ملك ملوكه.

هكذا وصف سلطان ولد حالة والده بعد اختفاء شمس نهائياً.

لم يمرّ يوم من دون أن يأتي غريب إلى المدرسة لينقل له ما يدعى خبراً عن شمس. لقد طلب مولانا أن نسمح لكل من يأتي بالدخول، وكان مستعداً للاستماع إلى أي رواية يحكيها له ذلك الغريب. روايات متناقضة كانت تضع شمس أحياناً في بلاد الشام، وأحياناً في بلاد فارس، وأحياناً أخرى حتى في الصين. وقد شوهد وهو برفقة امرأة وأطفال، لكن أيضاً برفقة شابّ، أو وحده وهو في حالة بائسة. وزعم أحدهم أنه شاهده في الليلة الماضية في قونية نفسها، متنكّراً في هيئة بائع ألبسة قديمة، يقايض الإبر بثياب قديمة.

«لماذا لم توقفه؟»

«اختفى حتى قبل أن أتمكن من وضع يدي على كتفه».

وفي يوم آخر، جاء رجل. كان منهكاً يلهث. وادّعى أنه سلك الطريق بين دمشق وقونية دون أن يتوقف، دون أن يستريح. لكن الرسالة التي كان يحملها جديرة بالعطش والجوع والإعياء الذي عاناه. لكن مولانا أصرّ على أن يستعيد المسافر طاقته أولاً، وهذا ما فعله. تحلّقنا حوله جميعاً، آملين أن نصدق المعلومات التي سيقدمها لنا. عندما تجشّأ بصوت مرتفع، سمح له الرومي الذي تيقن أن معدة الرجل قد امتلأت، بأن يتكلم.

«سيدي، شاهدت شمس التبريزي في ميدان دمشق في أمسية الاحتفال بالألعاب النارية السنوية. كان آلاف الحواة والعرّافين والباعة المتجولين يملأون الشوارع التي تنيرها الفوانيس. وكانت الفيلة الهندية المكسوة بالمخمل والمنارة بالشموع تسير في استعراض جميل على إيقاع قرع الطبول، وكان البهلوانات والراقصون يقذفون أقراص النار، وكانت جموع المبتهجين بالأضواء والضوضاء والألوان والموسيقى يتصرفون كما يتصرف الكثير من الأطفال المذعورين».

حدّق مولانا في فم ناقل الخبر. حاول أن يتخيّل شمس مرتدياً عباءة سوداء، ضعيفاً متجهماً، غارقاً في لجة تلك الضوضاء والأنوار المتلألئة. كان يعرف تماماً أن شمس لا يمكن أن يكون موجوداً في موكب الحيوانات ذاك، ولا يمكن أن يرفع عينيه لمشاهدة الألعاب النارية، لأنه كان يكره الحشود والاحتفالات. لكنه أبدى اهتماماً بهذه الحكاية مما يظهر مدى تعطشه لسماع أخبار عنه. أما الرجل الآخر، الحكواتي المحترف، فقد كان يطيّب حكايته بالبهارات، فزعم أن فيلاً من تلك الفيلة كان يحمل الوعاء الذي تحفظ فيه الذخائر المقدسة وكانت فيه إحدى شعرات النبي. وعندما سار ذلك الفيل أمام الناس خرّوا ساجدين أمامه وقبّلوا الأرض. وبسبب الإهمال، اشتعلت النار في فتى لا يتجاوز السادسة من العمر كان يرقص ويلعب بالنار. ولكي لا يتوقف عن رقصة اللهب التي تعتبر تقليداً قديماً، أمر والد الفتى الراقص الذي يقود الاحتفالات بمواصلة الرقص على الرغم من الألم والحروق التي أصابته، لأن هذه الطقوس يجب أن تنتهي كما هو مرسوم لها. وقد يكون أيّ توقف وأيّ تغيير قاتلاً، وقد يفضي إلى سنوات من الجفاف والحروب وتدفق أنهار من الدم وغزو العقبان.

بينما كان يستمع إلى ما يقوله هذا الرجل، كان تفكير مولانا مركزاً على شمس وهو بين الحواة والبهلوانات. هل هو سبب الحادث الذي لحق بالفتى الراقص؟ هل دفعه دفعاً إلى ذلك أم أنه ارتطم به؟ إنه قادر على عمل ذلك، كان الرومي يعرف ذلك. سأل الحكواتي عن ذلك، فأجاب الرجل القادم من دمشق بأنّ شمس كان دائماً موجوداً بين جموع الناس: وحتى لو أخفاه الظلام، لظهر ثانية، بعد فترة وجيزة، مضاء بشعاع من الأضواء المنبعثة من الألعاب النارية.

بينما كان الرجل لا يزال يروي حكايته، طلب مولانا من ذريانوس بصوت منخفض أن يجلب له بعض الثياب الفاخرة مكافأة للرجل، وسرعان ما عاد ذريانوس محمّلاً بثياب جديرة بأمير من أمراء ألف ليلة وليلة.

عندما رأيت الثياب، كدت أقفز من مقعدي. ماذا؟ كلّ هذه الأشياء لهذا الرجل الذي لم يكن يوثق في كلامه؟ ألستُ أنا، حسام، محاسب المدرسة؟ كنت أتوقّع حدوث مشاكل مالية: ديون، التفاوض على سعر الفائدة، وتسديد القرض من تقاضي مبالغ مرتفعة من أجل رؤية مولانا، وهو أسلوب لبق لجمع النقود منذ أن كان شمس هنا.

أجاب الراوي على جميع الأسئلة، وراح يروي تفاصيل بالغة الدقة. وحسب ما قال فقد كان يبدو على شمس الإنهاك والاضطراب. كان وحيداً. وكان يتصرّف أحياناً كما لو أن أحداً يتعقّبه فيتلفت حوله باستمرار كأنه يريد التيقن من أنّ أحداً لا يتبعه. وعندما لاحظ شمس الراوي مرّة أخرى، استغلّ الظلام وانسلّ بين الجموع واختفى. وعينه على الثياب، واصل الرجل كلامه:

«لكني عرفته. تابعت حركاته. حتى من بعيد تمكنت من تحديد مكانه، حتى عندما اختبأ وراء الفيل الضخم الذي يحمل وعاء الذخائر المقدسة، حتى عندما توارى بين الجموع. كنت أشعر بعينيه تبحثان عني. لكن لما كنت ضئيل الحجم، ظللت مختبئاً».

طلب منا مولانا أن نفرد الرداء والنعال والعمائم، وقطعاً من القماش المطرّز بخيوط ذهبية وفضّية، والمخمل المرصّع بأحجار كريمة أمام أعيننا.

لم أر شيئاً كهذا من قبل. فلم يسمح أي شخص من معارفنا

لنفسه قط أن يعرض ثروته أمام الآخرين بهذه الطريقة. حتى معين سليمان، المسؤول في بلاط السلطان وصديق المغول، كان يخفّف من شدة ألوان أرديته البيضاء والبني الفاقع والسوداء كلما جاء إلى المدرسة.

لمس الرجل القادم من دمشق، خيوط الذهب التي تزيّن أردان السترة بأطراف أصابعه وكشف عن موجة أخرى من التفاصيل.

«تقدّم شمس التبريزي إلى الأمام مع جموع الناس. وعندما دنا منه فجأة، تلفّت شمس حوله وبدا أنه عرفه. تبادلا عدّة كلمات، وهمس أحدهما في أذن الآخر، ثمّ أخرج شمس من جيبه محفظة وأعطاها له. تناول الرجل المحفظة وأمسك بيد شمس للحظة».

كان مولانا يعرف تمام المعرفة تلك اليد النحيلة، والأصابع الملطخة بالحبر أو بالزعفران، والأظافر المسودّة من البرد. لقد أمسك طويلاً بتلك اليد التي كانت ترتفع أثناء رقص السماع لتصبح الحبل الذي يصل السماء بالأرض. لقد أحبّته تلك اليد، داعبته، اختطفته من العالم الرتيب للمشاعر العادية لتلقي به في فجر النمو والخصب الأبدي. كانت جميع أحاسيس الرومي تعرف تلك اليد. لقد استكشف لسانه طعمها، استكشف أنفه رائحتها، لمست أصابعه أعصابها. تلك اليد التي أمسك بها رجل غير معروف في ليلة الاحتفال في دمشق، كان حقاً الرجل الذي لا يمكن تمييز يديه عن يدي مولانا، عندما، لفّ إحداهما في الأخرى، أكّدا اتحادهما.

بعد أن قدم له الشاي، وصف الراوي رفيق شمس بدقة. فلم يبدو أنه كان شاباً جداً. وقد خَطَّ الشيب شعره - لاحظ ذلك بالرغم من الظلام - وطريقة مشيه لم تكن مستقرة.

ألقيت نظرة على مولانا. لم يعد موجوداً معنا. لقد انتقل إلى

دمشق. ثبّت نظرته على اليدين المعقودتين. من يمكن أن يكون ذلك الرجل الذي يعاني كثيراً في المشي؟ فجأة، طلب من ذريانوس أن يساعده على خلع ثيابه.

«أمام الجميع؟» سأله اليوناني.

«أمام الجميع».

خلع ذريانوس عمامة الرومي، ثمّ ثوبه، ثمّ سترته وسرواله. كان جسمه قوياً مفتول العضلات بنقيض بشرته الصفراء الشاحبة.

عارياً، أو يكاد يكون كذلك، قدّم مولانا للحكواتي القادم من دمشق، الحرائر المطرّزة مع ملابسه هو. حاول ذريانوس الذي يعتبر أن قيمة ثياب الرومي اليومية تضاهي كثيراً قيمة أيّ ثياب مذّهبة، التدخّل لوقف هذا الكرم غير المبرّر.

«مولانا، إنك ترى أنه يكذب. فلم يعثر أحد على شمس التبريزي».

وافقته على صراحته. ولما كنت محاسب المدرسة، فقد كان بوسعي أن أبيع قطعة من عمامة مولانا إلى رجل ثري وأكسب ما يكفي لإدارة المدرسة لمدة أسبوع. بدأت أحسب ما تساويه ثيابه كلها: ثروة صغيرة.

ابتسم مولانا لذريانوس. خلع جوربه ومدّه له، ثم أضاف، «كلّ ما تراه أعطيته لهذا الرجل لأنه كذب، ولو قال الحقيقة، لمنحته كلّ حياة أملكها».

كما كان الحال مع الآخرين جميعاً، ومع أنه لا يمكن خداعه، كان يتقبّل القصص التي يحكونها عن شمس. كان ذلك ضرورياً بالنسبة له. كما لو كان، بالإضافة إلى الهواء الذي يتنشقه والماء الذي يشربه، في كلّ لحظة، يجب أن تشعر أحاسيسه بشمس. فقد

شدّت قصّة الاحتفال الليلي ويد الحبيب في يد شخص مجهول، مع أنها مختلقة، وأثارت مشاعر الرومي، إلى حدّ الغيرة. لكن بالإضافة إلى مشاعر الكبرياء والامتعاض، برزت لديه الحاجة إلى جعل الآخر كليّ الوجود، حتى لو كان يعني ذلك بأن عليه أن يعاني.

كان مولانا يجازف في الدخول إلى عالم لم يعد يتحكم فيه. لماذا يعذّب نفسه الآن بسبب لقاء جرى بين شمس وبين شخص غير معروف، وهو الذي شجّع على هذا الضرب من السلوك عندما كان شمس في قونية؟ فكم من مرّة شجّعه على أن يقيم رقص السّماع مع أشخاص آخرين ليصرف انتباه الذين يركّزون عليهما باستمرار؟ وكان شمس يفعل ذلك. فقد دعا في حضور الرومي مريدين شباناً لمشاركتهما في رقصتهما الوجدانية. لم تكن تنتاب مولانا أي مشاعر بالعداوة آنذاك، بل على العكس، كان يبدي إعجابه بهيمنة شمس على الراقصين الآخرين. كم مرّة حكى شمس للرومي عن سيطرته على رجل مسن مكتنز أو شاب، «قدم في الحظ» بمعنى آخر «جاهز للزواج» بالفارسية. لم يكن يبدو على مولاي التأثر بذلك. في الحقيقة، كانت تلك القصص تسلّيه. كان مراده أن يدخل شمس السرور إلى نفوس الرجال والنساء، صغاراً وكباراً وإلى نفوس المريدين فضلاً عن الوزراء والأغنياء فضلاً عن الفقراء. كان شمس يوافقهم أو يصدّهم. أما مولانا، فقد كان يستقبل المعجبين به ويكرمهم، ويصدّ الذين يذمّونه وينتقصون من قدره، لماذا بدأ يعاني الآن وهو يستمع إلى هذه القصة المختلقة؟ لعله كان يريد أن يعاني؟ لعله أصبح الآن جديراً بالمعاناة؟

تملكت مولانا فكرة الذهاب إلى دمشق والبحث عن شمس، آملاً في سريرته ألاّ يجده. كل الإشاعات كانت تتحدث عن وجود

شمس في دمشق. كان الرومي يعرف، كما نعرف نحن، أن أحداً منهم لم يكن موضع ثقة، وأن أحداً ممن أرسلناهم لتعقب المخبرين لم يتمكن من الحصول على أي معلومات دقيقة. ومع ذلك أصرّ مولانا على السفر إلى دمشق. لقد حدث أول لقاء بينهما في الميدان الرئيسي في المدينة، عندما قال شمس لمولانا: «يا صرّاف عالم المعاني، أدركنا». وكان سلطان ولد قد سافر إلى دمشق ليبحث عنه بعد فراقهما الأول.

كنت أنا وذريانوس وسلطان ولد نعرف بأنّنا لن نعثر عليه مرة أخرى. حتى أن سلطان ولد كان يعتقد أن شمس قد قُتل وأنّ من أمر بقتله لم يكن سوى شقيقه. لكن كيف يمكنه أن يقرّ بذلك؟ كيف يمكنه أن يؤكّد أمام والد يدفع مبالغ كبيرة لمجرد سماع أخبار ملفقة بأن ابنه الذي يجري دمه في عروقه هو الذي أنهى حياة شمس. وبعد عدة سنوات، عندما رأى حلماً بيّن له المكان الذي أُخفي فيه جسد شمس، أقرّ لي سلطان ولد بأنه أصبح يعتقد بأن شمس قُتل وأُخفي جسده.

لم نتمكن لا أنا ولا ذريانوس ولا حتى سلطان ولد من نصح الرومي بعدم السفر إلى دمشق، ولم يكن بإمكان أحد أن يقنعه بذلك إلا صلاح، صائغ الذهب، الذي بدأ يزداد قرباً من مولانا، لكنّه قال إنه لا يستطيع أن يثني الرومي عن ذلك.

برفقة ابنه وحفنة من مريديه وبضعة عازفين، سافر الرومي إلى دمشق. كانت رحلة عقيمة لا جدوى منها.

وكالعادة، بعد أن سافر مولانا، أغلقنا أبواب المدرسة وكنسنا الفناء. في تلك اللحظة بالذات، بينما كان الغبار في حجرة مولانا يتطاير في الفضاء، اكتشفت في نظرة صلاح وهن نظرة شمس عندما

لم يكن الرومي في الحجرة. الوهن نفسه سينزلق إلى عيني بعد عشر سنوات، عندما حُرمت أنا نفسي من وجوده.

من دمشق تلقيت رسالة من سلطان ولد. كان في صدر الرسالة قصيدة للرومي عن شمس يصف فيها بحثه اليائس:

كم مرّة بحثتُ عنكَ
من بيت إلى بيت
ومن باب إلى باب؟

وكم مرّة هربتَ
من ناصية إلى ناصية،
من شارع إلى شارع؟

كما قال سلطان ولد فقد أسر تمجيد الرومي لشمس أثناء رقص السماع أهالي دمشق، المتعلّمين منهم أو الأمّيين، الأغنياء أو الفقراء، الأطفال أو المراهقين أو العجائز. لكن فوق كل شيء، كان الرومي يشعر بأنه يرى نفسه في شمس، أنه لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر.

في أحد الأيام أسرّ له والده:

لا ترانا كاثنين، لأننا واحد،
ففي الاثنين شكّ،
أما نحن فلا شكّ فينا،
لا تنظر إليّ على أنني أختلف عن شمس.

لدينا روح واحدة،
اذهب، انس وجهينا.

وقال سلطان ولد إن أهل الشام الذين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن شمس، لم يفهموا كيف يمكن لعالم جليل يمكن أن يُدعى نبياً، أن يغضب ويرتعش ويثمل من أجل درويش عجوز غير معروف. «بلا رأس ولا قدمين». لقد صادفنا عدم فهم الناس في كل مكان. وسواء في قونية أم في دمشق، سواء أكان المرء يعرفه أم لا، لم يكن شمس يبدو أنه جدير بكل هذه الحماسة، ولم يكن يثير إلا مشاعر البغض والعداء.

سارت الأمور في قونية كما كانت في السابق. واعتمدت حياتنا على الرسائل الواردة من دمشق. وفي أحد الأيام، عرفنا أن الرومي وحاشيته يستعدّون للعودة. مرة أخرى، كنسنا الفناء، وسقينا الزهور، ونفضنا جميع السجاجيد في المدرسة كما لو كنّا نحتفل بقدوم السنة الجديدة. لكننا كنا نعرف في سريرتنا بأن عودة مولانا بدون شمس ستجلب الحزن والكآبة.

حتى زوجته كيرا التي أصبح بإمكانها أخيراً، بعد رحيل شمس، أن تستعيد زوجها، أحست بالكآبة. إن إعادة لمّ الشمل الذي كانت تأمله يتطلب شريكاً متألقاً، ولا يوجد رجل يمكن مقارنته بقصبة اقتطعت من الغاب. إن عودة الرومي «خالي الوفاض» لا تبشّر بأيّ بهجة أو عاطفة للزوجة المهجورة. كان عليها هي أيضاً أن تنتظر.

في البيت تركت القطط التي تنتظر عودة مولانا الوسائد والبطانيات والبسط حتى تنظف نفسها لتقدم أجسامها النظيفة لمداعبات مولانا اللانهائية التي أحست أنها أصبحت وشيكة.

وطالما تساءلت ألم يكن وجودها يزعجها، فقد كان بولها يملأ كلّ زاوية من زوايا الحائط، حتى داخل الحجرة التي يختلي فيها الرجلان، لم تكن هناك إشارة تدل على سخطهما، لأن الشعر الأبيض كان يغطّي الفراش وكان يعلق بسروال الرومي الأسود وسترته ومعاطفه.

عاد مولانا واستقرّ في المدرسة. عاد وهو في حالة جيدة، جزلاً. لم يبدُ أن بشرته الشاحبة قد تأثّرت من الرحلة، أو من غيابه. فأخذ يرقص ويدور ويذهب إلى الحمّام وينظم الشعر ويغني. أصبحت أعرف الآن أن الاتحاد مع شمس والانفصال عنه، خزي اتحاد محرم، ألم الجفاء، حيرة التجوّل والبحث، لم يسفر إلا عن خاتمة باطنية وهي إكساب الأدب الفارسي أجمل أشعاره، المجردة من كلّ تكلّف، القصائد التي تخترق قلوبنا مثل سكين حادّة إلى الأبد «تفاصيل العشق في العالم».

مرة أخرى بدأ الزوّار ينهالون علينا بأخبار كاذبة، وأراد المتلصصون أن يروا بأم أعينهم «لهيب العشق».

بالنسبة لهم، كان شمس في دمشق يعمل معلماً عند أسرة ذات نفوذ. يصعب عليّ أن أتخيّل أن يقوم بتعليم تلميذ صغير. ليس هذا ديدنه. فبإمكانه أن يغيّر مصير طفل ببضع كلمات، بنظرة، لكن يقيناً ليس بالتعليم لفترة طويلة وبصبر. لا أزال أتذكّر قصّة الفتى الذي أصابته كلمات شمس بالذهول، والذي قال إنه يريد أن يبقى معه، «ساكناً كالأرض»، والذي مات ولمّا يتجاوز الثامنة عشرة من العمر. لم يكن ذلك الفتى قد نضج ليحمل عبء شمس. لا يزال بإمكاني أن أرى شمس يقول لي: «في أحد الأيام، كنت أدرّس مجموعة من الطلاب. وبدافع الحبّ حكيت لهم عن أشياء فظيعة. دمّرت

عواطفهم». كيف يمكن لمدّمر عواطف أن يعيدها الآن إلى الوجود؟ همس لي صوت بأنه ربما حان الوقت ليفهم تلميذ أخيراً أن التعليم الذي يقدمه شمس هو هبة وليس عبوديّة، انتشار وليس امتداداً، بأنه مرّ المذاق، لكنه يؤدي في النهاية إلى الحرية، إلى تميّز الشخصية.

لا بد أن مولانا صار يفكّر بالطريقة ذاتها. فقد قرر ذات يوم أن يسافر إلى دمشق مرة أخرى ليبحث عن شمس. فأعدت نفس التحضيرات نفسها لانطلاق الرحلة، نفس العربات المليئة بالنايات والدفوف، نفس الرفاق الشكّاكين، نفس الوداع الحزين: نفس خيبات الأمل.

كان سلطان ولد على قناعة بأن أعداء شمس قتلوه، لكنه لم يجرؤ على إخبار والده بذلك لأن الصدمة الثالثة، بعد اتحادهما وافتراقهما، ستكون مميتة له. لذلك أخفى عنه الحقيقة. وكان ذريانوس يعتقد بأنّ الطير قد طار مرة أخرى، مع أن هذا الطيران الأخير قد يكون سببه حبيبه. كش كش، قال الرومي، فطار الطير. رأيت مولانا مقتنعاً تماماً بالغياب والفراق. بالنسبة له، لم يسهم هذا الذهاب والإياب في العثور على شمس، بل ساهم في بحثه الروحي الذي لم يتوقف. فلم يسافر مولانا إلى دمشق بحثاً عن شمس، بل سافر ليجده في مكان آخر بعيداً عن نفسه.

لذلك سافر إلى دمشق مرة أخرى. بعث لي سلطان ولد مرة أخرى رسائل مليئة بقصائد كتبها والده. فلم يتوقف الرومي عن نظم الشعر، ولم يتوقف عن إرسال مبعوثين للبحث عن شمس الذي ظل مختفياً. وكالعادة، ظل أكابر القوم والناس العاديون والمفكّرون يفدون إلى بيت الرومي، وكما جرت العادة، مع أنه توقف عن إعطاء الدروس، كانت أدنى كلمة ينطقها تتحول إلى قول مأثور بالنسبة لنا.

ففي إحدى الرسائل التي أرسلها سلطان ولد، لفتت انتباهي ملاحظة مرتجلة. فقد قال إن الرومي اختار صديقاً جديداً، وهو الشيخ حميد الدين النامي «الذي رأى في مرآة سلوكه صورة المحبة».

هكذا إذن، فقد بحث الرومي في دمشق عن شمس في المرآة التي وضعها أمامه صديق شاب. لم أعرف شيئاً عن هذا الرجل إلاّ اسمه، ولم يستفض سلطان ولد في وصفه لي. لا أعرف ما الذي جعل مولانا يختاره رفيقاً له. ولم يكتشف أحد عمر هذا الرجل الذي اختاره مولانا إلا ذريانوس: فلم يكن شاباً، بل كان يكاد يصغر الرومي ببضع سنوات.

في قونية، لم يذكر أحد كلمة واحدة لصلاح عن هذا الارتباط الجديد. لم تكن السفرات إلى دمشق تزعجه، لأنه كان يعرف أن شمس لن يظهر مرة أخرى، وأنه هجر الرومي كما يهجر أعظم ميراث. لكنه على الرغم من هذا التأكيد الذي كان يؤمن به بقوة، ظل ضعيفاً، حسّاساً حتى إزاء علاقات الرومي الأخرى. وبين السفرتين إلى دمشق، كان يبحث عن أيّ لقاء جديد، خوفاً من أن تجلب تلك الخسارة وجوداً جسدياً ملموساً آخر، خوفاً من أن يسرق شخص آخر قلب مولانا. شعرت أنني أصبحت موضع شك، فلم أعد أجازف في قراءة «مقالات شمس» إلا في حضور صلاح. وكانت بعض الفقرات تتحدث عنه، كالفقرة التي يقول فيها شمس إن كلمات صلاح تشوشه.

في قونية، لم يذكر أحد أي كلمة عن الرجل الذي يدعى حميد. فلم يكن صلاح يحتمل فكرة أن يشاركه شخص آخر في محبة مولانا. ولتأييد الرجل الذي سيصبح الرجل الأثير لدى مولانا، قرّرنا أن نصمت وأن لا نتكلم عن أيّ شيء يتعلّق بمحبة الرومي لذاك الرجل في دمشق. وبعد وفاة صلاح، في أثناء تلك اللحظات المتميّزة من

الخلوة مع الرومي، قرّرت أن أعرف المزيد عن ذلك الرجل الدمشقي. ما السبب الذي جعل مولانا الذي غادر قونية ليبحث عن شمس يتعلّق بشخص آخر؟ فكان ردّه الوحيد، «لم يكن شمس التبريزي أكثر من ذريعة».

مرة أخرى، خيّم الصمت.

هناك مناطق يحظر على العقل دخولها. تمرّ عبر دقات القلب وانقطاع الأنفاس والارتعاش والتأتأة. وللسير فوق تلك الأرض التي بدا أن شمس لم يكن سوى ذريعة له أصبحت أعرف الآن أنّني بحاجة إلى ساقين وقدمين مختلفة تماماً».

في دمشق، لم يعد البحث عن شمس مجدياً، وبدأ عدد ناقلي الأخبار الكاذبة الذين ملّوا التكرار بأنهم شاهدوا شمس عند ناصية شارع، في أحد الخانات، على جسر أو على متن مركب، وبدا أن الرومي قد ملّ سماع تلك الأكاذيب التي تتكرر إلى ما لا نهاية، وشيئاً فشيئاً، حرّر مولانا نفسه من البحث الطويل عن شمس.

وقد كتب القصيدة التالية:

مائة ألف مرة،
أتخلى عن الأمل.
الأمل بماذا؟ بشمس،
لقد تخليت عن الأمل.

وفي الورقة نفسها، عرفت خط سلطان ولد الذي أضاف:

لم ير شمس تبريز في الشام،
رآه في نفسه جلياً كالقمر.

قال: مع أننا بعيدون عنه كثيراً،
فإننا كلانا بلا جسد وروح، نورٌ واحد.
فانظر إليه إن شئت، أو إليّ،
فأنا هو، وهو أنا، أيها الباحث.

قال: إن كنتُ إياه، فلمَ أبحث؟
أنا عينه، وأنا الآن أتحدث عن نفسي
ولماذا أزيد في وصف حسنه،
إن هذا الحسن واللطف نفسه هو لي.

فقد كنت يقيناً أبحث عن نفسي،
كالشراب الذي يجيش في الدِّن،
فالشراب لا يجيش من أجل أحد،
بل يسعى طلباً لحسنه هو.

كانت العودة وشيكة. كنت أعرف ذلك. مرة أخرى، كنسنا ونظفنا الحجرات والحديقة وجميع الممرات. مرة أخرى، استيقظت القطط والنساء في حجراتهن، ربما أصبحن يأملن في لقاءات أكثر حميمية، فعدن إلى السوق وارتياد الحمّام. وحكت لي خادمة كيرا بأن سيدتها أصبحت تبدو أكثر إشراقاً. إن اختفاء شمس الأخير جعل جميع الأبواب مشرعة. لكن ذلك كان لمراقبة صلاح، المريد الذي لم يتغير، من أهالي قونية، الذي لم نعد نوليه أي انتباه.

أشرع الأبواب على مصاريعها

لقد تحدثتُ عن الرومي وسأظل أتحدّث عنه ما دمت قادراً على الكلام. لقد تكلّمت عن شمس وسأتكلّم عنه المزيد. لقد تحدّثت عن نفسي، بأقل ما يمكنني، لكني سأتكلّم أكثر عن نفسي. لقد تكلّمت عن ذريانوس وسأتكلّم عنه أكثر. هناك شخص آخر يجب أن أصفه الآن حتى أكمل دائرة الأصدقاء المقرّبين. هذا الرجل هو صلاح، صائغ الذهب.

في البداية كان لدى الرومي وصلاح مرشد مشترك، هو الترمذي. كانا في نفس العمر، وكان كلاهما يأمل في أن تشعله شرارة. بالنسبة لصلاح لم تكن تلك الشرارة سوى الرومي - بينما كان يخطب عن الترمذي، المرشد المختفي - رأى بعين قلبه، صلاح يشتعل لهباً. لقد شهد هذا التأجج، وعرف أنه هو الرجل المشتعل. أما بالنسبة لاحتراقه، فكان عليه أن ينتظر فترة أطول حتى يلتقي بشمس.

لفترة طويلة كنت أتساءل، وكان يتساءل معي آخرون كيف يمكن لخطبة عن الترمذي ألقاها الرومي وسمعها عشرات المؤمنين أن تخترق روح رجل بهذا العمق وتجعله ينسى أصول اللياقة ويتأجج لهباً. ثم طرح السؤال نفسه عن شمس والرومي. كيف يمكن لهذه

الكلمات المهذبة المتبادلة بين درويش عجوز مرتعش وأستاذ عالم عارف، أن تغيّر الرومي، ثم شمس، ثم الأدب الفارسي، وفي النهاية، روح شعب بأكمله؟ لا يمكنني أن أجيب عن ذلك. لكن من الواضح، على الأقل بالنسبة لي، أن الله، في مناسبات كهذه، قرر أن يصبح مجسّداً لبضع لحظات. ماذا رأى الرومي وشمس في ذلك اليوم البعيد الواقع في ٢٦ جمادى الآخرة من عام ٦٤٢؟ الله نفسه أم الحبيب؟ لا يمكنني أن أجيب عن ذلك. لكني على قناعة تامة بأنه رأى اللهب الذي سيشعله ويأتي عليه.

أما صلاح، صائغ الذهب، فقد وقع الإدراك نفسه في يوم الجمعة ذاك، في مسجد أبي الفضل، عندما كان الرومي يلقي خطبته. سمع الكلمات التي قالها بعينيه المتألقتين، ولحمه المتفحّم. لقد سقطت جمرة فوقه.

منذ ذلك اليوم، لم يفارق صلاح حاشية مولانا، وبدا أنه كان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ينتهي فيها الرومي من شمس، ويتّجه إليه أخيراً. كانت تلك الساعة تقترب. كان بمقدورنا جميعاً أن نشعر بها.

كنا متفقين جميعاً بأن صلاح لا يستطيع أن يعبّر عن نفسه جيداً، فقد كان يمضي أيامه في محله في السوق، وراء ميزانه، يزن الذهب الذي سيجعله يأخذ شكلاً معيناً. لم تكن نظرته، حيثما وقعت، ترى إلا الوميض، انعكاس المعدن والأحجار الكريمة. ولم تكن أذناه تسمعان إلا صوت طرق الفضة والذهب. كيف أمكنه، في مثل هذه الظروف أن يتعلّم القيل والقال؟ كيف يمكن لشخص ولد لأب كان صيّاد سمك، أن يصبح قادراً على إتقان قواعد اللغة؟ لم تكن الجمل التي ينطقها سوى سيل من الأخطاء، وعلى الرغم من ذلك، فقد منع

مولانا أحداً من أن يشير إليها ويصحّحها. ثم، عندما اتخذ صلاح صاحباً، اختار أن يتكلّم مثله، محوّلاً تلك الأخطاء اللغوية إلى وسائل تعبير أكثر تطوّراً. ثمّ بدأت المدينة كلها تقلّد مولانا، وبدأت تتكلم بطريقة خاطئة. ولما كنت قد خالطت منذ طفولتي رجالاً متعلّمين، وجدت نفسي، في عدّة مناسبات، أحرّف بعض الكلمات كما يفعل صلاح.

في إحدى المرات، قال لي شمس التبريزي: «إن كلمات صائغ الذهب تشوّشني».

هو أيضاً، مثل الرومي، رأى في صلاح كائناً يتجاوز اتساق المفردات وجمال اللغة. كان صلاح «حلقة المفاتيح التي تفتح الأبواب على مصاريعها». ولم يكن هو نفسه يعير اهتماماً كبيراً لنطقه الكلمات بصورة خاطئة، بل إنه سرعان ما أصبح يرى، تحت جناح الرومي، أن نخبة المدينة بدأت تقلّده.

عندما أُعلن عن عودة الرومي، توجّه صلاح إلى بيته الذي اتخذ فيه الحبيبان خلوتهما في الماضي، وأزال أيّ أثر لشمس، فوُضِعت قباؤه وأوشحته وعمائمه ونعاله في صناديق وأُرسلت إلى الريف، وقُدمت مجموعة شطرنج شمس إلى أسرة زوجته السابقة، كيميا الصبية، التي سيطر شمس عليها و«هزمها» خلال حياتها الزوجية القصيرة، وأعطيت مقالاته إلى ذريانوس التي انتهت في يدي في نهاية الأمر. هكذا تمكنتُ من إنهاء ملاحظاتي. وخلال لحظات الاضطراب تلك، قبل العودة الثانية من دمشق، كان صلاح هو الوحيد الذي أعدّ لما جاء بعد شمس. لا ريب أنه كان يشعر في داخله أنه هو الوريث، فاستعد أخيراً ليحلّ محل الطير.

عاد مولانا. وعاد رقص السماع والبهجة التي طردت من البيت

مثل حشرة ضارّة، وكان بوسعي أن أسمع أحياناً صوت ضحكات النساء من داخل حجراتهن. ولاحظ ذريانوس نفسه، من خلال شفافية الحجاب، حاجبيَ كيرا المزججين، ورموشها المقوّسة، وعينيها المكحلتين.

لقد أفسح شمس المعذّب، شمس السريع الغضب والمضطرب، المجال لصلاح، الهادئ الرائق. لم نعرف قط متى أو كيف جرت المصالحة، لكنّي أستطيع القول إن الاتحاد مع صلاح لم يكن مفاجئاً أو عرضياً. حدث بسهولة ومن دون ظهور أي شيء استثنائي. فلم تُلق كتب في الماء لتعود وتخرج سليمة، ولم تلتهم ألسنة النار فجأة كتباً ثم تعود إلى حالتها الأولى بأعجوبة.

لقد برّر سلطان ولد التحوّل من شمس إلى صلاح بهذه الطريقة:

يظل الصديق نفسه،
لكن الرداء يتغيّر،
سيُمَّزق الرداء القديم،
وسيظهر ثانية.

يظل الشراب نفسه،
لكن الدَّن يتغير،
انظر إلى البهجة التي
يضرب بها رأس الساقي.

دع عنا حديث البعث،
بل لنتحدّث عن الاتحاد الكامل،

فمن ذلك التماوج،
ظهر بحر هادر.

هكذا ظهر صلاح بعد التفحم والاحتراق. كان سكونه أشبه بتدفق نهر هادئ خاو من أفكار جسور محطمة، أشجار مقتلعة من جذورها، أو جثث مكفنة يجرفها التيار. نعم، يمكن اعتبار صلاح جسماً هادئاً من الماء. الماء بعد النار. صلاح بعد شمس، وكما يشير اسم كل منهما «الانسجام» بعد «شمس».

من بين مجموعة الدائرة الأولى من المخلصين، تبنّى ذريانوس صلاح بعينين مغمضتين. كان ولاء صديقي اليوناني لمولانا أعظم من أيّ اختيار شخصي، من أيّ إحساس بالإرادة الحرّة. فمنذ اللحظة التي تقع فيها عين الرومي على أحد، يصبح الشخص المختار في الحال هو الشخص الأثير عند ذريانوس. لذلك، لم يكن يتردد في أن يتبع صلاح. كنت أكثر تردداً بعض الشيء في قبولي، لكن المستقبل بدّد مقاومتي التافهة والعابرة، لأنه بعد وفاة صلاح، كما ذكرت، كان الرجل الذي سيحلّ محل تلك المياه الهادئة هو أنا، حسام الدين.

أما سلطان ولد فكانت ردة فعله عقلانية. فقد كان الابن البار يعتبر صلاح بلسماً للجرح، كلاماً للأخرس، وميض نور للأعمى. وكان يهدّئ من روع والده بعد الكثير من الألم الذي ألمّ به، وكان يرى أن لهذا قيمة لا تقدّر بثمن. كما أن سلطان ولد هو من أخبر كيرا بأن صلاح الهادئ الوديع سيحلّ مكان شمس وأنّها يجب ألا تقلق.

ماذا كان يعني هذا بالنسبة للنساء؟ الموافقة؟ الرضى؟ لا أزال أتساءل. ماذا قلن عن هذا التحوّل من رجل إلى آخر؟ لا أعرف.

لكنّي لم أسمع قط أيّ امرأة منهن تقول إن المرأة مخلوقة للرجل، والرجل مخلوق للمرأة، لها وحدها. وأظن أن المسيحيين يقولون ذلك.

لكن عن هذه الأمور، لم نتلق الدروس نفسها من الله.

لم يتوقف مولانا عن كتابة القصائد عن شمس وترديد اسمه وهو يدور، لكن الشخص الذي بدأ يدلّك قدميه ويجفّف عرقه عند انتهاء رقص السماع أصبح يدعى صلاح. كانت ابتهالات الرومي أشبه بابتهالات موجّهة إلى الذات الإلهية، أو ربما إليه هو نفسه. أما أنا، فكنت أتساءل أحياناً أين هو شمس حقاً: هل هو موجود في مكان آخر في غير داخل الرومي؟ هل لا يزال يرتعش لأدنى نسمة هواء تهبّ؟ هل لا تزال أصابعه تسودّ بالحبر؟ هل لا يزال يساوم الزوّار الذين يريدون لقاء الرومي؟ ظلت «مقالات شمس التبريزي» من دون أن تكتمل لفترة طويلة. لا أحد ينقل كلماته لي - وأنا نفسي، عند استكشاف طبقات الذاكرة، نقلت كلماته بحذافيرها، جميع «مقالاته».

أخذ عهد شمس يتلاشى، وبدأ يصبح في حكم الماضي.

في أحد أيام الربيع، عندما أعلنت براعم الزهور والطيور والسماء عن نهاية فصل الشتاء البارد، جمعنا مولانا جميعاً في حجرته التي تغيرت تماماً منذ ظهور صلاح. فالكتب التي كان شمس قد ألقى بها عادت إلى رفوفها في الحجرة التي كانت قد أغلقت، وأصبحت تستخدم كما في الماضي. ونقل الموقد الذي كان يُملأ صيفاً وشتاء بالفحم لتدفئة شمس الذي يشعر بالبرد باستمرار، وخُزِّن في القبو، ومُدَّت الفرش والوسائد على امتداد الحائط لتوفير الراحة للزوّار كما كان يحدث في الماضي.

في ذلك اليوم، قال لنا مولانا وهو يمسك بيد صلاح إنه سينصّبه

شيخاً على أخوّيتنا ليكون مرشدنا ومعلّمنا وقدوتنا. وطلب منا أن نتبع هذا الرجل الأمّي الذي لم يكن باستطاعته أن ينطق الكلمات بشكل صحيح، فقد كان يقول «قلف» بدلاً من «قفل» و «مفتلى» بدلاً من «مبتلى» وإلى ما هنالك.

لكننا أذعنّا، مدركين أن المقاومة والعداوة ستأتيان من الخارج، من جميع التجار في السوق الذين يعتبرون صائغ الذهب نداً لهم، ومن الحرفيين الآخرين، ومن النحويين الذين لن يرضوا أن يسود عليهم رجل جاهل.

في ذلك اليوم، ويده بيد صلاح، قال مولانا: «لا يوجد لدي اهتمام بأحد في هذه الدنيا. فإذا برز سرّ الشيخ في رأسي، لا يشاركني طائر في القدرة على الطيران. أنا طيب النفس أعتزل الناس، لا أريد أحداً، وأي إنسان آخر يضايقني كالذباب. اذهبوا واطلبوا وصال صلاح، اطلبوا الاتحاد مع روحه. يطأطئون الرؤوس إذا كانوا ملائكة، وإلا كانوا مثل الشياطين إذا شكّوا فيه».

إشارة على الخضوع، كان سلطان ولد أول من تقدم من صلاح وقبّل يده، وهو لا يزال مضمخاً بعرق والده. ثم سأل مولانا:

«هل تحبّ صلاح لأنه يطوف في أنوارك؟»

فردّ الرومي: «إني أحبّه بدافع الانجذاب والعلاقة. فالكهرمان الأصفر يجذب القشّة بسبب الرابطة التي توحّد بينهما. والكهرمان بحد ذاته لا يجذب أي شيء آخر، لعدم وجود صلة تربط بينهما، وينطبق ذلك على جمل صغير يجري وراء أمّه الجرباء. وإذا جلب أحدهم حصاناً عربياً أصيلاً يساوي ألف دينار، وقال للجمل الصغير: «اجرِ وراء هذا الحصان بدلاً من أن تلحق أمّك» فلن يجري وراء الحصان أو يتبعه، لأنه لا توجد رابطة توحّد بين الجمل

والحصان. إن صلاح يجذبني بسبب الرابطة التي توحّد بيننا».

بدأت تلك الرابطة المختلفة تماماً عن الرابطة التي وحّدته مع شمس تزداد قوة يوماً بعد يوم. وبدا الرومي منسجماً مع الهدوء والسكينة اللتين حرم منهما أثناء وجود شمس. كانت عملية شفاء، فقد نقل شعوره بالسكينة والصفاء إلينا وباركنا صلاح، الرجل المحسن.

بعد زيارات النساء الكثيرة إلى الحمّام وإلى السوق والحدائق والبساتين التي كانت قد ألغيت خلال وجود شمس، عرفت أنّ المزاج الجيد وروح الفكاهة انتقلت إلى حجرات النساء، وأن صلاح كان يبذل كلّ ما بوسعه لإدخال البهجة إلى قلوبهن. فقد كان هو نفسه متزوّجاً وأباً لابنتين - كانت إحداهن كما ذكرت مغرمة بسلطان ولد - وكان يفهم، أكثر من شمس بكثير، متطلبات الحياة الزوجية. فعلى الرغم من الرابطة التي وحّدت بين الرجلين، لم يتوقفا عن تقدير زوجتيهما واحترامهما. أما الهوان والازدراء والإهمال والنأي فكان القدر اليومي لكيرا كلما تذكرت أن زوجها كان بصحبة شمس «الحبيب من دون ضمان»، لكنها لم تغضب منه لأنها كانت تدرك أن علاقتهما حتمية، لا مفر منها. فعندما ينطلق فيضان هادر، لماذا تقاوم سمكة صغيرة بسيطة التيار؟ لذلك غمرت نفسها في الماء إلى أن تبددت العاصفة، حتى جاء صلاح.

لم أكفّ عن سؤال سلطان ولد عن العلاقة التي تربط بين مولانا وصلاح، والد زوجته القادم. عندما أدرك أن سؤالي لم يكن بدافع الفضول، بل لأني سأدوّنه، من أجل تدوين حياة الرجل الذي نعرف تماماً أنه سيؤثّر على الكثير من القلوب والعقول كثيراً، زوّدني بثروة من المعلومات.

فقد علمت مثلاً أن صلاح قال للرومي إن النور في عينيه، قبل اتحادهما، كان مخفياً وأنه كان غافلاً عنه، وأن الرومي هو من فتح عينيه وفجأة «فاض النور وجاش كالبحر».

كنت قد ذكرت إشارات مختلفة إلى هذا «النور» الذي رآه صلاح، وقد تحدّث هو نفسه بصراحة عن هذه الظاهرة التي استطعت أن أراها بأم عيني ذات مرة. فعندما كان متوجّهاً إلى محله، راكباً بغلته، التفت فجأة ونظر إلى وجهي، وبعد أن ذكر شيئاً عن كتبي في قونية كان يفتح محله يومين فقط في الأسبوع، قال لي: «ها هنا، أمام عيني يقبع بحر النور الأبيض».

تقدّمت وحاولت أن أتبيّن الموجات ومدّ النور وجزره في أعماق عينيه. لم أر إشارة إلى بحر النور الأبيض، لكني رأيت في حدقة عينه نفسي، ونفسي وحدي. وراح يتحدّث مرة أخرى عن بائع الكتب الذي كان يبيع كتبه لجامعي الكتب فقط، ثمّ توقّف وأضاف، كما لو كان الأمر طبيعياً تماماً، «أرى بحر النور الأزرق، بحر النور الأخضر، وبحر النور الأصفر. إني أرى الآن بحراً بلون الدخان».

توقّف. أغمض عينيه، ثم فتحهما، وقال:

«حسام، لقد هاج البحر الأسود الآن».

توقّف مرة أخرى، ثمّ قال يوجد في مكتبة شخص يدعى عزيز أكثر من مليون مجلد وقد حصل للتو على نسخة نادرة جداً من كتاب «منطق الطير» للعطّار بمبلغ وجده صلاح باهظاً. بعد أن توقّف مرة أخرى، أضاف أن عزيز نفسه قال له إن خمس عشرة مخطوطة أخرى من «منطق الطير» تزيّن محله، واحدة منها كتبت بخط الشاعر نفسه.

لم أعرف شيئاً آخر عن هياج البحر الأسود.

لم تتخلل السنوات العشر التي أمضاها صلاح مع الرومي أحداثاً

ومفاجآت عنيفة كما تخللت الشهور الثلاثة والعشرين التي أمضاها مع شمس. وإني أتساءل حتى اليوم كيف استطاع اتحاد لم يكد يدوم سنتين إحداث هذا القدر من التغيير في حياة الرومي وفي حياتنا، وهذا النهر العظيم الدافق في الشعر الفارسي.

في أحد الأيام، كنت أرافق مولانا إلى السوق. كانت الشمس قد أضاءت بشرته الصفراء، وتكوّن لديّ الانطباع بأن كلّ شعاع يتغلغل في بشرته يكافح شحوبه الدائم. فقد كان قلما يغادر حجرته، وكان مولعاً كثيراً بالأماكن المغلقة مثل الحمّام. وقد أشار عليه أطباء المدينة الذين كان معظمهم من مريديه بأن يخرج ويتنشق هواء نقياً، ويتنزّه ويعرّض بشرته للشمس، لكنه لم يكن ينصت إليهم. ولم يكن يغادر عتمة الحمّامات ورطوبتها إلا ليعود إلى الحجرة المغلقة التي يخيم عليها الظل والتي تقام فيها رقصة السّماع.

في صباح ذلك اليوم، بالقرب من السوق، اجتزنا سوق النحاسين الذي تتناثر فيه الطشوت والأباريق والأوعية والقدور النحاسية، وتُصنع فيه الأقواس والسهام والسيوف والرماح والدروع وصنوف أخرى مختلفة من الأسلحة. لم أر أدنى اهتمام بهذه الأسلحة في عيني مولانا. لكنه أبطأ في سيره عندما مررنا من أمام محلات صانعي الإبر والأقلام المستدقة. بدا عليه الاهتمام بعملية توحيد الأوزان، وفي ثقب وأبعاد عين كلّ إبرة.

لم نكن على مسافة بعيدة من سوق صاغة الذهب حيث يعمل صلاح. عندما غادر الرومي محل صانع الإبر، وقف في وسط الزقاق المركزي، وفجأة، سمع صوت طرق صاغة الذهب، وعلى وقع تلك الطرقات أخذ مولانا يدور، في وسط السوق.

في تلك اللحظة، خرج صلاح من محله وهو يصرخ، وشقّ

طريقه عبر الحشد المتحلّق حول الراقص، وألقى بنفسه ووضع رأسه عند قدمي الرومي، ولامس بشفتيه أصابع قدميه المباركة، ثمّ أغمي عليه، نعم أغمي عليه. واعترف لاحقاً لسلطان ولد بأن وحياً من العالم الخفي أمره بأن يغادر محله في تلك اللحظة بالذات، لأن الرومي الذي لم يكن بعيداً عنه، كان مستغرقاً في الدوران.

من فوق الأرضية المرتفعة لمحل الأدوات الجراحية، رأيت مولانا يقبّل شعر صلاح ووجهه، يمسده، ثمّ يشدّه إلى الرقص، لكن صلاح لم يتمكن من مجاراة إيقاع حركات الرومي، فترك الدائرة وقال له «ليس لي طاقة على رقص السّماع كطاقة مولانا».

لقد أضعفت شدّة الانضباط والمشقّة الجسدية كثيراً بنية الرجل الذي، لسنوات عديدة، لم يكن يستخدم من جسمه غير ذراعه ويده في حركة مستمرة لطرق الذهب، وجرى إلى محله وطلب من عمّاله ألاّ يتوقفوا عن الطرق حتى يتوقف الرومي عن الرقص، فاضطروا إلى أن يواصلوا الطرق حتى لو تمزقت صفائح الذهب وتفتّتت. وحاول عماله أن يذكّروه بأن شدة الطرق تتلف الذهب، لكنّه لم يصغ إليهم، لأن الشيء الوحيد الذي كان يهمّ صلاح في تلك اللحظة هو دوران الرومي، ولم ينته ذلك الدوران الذي كان قد بدأ عند الظهر إلا عند صلاة العصر.

بعد ذلك، ذهب الرومي وجلب صلاح الذي مزّق ثوبه من شدة انشداهه وذهوله وتدلّى حوله مثل أشرطة، وغادرا السوق.

هبطتُ من مكاني، وحاولت إبعاد الجموع عن الرجلين وحمايتهما من أيّ شخص فضولي. وشيئاً فشيئاً تفرّق المعجبون. ورافق ارتفاع الأذان إغلاق المحلات وإخلاء السوق، وأقفل أحد عمال صلاح باب المحل. دنوت منه وسألته ماذا حدث للذهب

المطروق؟ فقال لي لقد تلفت أوراق الذهب، وبدا له، لبضع لحظات، أن الأدوات التي يستخدمونها قد غُطّيت بالذهب، ثمّ دسّ المفتاح في جيبه وانصرف واختفى في عتمة الليل.

في اليوم التالي، عندما سألتُ سلطان ولد عن نهاية ذلك اليوم المليء بالأعاجيب، قال لي حرفياً إن الرومي قدّم لصلاح نفس أشكال الحبّ، ونفس الأفضال التي أغدقها على شمس التبريزي، فانهار قلبي فجأة. ربما من الغيرة أو من الحسد، لست متيقناً تماماً. لكنني خشيت أيضاً أن تتأجج مشاعر الغضب والعداوة في المدينة برمتها، تماماً كما حدث عندما كان شمس موجوداً، المدينة التي لم تكن تريد أن ترى مرشدها يمنح نفسه لرجل واحد. وقد تفاقم هذا الشعور لأن هذا الرجل لم يكن إلا رجلاً عادياً، رجلاً مثلنا تماماً.

وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، سمعت أحد رفاقنا يحرّف كلمات سلطان ولد، فقد تحوّلت في فمه عبارة «أشكال العشق» إلى «صداقة». نعم، كانوا يحاولون، تحت سقف مولانا وفي أثناء حياته، تحوير وتحريف أقواله وأعماله.

وغالباً ما كنت أسمع عبارة «العشق الإلهي». وكنت أسأل في كل مكان ما الذي تعنيه - لم أكن أنا شخصياً قادراً حقيقة على فهم معناها، فأنا لست على يقين تام بأن الله يعشق الرجال، وبما أنه واحد لا شريك له، فلا أرى حقاً كيف يمكنه أن يعشق. كما أن لا أحد يمكن أن يسأله. لكن كان يتكون لديّ انطباع أحياناً، بأنه أحبّ الرومي وشمس وصلاح أيضاً.

وكنت أقول لنفسي أحياناً بأنه في ذلك التعبير الذي أفرط الشعراء في استخدامه، ينبغي أن تُفهم كلمة «عشق» بمعناها الجسدي البحت، كما لو كنا نقول «الجنس الإلهي». فقد كان اليونانيون

يؤمنون بذلك، وكذلك الهنود الذين يؤمنون بمعتقدات سخيفة، لكن فيها لمحات من الحقيقة، فهم يقولون إن الآلهة تغار من الرجال بسبب المتعة الجسدية التي لا نشعر بها إلا نحن الرجال. إنها تغار من الرجال، وإلى درجة أكبر من النساء، لأن متعة النساء، كما يدّعي الهنود، وكذلك اليونانيون، أعظم من أيّ بهجة أخرى في العوالم الثلاثة.

ربّما لهذا السبب، تستقبل في الجنة حوريات في غاية الجمال للمؤمنين بعد موتهم، كما لو كانت متعة الجنس هي المكافأة الأسمى لحياة مليئة بالتقوى والاستقامة. عندما أضع جانباً هذه الأفكار - التي أعرف أن لا إجابة واضحة عليها - أفكّر بمولانا والعشق الكبير الذي تملكه عندما التقى بشمس التبريزي، ويعتريني شعور بأن للمتعة الجسدية دوراً في ذلك.

أدرك تماماً أن بعض العقول تعتبر أن الاتحاد الجسدي أمر سوقي وذميم بل ربما خطير- وهو شعور ينتشر كثيراً لدى المسيحيين الذين نسوا بأنّ المسيح الذي أرادوا أن يحوّلوه إلى إله، كان لديه «تلميذ محبوب» وأنه لم يتزوج قط - ويقولون إنه لا يمكن تصديق علاقة الحبّ بين شمس والرومي وبين صلاح والرومي، ويقولون إنه يجب اعتبار هذه الفكرة مجرد استعارة، وأن هذا الاتحاد ليس اتحاداً جسدياً في طبيعته، بل اتحاد روحي تملؤه المحبة والمودة، وما إلى ذلك.

بالطبع، فأنا لا أشاطرهم هذا الرأي لأني كنت شديد القرب من الرومي خلال تلك السنوات. وقد رأيته وهو يغنّي ويرقص وينضح عرقاً، ويصيح من شدة النشوة والبهجة ويخلع ثيابه على الملأ ويلقي بها جانباً، ويسمح فجأة للكلمات، الكلمات القادمة من عالم آخر أن

تتدفق من شفتيه. وإني أقول إنه كان رجلاً له جسد عادي، ولا بد أن عظمته الحقيقية تكمن في هذا الأمر.

لقد تمكّن من تجاوز الثنائية بين العقل والجسم. لقد وحّد الحياة والفكر والإحساس. لقد اكتشف المصدر النقي الذي لا يمكن رفض شيء منه أو ذمّه. نعم، كان بالنسبة لشمس «شمعة»، ولم تفقد تلك الشمعة شيئاً من وهجها. وكان ذلك ينطبق أيضاً على علاقاته مع النساء. فلم يكن يستبعد أحداً. لم يكن هناك شيء عال، ولا شيء واطئ. لا شيء قذر، ولا شيء نظيف. فعندما كان يجد الحبّ - وقد وجده مع شمس، مثل النار الهابطة من السماء التي تحرق محصولاً. وقد وجده مع صلاح، مثل ماء النهر الذي يسحب معه نصل عشبة - قبله باعتباره أعظم نعمة. قال نعم إنه العشق الإلهي، وكانت تلك الكلمات تنطوي على قوة واضحة عندما كانت تنبعث من شفتيه المفتوحتين. حتى أنه قال إننا يجب أن نعبّر عن البهجة التي نتلقاها، وإلا أصبحت ألماً وندماً لنا. وقال إن بهجة الجسد تثري العقل كالمطر القابع في باطن الأرض. قال هذا، وقال ذلك، قال ألف شيء أندم لأنني لم أدوّنه على الورق لأن قلمي ضعيف جداً بالمقارنة مع قلمه، ولم يتبق لي سوى انطباعات ملحّة، حادّة، لكنها غير مرتّبة، أجد صعوبة في ترتيبها وتنظيمها.

بالإضافة إلى ذلك، هل يتعين ترتيبها وتنظيمها؟ لا أظن ذلك. فقد أحبّه شمس، تملّكه شمس، وعانقه صلاح. كان مولانا أغنية رائعة كُشفت فيها السماء والأرض، بعيداً عن كل إطراء أو لوم. لقد نسي أن يكون رجلاً فقط. لقد تجاوز حالته. كان وحدة الكائنات.

في بعض الأحيان، كان يبدو لي إن الله يحبّ صلاح. لقد كررت ذلك مراراً، صلاح، صائغ الذهب، الضئيل الجسم، من

سوق قونية الذي لم يكن يمتلك أياً من الصفات والخصائص التي يتمتع بها شمس الذي كان يسخر منه لأنه يرتكب أخطاء فاحشة في لفظ الكلمات وفي قواعد اللغة، ولم يكن صلاح يغضب من الذين يذمّونه. وطوال السنوات العشر من الألفة تلك، لم أره غاضباً قط.

كان يبدو تجسيداً للصفاء والاستقرار، وهو الشيء الذي كان مولانا، بعد أن تحرر من عاصفة شمس، بأمسّ الحاجة إليه. وبالرغم من مهنته، وهي إحدى أكثر المهن شيوعاً، وافتقاره إلى العلم والثقافة وهدوئه، وكونه نقيض ثوران شمس وتشنّجاته، كان يبدو لي إن الله يحب صلاح، نعم صلاح. ولأن الله يحبّه، فقد اختاره الرومي. بهذا المعنى، أغوى مولانا الرجل الذي قدمه الله له.

كان يوماً من أيام الشتاء. كان الثلج يملأ نعليَّ مع كلّ خطوة أخطوها، وكان سقف بيت الخلاء الذي كنت متجهاً إليه هشاً أكاد أنحني تحت ثقله. عندما اقتربت، سمعت أصوات شتائم تنبعث منه. أدركت أنه صوت صلاح. ألصقت أذني على الجدار المطلي بالكلس لأعرف إلى من يوجّه شتائمه تلك. يا للمفاجأة! فقد كان صلاح يشتكي من الله لأنه لم يكن يتركه بسلام حتى في هذا المكان النجس. تعمدّت الاّ أدوّن جميع الأخطاء التي وردت في كلامه، في خطابه، لكنه قال بصورة عامة: «هنا، يا إلهي. إني أخجل من وجودك. أعرف أناساً يحترقون حبّاً ويستنزفون أنفسهم في الخلوات، ليل نهار، ويعيشون في محن جسدية وفي الصلاة لك، ويتملكهم الأرق لكي ينالوا رضاك. لكنّك لا تعيرهم أدنى اهتمام، ولا تحلّ مشاكلهم، بل إنك لا تكلف نفسك عناء أن تمضي معهم حتى نصف ساعة. أما أنا، فلا تتركني وشأني! حتى هنا! أنوارك النقية تزورني حتى هنا في بيت الخلاء».

ثمّ صمت. لقد أحسّ صلاح، حتى وهو في هذا المكان، بنفسه في وجود الله. إني متيقن بأنه لم يكن يعرف أن أحداً يراقبه وأنه كان في الحقيقة يخاطب وجوداً غير مرئي.

ابتعدتُ بهدوء، وتذكّرتُ اليوم الذي فاجأ فيه الرومي شمس وزوجته كيميا وهما في غمرة لحظات حميمة في غرفة نومهما، وفي الحال، اكتشف أن شمس وحده، في الحجرة نفسها. وكان تفسير شمس، كما نقله سيدي، إن الله العلي القدير يحبّه كثيراً، وأنه قدّم له نفسه في الشكل الذي يفضّله، وهو هنا، في شكل كيميا. لذلك، فقد رأى مولانا، رأى بعينيه هو، الله يلمس شمس، يقبّله، يمرر أصابعه في شعره. نعم، لقد رأى الرومي الله في شكل امرأة عاشقة.

لقد سمعتُ للتو صلاح يشتم الله ويطلب منه، مثل عشيق مطارد ومرهق، أن يمنحه فسحة صغيرة من الحرية ليتمكن من أن يشعر أخيراً بأنه وحده. في ذلك اليوم فهمت لماذا استبدل الرومي شمس بهذه السرعة. فهمت لماذا ذهب مولانا إلى درجة أنه قال لابنه، قبل فترة:

شمس الذي أذكره كثيراً،
عاد إلينا، فلماذا لا يزال نائماً؟

غيّر ثيابه ثم عاد،
ليعرض جماله ويتقدّم في المجد.

إن خمرة الروح التي تشربها من الطاس
ليست نفس الخمرة التي تُصبّ في الدَّن؟

ما الدَّن والطاس والقدح إلا أوعية حاوية،
من يعرف الخمرة، فهو الجدير بأن يكون رجلاً.

وعلّق سلطان ولد على القصيدة بالقول: «إن الكائنات المتفوقة والحامية تشبه الأوعية الحاوية، أما الحقيقة والمعرفة والحبّ فهي مثل الخمرة».

بعد سنوات، فهمت أخيراً بأنه بعد الدِنّ والطاس، شمس وصلاح، لا يمكن أن يكون القدح إلا أنا، بعد أن أصبحت الوعاء الذي شرب منه الرومي، مرة أخرى، خمرة العشق.

بحذر شديد كي لا يراني، تركت صلاح يغادر بيت الخلاء ثم دخلت بعده، ثمّ غادرت. عبرت الفناء. كانت قدماي تغوصان في الثلج وروحي راضية لأنها تمكنت أخيراً من إماطة اللثام عن أحد الحجب الكثيرة التي تداخلت في شغف الرومي بصلاح. توجّهت إلى حجرة مولانا. كان كل من الرجلين ينظر في وجه الآخر. عندما أدرك أنني واقف عند عتبة الحجرة، دعاني الرومي إلى الدخول وقال وهو يواصل النظر في صائغ الذهب:

«انظر إلى وجه صلاح الدين،
أيُّ ذات، ذلك السلطان الرائي للحق.
انظر إلى مرشد عالم الروح،
إنه ملك الأرض، ملك اللا مكان».

لاحظتُ ورأيتُ فيه وريث شمس، مقام الله، الذي يحوّل قطرة إلى لؤلؤة، المهرّب الذي يحوّل التراب الذي يوطأ إلى ذهب، منعش القلب المتعب، مانح الروح المطهَّرة، المنقذ من الموت والفناء، الهادي إلى عرش الملك الأبدي، تبصرة جميع الأسرار، المعراج من الأرض إلى السماء... وأكثر من ذلك.

أصبح كلّ شيء جلياً. في صلاح، طارق الذهب، ابن صيّاد

السمك، هذا الشخص البسيط من أهل قونية، صاحب محل الصائغ البسيط، رأيت بجلاء شيخ الشيوخ، ملاك الله على الأرض، محور الوقت، مسيح الأرواح، روح الصوفيين، ملك الأولياء الصوفيين، الملاك الحارس للقلوب، مشرق الأنوار، إله الساعين إلى العشق لسالكي طريق العشق، وكما يشير اسمه، «صلاح الزهد».

بفضل أحد المريدين الهنود، عرفت أن رؤية مماثلة، ترددت مثل دعاء عالمي، مثل مسبحة من الكلمات تطوّق العالم، كان قد منحها أحد أولياء الله يعني اسمه «الأسود»، لم أعد أتذكره. فقبل بداية معركة عظيمة، ظهر لصديقه المخلص. ورآه هذا الرجل كأنه يرى ملايين الرجال وهم يلقون بأنفسهم داخل فمه، رآه كأنه يرى الموت والحياة، كما يرى الصمت، كأنه العنصر الذي يقبع فيه كلّ شيء، كلآلئ في خيط، مثل عطر الأرض، حرارة النار، الظهور والاختفاء، بريق أشياء لامعة، بل حتى مكر المخادع.

أعرف أن مثل هذه الابتهالات التي تضاعف المقارنات والتعاريف والمديح تتكرر لأنه لا يمكن الإعراب عن الشيء الذي اختير للاحتفال بأيّ مجموعة من الكلمات أو العبارات. فالكلمات تبحث عن اللغز من دون أن تتمكن من الوصول إليه.

بالنسبة لمولانا الذي لم يرفع عينيه عن صلاح، قلت هذا، ولا شيء غيره، «أرى الواحد في الآخر؛ أرى شمس في صلاح، ولا أرى شيئاً آخر».

يبدو لي أنّ كلّ شيء قد قيل من قبل.

غادرت الحجرة، ونفضت نعليَّ المكسوين بالثلج على عضادة الباب. في الخارج، لم يعد البرد الذي كان يزعج شمس يعنيني. كان شمس في الرومي والآن هو في صلاح. كان «في داخلهما».

قلت لنفسي إنه كانت هناك حاجة إلى الهدوء والصفاء وإلى وجود صلاح، حتى تتاح لرجل عادي مثلي إمكانية الانتقال إلى الما وراء، إلى تلك اللحظة القصيرة عندما نشعر بالنعمة تغمرنا. فعلى الرغم من توهج شمس، أو بسببه، فلم تتح لنا فرصة للراحة معه، «الحبيب من دون ضمان»، لم نشعر بالثقة، لم نشعر أننا في مأمن. على العكس من ذلك، أتاح لنا صلاح الفرصة لأن نقدّر السلوك الصوفي بكامله، براحة.

لذلك فعندما وصفت لسلطان ولد رؤيتي الخاصة عن صائغ الذهب، قال لي إنه انتابه الشعور نفسه، لكنه نزولاً على طلب والده «طأطأ رأسه مذعناً» أمام صلاح وأصبح مريده طوال حياته. طلبت منه أن يصف لي تلك اللحظة، فأجاب: «كما لو كنت سكراناً، غمر النور جسدي وروحي. لم أشعر بأن هذه خسارة بل كمال لا متناه. لقد أصبحت روحي، القطرة الصغيرة البائسة، محيطاً. انتقل قلبي من القاع إلى القمة، وتطورت أفكاري مع الوقت. تشكّلت روحي. في تلك اللحظة، رأيت الأنبياء في هيئة بشر، برؤوسهم وأيديهم وأقدامهم. بدأت أحدّثهم عن الأسرار: صحوت وكلّمتهم بلساني، بوجهي. حسام، إن ما رأيته في ذلك اليوم، سيراه الآخرون مجرد جزء صغير للغاية، مثل سراب، في حلم».

أدركت أن سلطان ولد قد رأى أيضا. وكذلك ذريانوس.

أما الآخرون، أولئك الذين تآمروا من أجل رحيل شمس، الغيورون، الضيّقو الأفق، الذين اطمأنوا في البداية لغياب الرجل الذي كانوا يعتبرونه مصدراً لكلّ متاعبهم، قد وجدوا في صلاح هدفاً جديداً. أما علاء، الابن العاق، فقد طرده والده من البيت، ولم يجر ذكره على لسان أحد حتى مماته.

مرة أخرى، بدأت الألسنة تتحدث بالسوء، وبدأت الأكاذيب تنهال. فالذين كانوا ينتقدون شمس لأن أصله لم يكن معروفاً، ولجشعه وحدّته وتبرّمه ونفاد صبره وتقلّب مزاجه، بدأوا يدينون صلاح لأنه رجل غير متعلم ومتواضع النسب، وقالوا كيف يمكن لعالم العلماء أن يغرم بشخص عادي من أهالي قونية شاهده الجميع وهو ينمو ويكبر؟ وتذكّروا كيف كان طفلاً يساعد والده في رمي شبكة الصيد، وتذكروه وهو يعمل في صياغة الذهب في السوق بفضل قرض استدانه. وذهب المنتقصون من قدره، كما فعلوا من قبل، شأواً أبعد من ذلك وبحثوا عن الشخص الذي أقرضه النقود. كيف يأمر الرومي ابنه بأن يتبع رجلاً استدان مالاً من يهود، وتمكّن بعد لأي من تخفيض نسبة الفائدة واحداً بالمائة؟ وقال الثرثارون أيضا إن صلاح كان يرسل نقوده، رغم ضآلتها، بناء على نصيحة هؤلاء اليهود، إلى الهند، إلى دلهي التي أصبحت منذ تهديد الغزو المغولي، العاصمة التي يرسل إليها جميع المنفيين والمسافرين أموالهم في تلك البقاع من العالم.

وراح المغتابون وأصحاب ألسنة السوء يتهمون مولانا الذي ذاب في صلاح «كما يذوب السكّر في الحليب»، وقالوا: «إن الرومي لا يرى إلا صلاح، وهو لا يرفع عينيه عن وجهه، ولا يهتم بأحد إلا به، وينحني أمامه ليل نهار. وأن كلّ ما يملكه له، يغطّيه بالذهب، بالفضة، وبالملابس الجميلة... ثروة يرسلها هذا الآخر إلى حسابه في دلهي. إن صلاح هذا أسوأ من شمس. فعلى الأقل كان شمس يعرف كيف يتكلّم ويكتب بلغة فصيحة وجيدة، أما هذا فقد نشأ وترعرع بين ظهرانينا، لا يعرف كيف يكتب، ولا يعرف قواعد اللغة،

أو لفظ الكلمات بشكل صحيح. إنه عاجز عن الإجابة عن أبسط سؤال. نعم، بدأنا نفتقد شمس التبريزي».

بل ذهب آخرون شأواً أبعد من ذلك، وقالوا: «على الأقل جاء الآخر من تبريز. وهو ليس من قونية، لم يكن واحداً منا».

أما صلاح الذي استمر في الذهاب إلى محله كل يوم، فقد رأى كيف أن عدد الزبائن تناقص يوماً بعد يوم. وكشف دائنه أنه خفض سعر الفائدة على المبلغ الذي أقرضه إياه، وترك الجنائني الذي يعمل عنده العمل بعد أن سئم من التقاط القمامة التي كان يلقيها عابرو السبيل على حديقته، وفي أزقة مدينته، بدأ الناس يدفعونه ويهينونه ويذلونه، وراحوا يعاملونه معاملة شخص كان يخالط الحيوانات، وأصبح اليوم ينظر باستصغار إلى كبار القوم.

كان يعرف أهل مدينته كما كان يعرف ظاهر كفّه ولم يكن خائفاً من حقدهم وغلّهم. وبعكس شمس، لم يغضب. بل كان يتجاهل تعابير العداء نحوه وحاول أن يحافظ على سعادته وراحة باله. في الحقيقة، سمعت صلاح، الرجل الذي لم يجرؤ على محاولة الكشف عن مثل هذه المقدرة، يردد إحدى رباعيات الخيام الرائعة:

النار من أحزاننا شرارة،
والجنة لحظة هدوئنا.
الدهر من حياتنا الماضية لحظة،
وما جيحون(*) إلا قطرة من دموعنا المطهّرة.

(*) نهر في وسط آسيا.

لم يستسلم للحزن قط. لم يأبه للكوابيس التي كانت تنتابه، ويمكنني أن أؤكّد أنه، بينما احترق مولانا في غياب شمس، فإن «هدوء» صلاح فقط هو الذي أعاده إلينا، إلى نظم الشعر، إلى الرقص، إلى الحياة. وإلا مثل كلّ توهج، لكان توهجه رحلة من دون رجعة.

مع أن صلاح كان يبدو واثقاً، بعد أن تملكنا الخوف من حدوث شيء من العنف. وكما كان الحال مع شمس، شغل الغموض والريبة، والادعاء والسرية والأكاذيب والأبواب والتجسّس، بالرغم من ادّعاءات صلاح بعكس ذلك، حياتنا اليومية.

وفي مساء أحد أيام الصيف، عندما زيّنت الشرفة الناموسيات الزرق والبيض والزعفرانية الألوان، وهدأت رائحة الكيار، أندر أنواع البخور اليابانية، عقولنا، تناول ذريانوس ناياً وعزف نغمة على هذه القصيدة التي ارتجلها الرومي منذ بضعة أيام:

من أتى، في منتصف الليل،
مثل ضوء القمر؟
نبي العشق من مكان الصلاة،
قد جاء.

لقد جلب شعلة،
تحرق النوم.
من المكان الذي يوجد فيه ملك ملوك النوم،
قد جاء.

حلقة مفاتيح تتدلى،
تحت ذراعي الحب،
ولكي يفتح الأبواب على مصراعيها،
قد جاء.

دخل البواب ليخبرنا أن رجلاً مجهولاً، منقطع الأنفاس، يريد أن يرى مولانا، وقال إن الرسالة التي يحملها لا يمكن أن تنتظر وأنه لا يمكنه أن يكشفها لأي شخص آخر، فسمح له بالدخول.

كان الرجل الذي دخل قصيراً، مكتنزاً، يقارب الستين من العمر، ويعرج قليلاً. تكلّم بلغة فارسية متعثرة، وبدا حذراً من الحاضرين. كانت نظراته تنتقل من نقطة إلى أخرى، ثم صمت فجأة وبدأت أظافره تنغرس في لحمه. وبعد التحيات المعتادة والانحناء، بدأ يتكلم:

«مولانا، لا يمكنني أن أمكث طويلاً. إني أجازف بحياتي إذا وشى بي أحدهم. لا وقت لديَّ إلا لأخبركم بأن حياة الشيخ صلاح في خطر، وأن مؤامرة تحاك للاعتداء على حياته. لقد قررت عصبة من المتآمرين اختطافه، وحبسه وتعذيبه ثم قتله».

لم يكد ينهي كلامه حتى انفجر صلاح ضحكاً، فأصاب الحاضرين الآخرين بالصدمة. وبصوت حيوي، ومن دون أثر للخوف، قال: «إن العميان الذين بدأوا يتآمرون علي لا يدركون أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ضد مشيئة الله. إذا كان الله هو الذي يحميني، فلا أحد يستطيع أن يقتلني أو يغرقني في الدم. إنكم تظنون أنني رجل عديم القيمة في هذا العالم، لكن في الحقيقة، إن ما ينفجر من قلبي يصبح محيطاً. وإن كان مليكي، سيدي، يبقيني في الداخل، فلمَ أخرج، لماذا أظهر نفسي عند الباب؟»

ذكرتني العبارة الأخيرة تلك برحيل شمس وسماح الرومي له بمغادرة البيت، مع أنه قد يجده ميتاً على الجانب الآخر من الجدار. كان من الواضح أن صلاح يلمّح إلى تلك الموافقة. ومثل شمس، كان يعرف أنه محبوب، لكنّه كان يعرف أيضاً، بخلاف شمس أن مولانا لا يمكن أن يستغني عنه. وعلى الرغم من أن رحيل الأول بدا ضرورياً للرومي، فإن الوجود الدائم للثاني هدأه وأراحه.

شردت للحظات بهذه الأفكار، تمكنت بشيء من الصعوبة من العودة لأمسك بخيط ما كان يقوله صلاح.

«أنا المرآة التي يرى فيها الرومي وجهه. كيف يمكنه، ذاك الذي يعشق جماله، أن يفعل شيئاً غير أن يختار نفسه؟ لا توجد ثنائية بيننا، إننا واحد».

سمعتُ في فم صلاح نفس الكلمات التي قالها الرومي عن شمس. أمام عينيَّ، التبس الحبّ والحبيب والمحبوب، وأصبحوا واحداً في دوامة الكلمات.

استأذن الرجل الذي نقل الخبر وسأل هل يوجد باب آخر غير البوابة الرئيسية يمكنه أن يخرج منه. رافقناه إلى باب سري في القبو يوصل المطبخ بزقاق يؤدي إلى أعلى التلة.

على الرغم من اطمئنان صلاح، فقد أمرني الرومي بأن أتخذ الاحتياطات اللازمة لحمايتنا. ومن يوم لآخر، طبّقنا نفس الإجراءات التي استخدمناها أيام كان شمس بيننا: فبدأنا ندقّق في هوية كلّ شخص يدخل إلينا، ونرفض بعض الزائرين، وتوقّفنا عن الالتقاء، وقيّدنا مجيئنا وذهابنا. ووافق صلاح على قرار الرومي، وبالإجماع قررنا أن نتوخى الحذر، وأن نكون أكثر تعقّلاً لتفادي الخطر، وعدم إثارته، حتى لو كنا نشعر بأننا في حماية الله العلي القدير.

ولم يقم أحد رقص السّماع في سوق الصاغة. ولم يعد أحد في المدينة يصادف المرشد الروحي الذي يتلعثم في حديثه ويرتكب أخطاء في نطقه.

أدى ذلك إلى تململ المتآمرين. وقيل في المدينة إن المتآمرين هدأوا واستكانوا، وفعل الجدار الخفي الذي أقمناه حول أنفسنا فعله، وطاردهم تباعاً. فحيثما كانوا يشاهدون في الشارع، كان القلق والتعب باديين عليهم، وكانوا ضامرين وبائسين، بل إن إشاعة سرت تقول إن النوم جافى الكثير منهم.

في أحد الأيام، تحلّق المتآمرون السابقون وعدد من الأهالي أمام باب المدرسة. كان القلق بادياً على وجوههم. كانوا مطأطئي الرؤوس، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع، وأصوات مرتعشة، طلبوا الصفح من مولانا، وأعلنوا إطاعتهم له مرة أخرى. دام ذلك ساعات. لم يظهر على الرومي أي ردّة فعل. حتى ذريانوس، الرجل الذي ظل كارهاً عنيداً للحاسدين، لانَ قلبه قليلاً، ورأيت دموعاً تسيل على وجهه النحيل المكسو بلحية سوداء خفيفة لا تزال الشعرات البيض فيها نادرة.

بينما كنت أعدّ شعراته البيض في ذهني: اثنتين في الزاوية اليسرى من شفته، وواحدة على ذقنه، سألته لماذا استسلم، فقال لي: «إن شعور هؤلاء الرجال بالعزلة أذابت حجارة قلبي كالشمعة».

فتح مولانا ذراعيه لهم. جثوا أمامه وظلوا كذلك لفترة طويلة. ثم أخبرني أحدهم بأنهم شعروا في تلك اللحظة بالذات أن العوائق تتساقط، وأن حزنهم تلاشى في الحال. أحسّوا أنّ أجنحة وريشاً بدأت تنبت عليهم. أحسّوا أنهم ولُدو من جديد. رأوا عالم الروح، رأوا أنفسهم وقد تحللوا من المادة، ورأوا الحكمة تغلي في

صدورهم، وحلّ الفكر محل الجهل. من الظلّ أصبحوا نوراً، وتحوّلوا من الحزن إلى البهجة، ومن الليلة المظلمة أصبحوا القمر المضيء، ومن شوكة إلى وردة في حديقة.

ساعدهم صلاح واحداً تلو الآخر، هم رفاقه منذ زمن بعيد، تربوا في الشارع نفسه، قرب ضفة البحيرة نفسها. لم يشعر قط بأن حياته في خطر. لا يمكن أن يأتي الخطر من هؤلاء الرجال. قال لهم ذلك.

قبّلهم وذهب كل منهم في حال سبيله. إن الله الذي كلّم صلاح حتى في بيت الخلاء كفل له حبّ الرومي وحبّه للرومي. نعم، صائغ ذهب بسيط من سوق قونية يعرف أن الله وشاعره الأعظم يحبانه.

أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض

بعد المصالحة بين الرومي وصلاح وبين أهالي قونية، أصبح بمقدورنا أخيراً التحضير لحفل زفاف سلطان ولد وفاطمة، ابنة صلاح.

كنّا نتوقّع أن يتم هذا الزواج منذ فترة طويلة، منذ أن توجّه الرومي وشمس إلى بيت صلاح وأصبح بإمكان سلطان ولد زيارة فاطمة التي كانت لا تزال حينها في سن المراهقة، وكانت تراودها رؤى كثيرة. كان الانتظار طويلاً. كان عمر الفتاة هو السبب الرئيسي في تأخير زواجهما، لكن اختفاء شمس والحزن الذي ألمّ بأخويّتنا ساهم في هذا التأخير أيضاً.

بدأ الحاضرون في المدرسة يتحدثون كثيراً عن الزواج. شاهدت فاطمة أول مرة في بيت والدها أثناء خلوة الرومي وشمس في بيتهم. كنت أريد الهروب من عداء الأشخاص الحسودين والفضوليين والضيّقي الأفق. كانت فاطمة في الثانية عشرة من عمرها، وهو عمر كان يُسمح فيه للفتيات بالسير في الفناء والجري في الممرات واللعب في الشارع من دون التعرض لانتقاد تعاليم ديننا. رأينا فتاة شابة عليها حجاب خفيف تشقّ طريقها إلى البيت، ممزّقة بين فتاة لا تزال تمص إبهامها وبين فتاة نذرت نفسها للدين تطوف أرجاء الأجرام السماوية.

أتذكّر أنها كانت تتناول القليل من الطعام، على الأغلب وجبة واحدة في اليوم. كان شمس يراها واقفة طوال الليل. أحسسنا أن الطفل الذي سيولد من اتحاد سلطان ولد وفاطمة، والذي سيسري في عروقه دم الرومي ودم صلاح، سيجسّد حبّاً لا يمكنني وصفه إلا بالعشق الإلهي. أما أهالي قونية، فربما رأوا في الزواج بين ابن مولانا وبنت من مدينتهم، اتحاد الرومي بالمدينة.

أما أنا، حسام، محاسب المدرسة، فكنتُ مسؤولاً عن جمع المال لإقامة الاحتفالات: إعداد حفل الزفاف، جهاز العروس، التخطيط للهدايا التي ستأتي. هذه المرة ساعدتني خبرتي فلم أجد صعوبة في جمع مبلغ جيد. واستخدمت كيرا، زوجة مولانا، كلّ مهاراتها أيضاً. ولأكثر من شهر، لم يتوقف أفضل تجار الأقمشة في المنطقة عن التردد على مدرستنا وقد امتلأت صناديقهم بالأقمشة المطرزة وبأنواع الحرير والحجب، وخصصت للمزيّنات ومصفّفات الشعر والمدلّكات غرفة خاصة في القسم الداخلي من البيت، ولم يغلق الباب أمام الغاديات والرائحات، الأمر الذي أتاح لنا الفرصة لإلقاء نظرة خاطفة على سحر حياة الأنثى. ومن الداخل كان يتناهى إلينا صوت الناي والرباب، وفي أحيان أخرى، كنا نسمع صوت كيرا وهي تدندن أشعار زوجها.

في ذلك اليوم الخريفي المبارك، كان سلطان ولد قد بلغ السادسة والعشرين من العمر، وكانت زوجته قد بلغت السادسة عشرة. كان قد مضى على غياب شمس أربع سنين.

في يوم الزفاف، رافقتُ سلطان ولد إلى الحمّام حيث غُسّل ودُلّك ودُهِن بالزيت وعُطّر، وشُذّبت لحيته. ارتدى ثياباً جديدة. وعندما وصل إلى المدرسة ممتطياً صهوة حصان مزدان بشتى أنواع

الزينة، استقبله عشرات الأصدقاء بالتهاليل والأهازيج، وعندما دخل البوابة واجتاز الرواق الرئيسي الذي يعجّ بالضيوف المهمين، دخل إلى الحجرة التي تزوّج فيها شمس وكيميا. كانت حجرة هادئة صغيرة كان والده وصلاح وفاطمة ينتظرونه فيها. تلا الرومي أشعاراً تمجّد الزواج، وذكّرني هذا أيضاً بذلك الزفاف.

مدّ الرومي يده اليمنى، راحة يده مرفوعة نحو السماء، ووضعت فاطمة يدها فوق يده، ثمّ وضع سلطان ولد يده فوق يدها، ثمّ وضع صلاح فوقها يده التي ختمت هذا الاتحاد.

نُصبت خيمة في الفناء للمدعوين. وزراء وولاة أثبتوا بحضورهم أنّهم يباركون هذا الاتحاد بالإضافة إلى اتحاد الرومي وصلاح.

حيّاهم سلطان ولد وطلب منهم أن يتخذوا مجلسهم على الأرائك التي صُفَّت حول الخيمة، ثمّ دخل الخدم ووضعوا أمام كلّ ضيف منضدة صغيرة مكسوة بمفرش مطرّز عليها صحن من الخزف وسكين من الفضة. في البداية قُدِّمت مشهّيات باردة من لحم الغزال المنقوع في الخلّ الذي أشرفت كيرا بنفسها على إعدادها، ثم قُدِمّ لحم الحمل وطير الحجل وطبق خاص من لحم صدر العجل المطهو بالنخاع ومخّ البيض. أما الحلوى، فقد قُدِمت كعكة معجون اللوز وبذور الرمان. ثم طلبتُ من الخدم إحضار أحواض وأباريق ومناشف مصنوعة من أجود أنواع القماش، وقناني ماء الورد للضيوف الأكثر تواضعاً - لأن الدعوة لم تقتصر على كبار القوم - لغسل أيديهم ورشها بالعطر بعد الطعام.

عندما قُدِّمَ الطبق الرئيسي، رحب الرومي وصلاح بالضيوف. وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، لم أر على وجه مولانا علائم تشي

بالحزن أو الألم، بل تشي بالجذل والراحة. وكعادته بدا صلاح هادئاً وديعاً.

ثم دخل العازفون والمغنون والمنشدون إلى الخيمة، وأقاموا في الحال رقصة سّماع تصدّرها الرومي وصلاح. استمر الرقص والاحتفال طوال الليل. وبينما كان مولانا يدور، رأيته وسمعته ينشد هذه الأبيات التي تمجّد رقصة العالم:

مباركة هي أعيادنا وأعراسنا،
في هذا العالم،
فالله خاط لنا،
هذه الأعياد والأعراس.

كوكب الزهرة أحبّ القمر،
وأحبّ السكّرَ الببغاءُ،
لنحتفل بأعراس ملكنا،
الوسيم كلّ مساء.

للبدء، هذا المساء البارد،
تشق طريقك إلى حفلة العرس،
تصبح صهر الطيب،
وأنت الطيب، زينة المدينة.

تمشي مرحاً في زقاقنا،
تمشي بسمو إلينا،

بسرعة، تقفز فوق جدولنا،
أنت، جدولنا والسالك في طريقنا.

يمكنك أن تكون قاسياً،
لكنّي لا أستطيع أن أكون كذلك.
اطلب الوفاء والإخلاص،
ضع قدم الغزو على نفسنا الذي يطهّر دمنا.

ارقصوا أيها الصوفيون،
ارقصوا! أنتم المنصفون، دوروا!
حول ثروة ملك العالم،
الملك الذي يمنح النفس.

الطبلة حول رقبتي!
في غرفة الزفاف، الورد وأزهار النرجس،
لأن الطبلة ستكون الليلة
أجمل مخلوقاتنا.

بعد فترة من الزمن، أخبرني مولانا أنه أحسّ في تلك الليلة بأن كبير الملائكة في الجنة رقص معهم أيضاً، وقال إن كنّته فاطمة رأت ما أحسّ به الرومي. نعم، فقد رأت الحوريات يضربن على الدف ويبتهجن وقال أيضاً إن النعمة التي جاءته في ذلك المساء هي نفس النعمة التي رافقت لقاء آدم وحواء ويعقوب ويوسف والضيف والساقي.

في الفترة التي أعقبت الزفاف ساد الهدوء. لم يكن مثل الهدوء الذي ساد بعد زواج شمس. في واقع الحال، أين هو شمس حقاً؟

كان الرومي يردد أنه هو أصبح شمس، ويقول إن شمس ما هو إلا هو. كان ينشد ذلك ليل نهار، إلى حدّ أننا مللنا أحياناً من سماع ذلك. كنت أنظر إليه وهو يدور. عيناه مغمضتان وجسمه مبلل بالعرق، يردد اسم شمس مثل ابتهال، آلاف المرات.

لكن على الرغم من أنه اتحدّ مع مولانا، فأين هو شمس حقاً؟ عندما توقّفنا عن البحث عنه وأغلقنا الباب في وجه «ناقلي الأخبار الكاذبة» أحسست بشيء ينقبض داخل قلبي، كما لو كنا قد فقدنا أي أمل برؤيته مرة أخرى.

لعلّ الرومي قد رأى شمس في نفسه. فقد ذكر ذلك بصوت عال وجلي في جميع غزلياته، لذلك يبدو أنه اختار رجلاً آخر، حباً مختلفاً، بسهولة. لكني، أنا حسام، أين يمكنني أن أراه؟ لقد اشتقت إلى شمس. ولا يكاد صلاح اللطيف، الهادئ - إلا عندما شجب الله عندما كان في بيت الخلاء - يستطيع أن يعوض تلك الخسارة.

كان مجيء فاطمة التي استقرت في القسم الداخلي من البيت مثل يقظة لطيفة في حياتنا الهادئة، والناعسة قليلاً. فقد عكّرت صفو قواعدنا وشعورنا بالرضى. فلم نرها قط وهي تأكل أو تنام أو تتكلم. قيل إن غذاءها سماوي، وأن فراشها يمتدّ حتى السماء، وأنها تكلّم مخلوقات من عالم آخر. لم تتوقف عين، ابنة المريد معين سليمان، الذي أصبح عميلاً للمغول، والأميرة غوردجي التي لم تتوقف فاطمة عن زيارتها، عن الحديث عن معجزاتها. كانت فاطمة هي التي

مزّقت الحجاب. كانت المصفاة التي كان بوسع المرء أن يرى من خلالها الأشياء كلها، ولم تكن عين تنكر تلك الرؤى السماوية.

منذ زواجها، بدأ الأيتام والأرامل الفقراء يتقاطرون إلى المدرسة، ولم يمر يوم من دون أن تفتح فيه فاطمة الباب للمحتاجين وتقدم لهم أفضل أنواع الطعام، أو تكسوهم بأنواع فاخرة من الثياب أحياناً. وبعد أن كان هؤلاء يحصلون على الطعام والكساء، كان يصعب تمييزهم عن الفقراء الآخرين، وعندما كانوا يغادرون، كان المتسولون الآخرون يظنون أن هؤلاء ميسورو الحال، فيطلبون منهم بضعة دراهم. كان ذلك يحدث يومياً. مجموعة من الفقراء الحقيقيين يطلبون المساعدة من مجموعة من الأغنياء المزيفين، وبعد أن يتوقّف هؤلاء الفقراء لفترة قصيرة أمام المدرسة، يصبحون هم أيضاً أغنياء مؤقتاً كالذين سبقوهم، وكان عليهم هم أيضاً ردّ أيدي المتسولين الممدودة.

اعتزل مولانا الذي كان قد توقف عن التعليم نزولاً عند طلب شمس، مع فاطمة الآن، واستأنف التعليم الذي كان قد توقف عنه. فقد كنت أراها وهي تدخل غرفة مولانا كل يوم وتمكث فيها أحياناً حتى هبوط الليل. وكانت تبقى هناك ساعات، ترقص وتعزف الرباب وتتحدّث عن الأنا الذي ليس النفس، وكنا نريد، نحن المريدين السابقين، أن نستفيد من هذا التلقين، ولو لفترة قصيرة. لكننا كنا نعرف أن الأبواب التي تفتح لها كانت مغلقة في وجوهنا إلى الأبد. وسمعت إشاعات تقول إن كيرا التي استطاعت التحكم بغيرتها من الرجال الذين رافقهم زوجها، لم تحتمل وجود أيّ منافسة لها، فلامته بشدّة على تدريسه لفاطمة، حتى أن ذريانوس سمع كيرا تتكلم بصوت مرتفع وتبكي ثمّ صرخت قبل أن تهدأ ثانية، بعد حديث طويل

من مولانا. وعندما اقترب ذريانوس أكثر سمع الرومي يقول لزوجته، «كيرا، إن فاطمة هي جزء منّي. أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض».

في اليوم التالي، عندما غادر الرومي القسم المعروف باسم «أندارونى»، أي القسم المخصص للنساء، وعاد إلى «بيروني»، القسم المخصص للرجال، بحثنا في وجهه عن علامات الإعياء، فلاحظنا نفس الأمارات التي رأيناها قبل بضع سنوات. فبعد أن أهمل كيرا، كرّمها، كما ادّعت هي نفسها، سبعين مرة في ليلة واحدة. وعلى الرغم من أن هذا الرقم بدا لنا مبالغاً فيه، فقد كان التعب البادي على وجهه يدل، تماماً مثل ذلك الصباح البعيد، على ليلة من العمل المنهك.

بعد لوم كيرا له، كان على مولانا أن يحلّ خلافاً بين سلطان ولد وزوجته. فقد كانت فاطمة تستغلّ أحياناً محبتها لدى الفقراء ومكانتها الخاصة في قلب الرومي، وكانت تتنقل في أرجاء البيت كما يحلو لها، ولم تكن تعير أدنى اهتمام أكان حجابها يحميها تماماً من نظرات الغرباء أم لا يحميها. وعندما كانت تخاطب رجلاً، كانت تنظر في عينيه مباشرة، ولم تكن تظهر الحشمة التي تبديها النساء الأخريات اللواتي كنّ يشحن بوجوههن إلى اليمين قليلاً ويخفضن جفونهن، بل على العكس، كانت فاطمة تفتح عينيها على وسعيهما، وكانت تعطي الانطباع بأنها تهيمن على مجموعتنا الملتحية وتخاطبنا بعينيها وبكلماتها.

لقد سمعت سلطان ولد في مرات عديدة ينتقد زوجته، ويذكّرها بأن تلتزم بالحشمة والتواضع، لكن كل ذلك كان يذهب أدراج الرياح. فلم تكفّ عن وضع حجابها بدون إحكام والنظر بجرأة في وجوه الذين يتكلمون معها. كانا يتجادلان على الملأ، ففي أحد

اللقاءات، رفع سلطان ولد صوته، ولصدمة الحاضرين، رفعت فاطمة صوتها أيضاً. كانت تلك أول مرّة يعلو فيها صياح امرأة - حادّ وجارح - اخترق هذا الجمع من الرجال، وظل صداه يتردد لفترة طويلة في آذانهم التي أصيبت بالصمم، لاسيما أن الصمت العميق هو ما يميّز النساء.

فقد فرّق صياح فاطمة المريدين، وطارد الزوج طويلاً، وأصاب الزوجات القابعات وراء الجدران بالصدمة، وأثار إعجاب مولانا الذي لم يلمها، بل دنا منها وداعب شعرها وقال: «كوني من أنتِ. أعرف لأنك لن تستدري عطفاً أو غيرة قط».

كان شعرها حالك السواد حتى أنه كان يبدو أزرق اللون، وكانت تحيط عنقها بقلائد مرجانية سميكة. وكانت خواتمها تغطي أصابع يدها. وعندما كانت تمشي، كانت قدماها العاريتان المزينتان بالحنّاء تحت كاحليها تداعبان الأرض التي تسيران فوقها برفق ومحبة. واستحدثت راية رفعت ببهاء فوق أبواب مدينة محتلة، وفوق سطح قصر الملك، وعلى سارية سفينة حربية. كيف يمكن أن يطلب أحد راية تختفي من الرؤية؟

كانت تلك الراية المتجبّرة تسترعي انتباه ألف نظرة مندهشة. فعندما كانت الراية ترفرف، كانت تتطاير فوق مرتفعات غير محتملة، وبدا أن سلطان ولد، القاعدة الصلبة، يتجاهل الحركة الفخورة لتلك الراية، واعتبرت فاطمة المتغطرسة نفسها، بأنها في يدي زوجها، مثل طير أُمسك به بصعوبة كبيرة وهاجر بسرعة.

وبغية حلّ خلافهما، أملى عليّ مولانا الذي كان يؤيد بقوة كنّته الشابّة، رسالة موجّهة لابنه:

«أرسل إليك هذه التوصيات عن أميرتنا الشابة، صفاء قلوبنا

ورؤيتنا، وصفاء الكون كله أيضاً: لقد مُنحت لك كوديعة، كاختبار صعب. إن الأرواح السماوية التي تحرس أطفالها، تراقبها، ومن واجبك أن تكرّمها كما كرّمتها أثناء ليلة زفافك، وأن تعاملها كما عاملتها في أول يوم رأيتها فيه، عندما كانت طفلة جالسة على حصان غير عابئة بالعالم كله، وربما بالخالق نفسه. افهم ذلك أثناء الصيد الذي يتم بشبكة القلب والروح، الصيد الذي لم يُصد بعد. افهم أنك يجب، على طول هذا الطريق، أن تبحث، تجري، تداور، تهزم، أن تتقدم بلا كلل، أن تتقدّم ثانية، تتعقّب، تبحث مرة أخرى».

سلمتُ سلطان ولد الرسالة التي حددت موقع الصيّاد والفريسة. لفترة من الزمن، على الرغم من أنها كانت تشعر بأنها في كنف زوجها، كانت متيقنة أيضاً بأنها أفلتت من قبضته أيضاً. مأسورة لكنها لا تزال حرّة.

لم تدم المصالحة طويلاً لأن سلطان ولد عاد يطالب زوجته بأن تذعن إذعاناً تاماً للقواعد السائدة، وأن تتحلى بالرصانة، وأن تخفي وجهها تحت الحجاب، بينما كانت تمضي ساعات وهي تناقش الرومي مسألة الفعل الإلهي الذي يتجلى في الخطاب البشري. كان من الواضح أن الفريسة والصيّاد لم يكونا يتشاركان الأرض نفسها. وتجادلا مرة أخرى، وأحسّ مولانا بأن عليه أن يتدخّل. ورأيته يلوذ بغرفته طوال اليوم، وهو يكتب رسالة إلى المرأة التي يعتبرها أذكى مريداته، زوجة ابنه، فاطمة.

بعد سنوات، حرصت على نسخ الرسالة التي قال فيها للشابّة بأن حزنها يؤلمه أكثر مما يؤلمه حزنه عشرة أضعاف. فقد كتب:

«إذا استمر ابني يعذّبك فإني سأنزع قلبي منه ولن أعود أهبّ لنجدته. سأحرمه من زيارة قبري. إنك تشعرين بالقلق لكن يجب أن

تعرفي أن البحر لا يلوّثه فم الكلب، وأن وجود ذبابة لا يبخس قيمة الخبز الحلو، واعلمي أيضاً أنني لن أقبل دموع الذين ينتقدونك ولا أعذارهم وحججهم. ومقابل ذلك، فإني أتوقّع أن تخبريني بكلّ شيء، لأنك أنت الضحيّة. أخبريني بكلّ شيء لكي أستطيع، على قدر استطاعتي، أن أهبّ إلى مساعدتك. إنك، في هذا العالم، معبد سلامة الله».

تمت مصالحتهما، ومثلنا، استمر مولانا ينصت إلى سلطان ولد وهو يشكو من زوجته عن «صفاء قلبها ورؤيتها» لسنوات عديدة. وكان يتهمها بتقلب مزاجها وعدم مبالاتها وإخلاصها وظهورها غير المحتشم. ولسنوات دافع الرومي عن «أميرته ذات الطبيعة النقية، جوهر الصبر والرقة».

لقد ختم زواج ابن الرومي وابنة صلاح اتحادهما، وكنت أسمع مولانا وهو يشير إلى ابنتي صلاح بأنهما «عينه اليمنى» و«عينه اليسرى». وقد أنجبت فاطمة، «العين اليمنى» ابناً جسّد الحبّ الخاص الذي يسكن الجدّين، وكان مولانا، كلما حمل الطفل، يتذكّر صلاح.

عندما بلغت هدية، العين اليسرى، الأخت الصغرى، العمر الذي بدأت تجذب فيه الجنس الآخر، أغرم بها نظام، الخطاط، وأراد الاقتران بها. كنت أول من أفضى إليّ برغبته التي كانت لا تزال سرية، وكان يفكر منذ فترة بعيدة بالزواج من هدية التي كان قد رآها في المدرسة، لكنها لم تكن قد نضجت للزواج بعد.

لفترة من الوقت، أحسست أن عذاباً سرّياً يعتري نظام. كان يمكن رؤية ذلك بوضوح في فنّه. فقد كشف خطّ فرشاته وشكل رسائله عن قلق دفين، مثل الطيور أو الحيوانات البريّة التي تفتقر إلى

الوزن والتأثير. في النهاية، سألته عمّا يضايقه: صحته، إمكانياته المالية، نير المغول الذي أثقل كاهلنا جميعاً؟ لا، لا شيء من هذا. ألحفت عليه بالسؤال، وبخلاف كلّ قواعد السلوك، سألته عن حياته الغرامية، فتهاوى وأخبرني أنه مغرم بهدية منذ سنوات طويلة. كان عمرها - كانت صغيرة على الزواج - حتى ذلك الحين يطمئنه بأن هناك فرصة في أن يرى مستقبلهما وردياً. لكن بدأت تظهر على هدية بوادر بأنها أصبحت فتاة مستعدّة للاستجابة للقصائد التي تتحدث عن الزواج، فأصبح وجهها يتورد خجلاً. كان هذا السبب الحقيقي لانهيار الحروف من قلم نظام. طمأنته على الفور ووعدته بأن أسأل سلطان ولد إن كانت تبادله الحب، إن كانت عين مولانا اليسرى تتوق للتحديق برقة في وجه الخطاط المشهور.

لم تمض فترة طويلة حتى جاء بالرد. جاء في شكل رسم عندليب تتبع منقاره كلمة قبول، فعادت الخطوط التي يخطّها نظام إلى ثباتها وصفائها السابق. لكن شيئاً واحداً أثار قلقنا، أنا وسلطان ولد وهو عدم قدرة صلاح على تجهيز العروس بما يليق بهما. فعندما تزوج سلطان ولد وفاطمة، أغمضت عائلة الرومي عيونها لعدم قدرته المالية وقبلت العروس التي لا تملك شيئاً باعتبارها هبة من السماء. لكن نظام ليس ابن الرومي. فقد يهدد دخول هدية الفقيرة إلى بيت تقليدي وضعهما في المستقبل.

قررت أنا وسلطان ولد طلب المساعدة من مولانا. بعد أن استمع إلى همومنا، طلب مني بأن أتصل بمربية بنات السلطان، أوستا. وقد فعلت ذلك.

جاءت أوستا، وهي امرأة متعلّمة، بسرعة إلى المدرسة.

هرعت أوستا ووصلت وهي تلهث لأن طلب الرومي يعتبر أمراً

عظيماً بالنسبة لها. تركها مولانا تلتقط أنفاسها، ثمّ قال لها: «اذهبي إلى الأميرة غوردجي وقولي لها إنني أعتمد عليها في تجهيز العروس هدية، ويمكن لسموها أن تطلب مساعدة زوجات الأمراء وبناتهم، وتشجّعهن على التبرع. وستضمن الهدية فضل صلاح وحمايته».

وافقت أوستا. ثم خلعت أساورها الذهبية وأساور الزمرّد التي كانت في شكل خرطوم فيل، ووضعتها أمام الرومي باعتبارها اللبنة الأولى في جهاز العروس. وعندما خرجت، رفضت أن تركب العربة الملكية التي جاءت لتقلّها إلى القصر، بل راحت تجري في أزقة قونية بعد أن علّقت سلة حول رقبتها، وهي تصيح، «شيء لله».

عندما وصلت إلى أبواب القصر، كان نصف سلتها قد امتلأ بقطع الذهب والفضة، لكن ذلك لم يكن كافياً، فتوجهت مباشرة إلى حجرات أخت السلطان ونقلت إليها طلب الرومي. فحمدت الأميرة غوردجي الله لأنه منحها هذه الفرصة الرائعة لإظهار كرمها، فأمرت مساعديها بأن يفتحوا خزائنها والصناديق التي تحتفظ فيها بأغلى أنواع الثياب، وأمرت بإخراج أصناف عديدة منها.

وطلبت من إحدى جواريها أن تختار من جواهر القصر الحلي التي تبرز براءة العروس، فوقفت الجارية ساعة كاملة أمام هذه الكنوز، ثمّ قدّمت للأميرة عشرين زوجاً من الأقراط المزدانة بالماس، وعشرين خاتماً من الزمرد والياقوت، وقلانس مصنوعة من قماش منسوج بالذهب، وأحجبة موشاة بخيوط من الفضّة، وأساور من أحجار كريمة ثقيلة إلى حد أن المرأة لا تكاد تستطيع أن تضعها في معصمها. فردتها الأميرة غوردجي على مفرش مائدة أبيض ورمقتها طويلاً. كانت كلّ قطعة منها تحمل ذاكرة معينة. فقد ذكّرها أحد الأحجبة بخطوبتها بمعين سليمان الذي يعمل لصالح المغول،

وقد ارتدته بافتخار في ذلك اليوم كما يعرض ثعلب فراءه الفضي، ولم تكن تعتريها سوى رغبة واحدة، وهي أن يرفع زوجها حجابها بالإضافة إلى جميع ثيابها الأخرى التي تخفي جسمها البض المتقد، المفعم بألف رغبة ورغبة.

أما الأقراط الماسيّة فقد كانت كنزها عندما كانت فتاة صغيرة. فقد اكتشفت صندوق مجوهرات أمّها في ذلك الوقت، وألحّت على أمّها أن تعطيها بعض المجوهرات التي كانت، حسب الإشاعات، لا تقدر بثمن. فأذعنت أمّها لطلبها مع أن ذلك لم يكن ملائماً، واستسلمت لإصرار الفتاة الشابة الشديدة الفضول. وعندما توفيت أمّها، وحصلت على جميع محتويات الصندوق، أعادت الأقراط إلى مكانها، وتذكّرت نادمة، عنادها السابق.

وذكّرتها القلانس الواردة من منغوليا بزيارة كاهنة ساحرة جاءت من السهوب. وعندما قدمت لها هذه الأشياء الغريبة، قالت لها إن القلانس الطويلة والعالية مخصصة لوضع أفاعٍ فيها، وقالت لها إنها هي نفسها لم تكن تسافر من دون أن تضع أفعى تحت قلنسوتها العالية وتلفّها في متاهة شعرها السميك. أرادت الأميرة غوردجي التأكد من ادّعاءات الساحرة. ولتفادي أيّ سخرية، جُلبت لها أفعى غير سامّة، ووضعتها في شعرها تحت القلنسوة المحاكة من خيوط ذهبية، ومشت مسافة طويلة والقلنسوة على رأسها، وتحدثت إلى حاشيتها بشكل طبيعي بقدر ما أمكنها، دون أن تكشف لأحد أنه مع كلّ حركة تقوم بها الأفعى، يبدأ جسمها كله بالارتعاش، ويوقظ بذلك - لمفاجأتها الكبيرة - جميع أحاسيسها. أحاسيس جديدة لا تقاوم، وبعد أن أزالت غطاء رأسها وأطلقت الأفعى، ساعدتها أصابعها على إرضاء رغبة أصبحت شديدة الإلحاح.

تفحّصت الأميرة غوردجي المجوهرات، وأرادت أن تختار بعضاً منها، لكن تلك الذكريات، سواء أكانت بهيجة أم حزينة، منعتها من الاختيار. كيف يمكنها أن تتخلى عن المجوهرات التي ارتدتها في حفل خطوبتها، أن تهجر القلنسوة التي كانت أصل متع عديدة؟ كيف يمكنها أن تنسى الإهانة التي وجهتها إلى أمّها عندما أصرّت على أخذ الأقراط، والموافقة الرقيقة للمرأة في التخلي عن مجوهراتها فجأة؟

بإيماءة حاسمة من يدها، أمرت بإعطاء جميع الجواهر إلى هدية أمام عيون الجواري المندهشة، فأخذت أوستا، المربية، كمية كبيرة من جواهر بلاط السلطان. عندما جمعتها، تساءلت عن مصير تلك الخواتم وتلك الملابس التي ستنتقل من صندوق مجوهرات أميرة، أو جاءت من السهوب البعيدة لتأخذ مكانها الآن في صندوق بسيط لزوجة خطاط من قونية.

بدأ جهاز عرس هدية يزداد ساعة بعد ساعة، وامتلأت قاعات القصر الداخلية بأكثر النساء نفوذاً في المدينة. وقبل وصولهن، بينما كانت الأميرة غوردجي تنبش في ثنايا ذكرياتها، كان الخصيان منهمكين في نثر أوراق الورد وأغصان الياسمين فوق السجاد، وتغطية الأرائك بالوسائد الناعمة، وملء موقد البخور بعود الند أو بقطع من العنبر.

في الفناء الذي تظلله أشجار الدردار، ترجّلت الزائرات الحاملات حقائب بأحجام مختلفة من المحفات التي تقلهن، وهن يسحبن معهن أحجبتهن التي حاولن أن ينافسن بها ظلال الخريف، ودخلن القصر بخطوات متثاقلة، كسولة. كان المبنى المشيّد بالحجارة الذي يعلوه برج والذي زُيّنت تحصيناته بأحجار اليشب

الكريمة، وزُخرفت جدرانه بالأرابيسك المذهبة، يتوسط مجموعة من المباني: مساكن وحمّامات ومطابخ وشرفات مراقبة.

كانت إحدى النساء ترتدي حجاباً من المخمل الأخضر، وكانت تمشي وتتثنى مثل شجرة سرو عندما تهزّها الريح. ما إن دخلت القصر حتى خلعت حجابها وخلعت نعليها المرصعين بأحجار كريمة. مدّت يديها الهفهافتين إلى الخادمات التركيات والمنغوليات والزنجيات لينثرن عليها ماء الورد المجلوب من أصفهان وشيراز وسمرقند، ثم اجتازت الدهليز الطويل المفضي إلى قاعة الاستقبال وطوت حجابها ووضعته في شال حريري قدمته لها الجواري عند المدخل. وجلست بجانب النساء المرموقات الأخريات على الأرائك، وفي الحال، أخرجت من حقيبتها التي كانت أثقل من حقائب الأخريات، مجموعة من الطاسات والصحون وأدوات المطبخ الذهبية.

وحكت لها امرأة أخرى آخر حكاية خرافية تنتشر في قونية، وهي قصّة بئر قيل إن الإمام الثاني العشر الذي يؤمن به الشيعة يقبع فيها منذ اختفائه، وتقول الإشاعة إن البئر يمكنها أن ترتّب زواج الشابّات إذا أقسمن بأنهن مستعدات لأن يطعن الإمام المخفي، وأن يمضين أربعين ليلة من الشكّ والخلوة والقلق بجانب الحفرة المظلمة. وبينما كانت المرأة تحكي القصّة، كانت تفتّش بعيون فضولية هدايا جارتها وتقارنها بالهدايا التي قدمتها: شراشف ومفرش سرير وأقمشة ثمينة فرشت على الأرضية وغطت السجادة.

ثم وصلت أميرة مغولية، ضفرت شعرها الطويل الذي يلامس الأرض بخيوط من الذهب، تحمل ثريتين وصحوناً كبيرة، ونونية من الفضة الصلبة. كانت الأميرة فارعة الطويل، وقد أثارت كتفاها العريضتان إعجاب النساء الأخريات. وما إن دخلت حتى سألن

جميعهن السؤال الذي كان يساورهن: هل صحيح أنها، بعد أن اجتازت إيران على صهوة حصان من الشرق إلى الغرب، من مدينة مهدمة ومحترقة إلى أخرى، لم تنفصل قط عن نسر خان العظيم الذي كان يجثم على كتفه اليمنى؟ فردّت بودّ بلغة فارسية ركيكة، وعلى وجهها ابتسامة أبانت أسنانها الذهبية. فلاحظت الأميرة غوردجي على أحد أسنانها القواطع شكل صليب. سألت عنها، فقيل لها إن أمّ المرأة المغولية التي قدمت الهدايا، مسيحية، وبدقة أكبر نسطورية. وعندما لعقت بطرف لسانها السن في شكل الصليب، قالت إنها لم تسافر قط دون أن ترافقها خيمة كنيستها لكي تقيم فيها صلاة الميت قبل أن يدفن ولكي تصلي عندما تشاء.

أحضرَت جارية سوداء طبقاً كبيراً فيه العديد من المقبلات: جوز ولوز وتين وأجاص مجفّف ومشمش مجفّف. وبعد أن سجدت أمام سيدة البيت، سألت إن كانت تستطيع هي أيضاً أن تشاركهن كرمهن المبارك وتزيّن جهاز العين اليسرى لسيد الأسياد بالحلية الوحيدة التي تمتلكها وهي خاتم إصبع قدم أعطته لها أمّها قبل أن تغادر بيتها وسماء قريتها إلى الأبد. قرّبت الأميرة يدها من الشعر المجعّد للجارية التي كان رأسها لا يزال يلامس الأرض في وضعية خنوع، وسمحت لها بأن تتبرّع بخاتمها. ثم غطّت شعر المرأة السوداء الذي بدا تحت يدها المداعبة مثل غابة كثيفة بقطعة من القماش المطرز بالذهب. رفعت الزنجية رأسها، وقد أبهر انعكاس المعدن الثمين على وجهها الداكن النساء الأخريات.

أخذت المربية أوستا، القطع التي ستُستخدم لجهاز عروس ابنة صلاح، وحمّلتها على بغال من إسطبل أحد أفراد العائلة المالكة، وأرسلتها إلى مدرسة الرومي. وبقدر ما أعود إلى ذاكرتي، لا أستطيع

أن أتذكر شيئاً كهذا. حتى أمّي التي عاشت ثرية لم تتخيّل هذا القدر من الهدايا.

جاء الرومي نفسه لرؤية جهاز العروس. فأبدى دهشته وطلب أن يقسم إلى قسمين. فقد رضيت ابنة صلاح الكبرى التي يطلق عليها «عينه اليمنى»، الزواج من سلطان ولد من دون أي مهر. ولما كان يعرف شخصية فاطمة، فقد رغب بهذه البادرة تجنباً لوقوع خلاف داخل الأسرة. لاحظتُ ابتسامة سلطان ولد، فقد أنقذه طلب والده من ساعات من الانتقاد والخلافات.

أما النصف الآخر، فقد نُقل على ظهور البغال نفسها عبر أزقة قونية الضيّقة، ليزين بيت الخطاط المتواضع. وملأ نظام المندهش غرف ورشته بأجمل الجواهر من الفضة والذهب. وعندما وضع الثياب والقلانس الطويلة في الصندوق القديم الذي يضع فيه عادة أدوات الكتابة الثمينة، لامست يده جسم الأفعى المتصلّب البارد الذي ظنّه للوهلة الأولى قصبة. كانت الأفعى بانتظار أن تملأ قلنسوة العروس الطويلة. كانت هذه العادة التي يمارسها الآباء والأجداد في السهوب، جزءاً من التدريب الطويل لتحقيق المتعة.

وهكذا عُقد قران نظام، الخطاط، وهدية ابنة صلاح الصغرى، عين الرومي اليسرى- ثم.

ثم ماتت أمّ صلاح في أحد أيام فصل الربيع فامتلأت الأزقة برائحة أزهار الأكاسيا، واخترقت ظلال الحمالين الأزقة الطويلة المستقيمة.

وكما لو كانت أختها، اهتمت كيرا، زوجة مولانا، بمراسم الجنازة. وقامت هي، وليس فرد آخر من أفراد أسرة المرحومة بوضع الجثمان الملفوف بكفن على محفة مغطاة بالحرير، حَمَلَها إلى

المسجد أربعة رجال اختارتهم كيرا بنفسها، وتقدم الموكب أفضل المنشدين. وفي بادرة غير معتادة، غادرت كيرا البيت لأول مرة منذ أن أنّبها الرومي على خروجها من البيت من دون أن تستأذنه وصارت بفعل اللعنة القديمة حسّاسة للبرد طوال حياتها، فبدأت تتلفّع بفراء ثعلب أسود حتى في عزّ الصيف. وتقدمت النادبات لتظهر للمدينة كلها مدى ولائها لعائلة صلاح. بحضورها هذا، وضعت حداً لتفاهة الغيرة.

انضمّ جمع من الناس إلى الموكب الذي شقّ طريقه عبر أزقة المدينة. عندما وصلت النادبات يتقدمهن صراخهن وعويلهن، بوجوههن المسودّة وشعرهن الخفيف، أمرتهن كيرا بالصمت فصمتن لقاء حفنة من الدراهم. من الواضح أن الصمت يكلف أكثر من الضوضاء. عندما وصل الموكب إلى باب المسجد، توقّف المنشدون ووضع الرجال الأربعة ذوو اللحى الطويلة والوجوه الشاحبة الجثمان أمام المحراب، وبقيت النساء في صحن المسجد. ثم رددت كيرا أدعية الميت. بعد ذلك، وقف الرومي عند قدمي المرحومة وأقام صلاة الجنازة. حتى الكلمات المقدسة التي انطلقت من فمه أخذت شكل إيقاع، وخشيتُ في سريرتي أن يبدأ بالدوران ويرقص السّماع أمام الجثمان، بعد أن تملكه الوجد من سماع كلمات القرآن. وتدعو التقاليد إلى أن يؤم أكبر رجل في العائلة صلاة الجنازة، وإذا لم يكن موجوداً، يحلّ محله واحد من سلالة الأسرة. أما اليوم، وللمرة الأولى، وعلى الرغم من وجود ابن المرحومة، فقد أقام صديق العائلة الصلاة. وكان ذلك مفاجأة أيضاً.

عندما انتهت المراسم الدينية، رافقت كيرا الجثمان على رأس موكب النساء، إلى الحمّام وأوصت الغاسلات بغسل البشرة الجافة

بعناية لتصبح كأنها بشرة عروس شابة. غُسل الجثمان ثلاث مرات بالماء ودُعك بأوراق العناب ثم بالكافور، وحلق الشعر تحت إبطيها، وغطّيت بمئزر قطني، ولفّت بشرشفين، ثم أعيد الجثمان إلى المحفة وحمل إلى المقبرة حيث ووري الجثمان الثرى، ووجّه وجهها نحو القبلة، وأسند رأسها بقطعة من الطوب. وعندما أهيل التراب على القبر، أقيم فوقه سقف من الآجر يستند إلى أربعة أعمدة. هدية من أخوّية صلاح.

بعد أن عادت كيرا إلى المدرسة، طلبت أن تشرع الأبواب وأن تقام مأدبة. ووزّع الطعام على الفقراء في الطرف الآخر من المدينة، بينما تلا المقرئون آيات من القرآن.

خلال تلك الفترة، خيّم الظلام على المقبرة وسار المعزّون بين القبور. وراح الرومي وصلاح، الواقفان بجانب القبر، يراقبان دودة أرض وهي تحفر ببطء وبصعوبة التراب الطري لتبدأ العمل الطويل لتحلل الجسد.

عندما اختفت الدودة، قال الرومي لصلاح: «لنذهب».

انحنى صلاح. ودون أن يتحرك، قال لسيده، «إن لها حقوقاً كثيرة عليّ. أريد أن أحميها من أهوال القبر ومن خوفها من ملكي الموت. ولأنها تخاف عذاب القبر، فإني أطلب منك بأن لا نتركها وحدها. أسأل الله أن تصحبها الحوريات. بعد ذلك، سأغادر».

مضت ساعة. ظل الرجلان واقفين لا يأتيان بحركة. ثمّ ابتسم صلاح، ونظر إلى الرومي وقال له: «الآن، يمكنني أن أعود».

هناك، في القبر، لم تعد المرحومة وحيدة.

ارقص على الطريق إلى قبري

لم تكن قد مضت فترة طويلة على جلوس السلطان عز الدين على العرش. وكان وزيره أصفهاني أحدَ مريدي مولانا وكان يتردد عليه باستمرار. وغالباً ما حدّث السلطان عن الفوائد الروحية التي يمكن أن يجنيها من تلك الجلسات والتغلغل في أعمق أحاسيسه. لكن السلطان الذي كان ينزع إلى الشك، طلب برهاناً لاثبات ذلك. وكان الوزير يناقشه كثيراً، لكن عبثاً.

في أحد الأيام، بينما كان عز الدين في رحلة صيد في سهول قونية، رأى أفعى صغيرة تزحف عند حافة بحيرة. وبدون علم حاشيته، أمسك بالأفعى ووضعها في صندوق ذهبي صغير، كان قد قدمه له إمبراطور القسطنطينية، وكان يحمله معه أينما ذهب. وعندما عاد إلى المعسكر ودخل الخيمة الملكية المؤثثة بأجود وأثمن أنواع الأقمشة المرصعة بالذهب وبالأحجار الكريمة، جمع الوزراء والأعيان والفلاسفة، وسألهم عمّا يوجد في الصندوق الذي أغلقه بإحكام.

«انظروا جيداً إلى هذا الصندوق الذي قدّمه لي إمبراطور القسطنطينية المسيحي إقراراً بأصالة ديننا، وقال لي: «إذا عرف الحكماء في بلاطك ماذا يوجد في هذا الصندوق عندها أعرف أن

دينكم هو الدين الحق». هيا اذهبوا وفكروا وتأمّلوا واستشيروا النجوم أو أي شخص ترغبون فيه، لكن أريد أن أعرف ماذا يوجد في هذا الصندوق».

بعد أن تفحصوا الصندوق جيداً ووزنوه ودققوا فيه، انطلق بعض الرجال يفكرون وحدهم، وشكّل آخرون مجموعات لمناقشة ماذا في الصندوق. ولجأ آخرون لاستشارة السجلات والمحفوظات، وذهب الوزراء إلى السجون وسألوا زملاءهم السابقين، بعد أن سدّوا أنوفهم بمناديل حتى لا يشموا رائحة أجسام السجناء النتنة التي ينهشها القمل. لكن أحداً منهم لم يعرف شيئاً ماذا يوجد في هذا الصندوق الذهبي، على الرغم من أن المنجّمين استشاروا مخططاتهم، حتى أنهم سألوا السماء نفسها لكنها لم تقدم لهم جواباً. وصَفَّ العرّافون ضفادعهم للتكهن بواسطتها، وهي طريقة جديدة في التكهن تعلموها من الصين: فقد كانوا يعتقدون أن نقيق الضفادع يشبه أحرف العلة، أما أصوات الضفادع الصغيرة فتشبه الحروف الساكنة. لكنهم أخفقوا أيضاً لأن الضفادع لم تقدم لهم أي كلمة مفهومة. فقد صمتت ولم تحر جواباً في مسألة الأفعى هذه.

بينما كان الجميع يستعدون لإقامة صلاة العصر، دعا الوزير أصفهاني السلطان لزيارة الرومي الذي يمكن أن يكشف اللغز.

جاء خيالة يمتطون خيولاً سريعة لينقلوا إلينا خبر زيارة جلالته.

مذعورين من فكرة تدخل جلالته، أسرعنا نستعد للترحيب بالسلطان حسب ما يليق بجلالته. كان مولانا الوحيد الذي ظل هادئاً. وكان صلاح لا يزال في السوق يغلق محله. وفي المساء، وصل الموكب السلطاني الملكي إلى المدرسة.

رافقنا السلطان إلى «السماع خانة». كانت تلك أول مرة أرى

فيها السلطان عن قرب. كان يرتدي ثيابه الرسمية: سترة حريرية قرمزية، مزرّرة بأزرار من الزمرّد والياقوت والماس. كان يحمل في يده الصندوق الذي يحتوي على السرّ المصون كما لو كان صولجانا أو نسراً إمبراطورياً.

عندما عاد صلاح من السوق، دخل الحجرة. دعاه مولانا للجلوس بجانبه. كانت قد مضت فترة طويلة منذ أن مُنح صائغ الذهب هذه المكانة المشرفة. انحنى أمام السلطان، ثمّ جلس صامتاً بجانب الرومي.

مشيراً إلى الصندوق الذهبي، سأل السلطان مولانا ماذا يوجد فيه، فالتفت الرومي نحو صلاح، وقال: «دع شيخنا يشرح لك لغز الصندوق». من دون تردّد للحظة واحدة، انحنى صلاح للسلطان مرة أخرى، وقال له:

«يا سلطان الإسلام، لماذا تدور وأنت تحمل أفعى صغيرة؟ لماذا ترغم هذا الحيوان البائس على المعاناة في هذا السجن العبثي؟ إني أعرف، أيها السلطان، أن السبب الحقيقي لزيارتك هو لاختبار مولانا، لكنّه يعرف ماذا يوجد في صناديق السماء، المناطق البعيدة عن كوكبنا، أفكار الخلق الخفية، وسرّ الألغاز الإلهية. لماذا ينبغي له أن يكترث بصندوقك وأفعاك؟»

في تلك اللحظة رأيت السلطان يكشف عن رأسه ويصبح مريداً لأحد أتباعه المغمورين، صائغ ذهب متواضع من سوق قونية.

عندها طلب مولانا العازفين لإقامة رقص السماع. ما إن انطلق صوت الموسيقى حتى نهض وسحب حبيبه ليدور معه. انتظر السلطان وحاشيته حتى انتهى الرقص وانتهت مراسم العودة إلى القصر. عندما غادر، مال عز الدين، ظلّ الله على الأرض، إلى وزيره، وقال: «إذا

كان لمريديه هذه القوّة، فما هي العظمة التي توجد في حياته وذكائه وأسراره؟»

لم يجب الوزير. فقد كان يحاول منذ زمن أن يشرح له بعض الأسرار وصمت حول فهم عالم الأمور الغيبية لأن الكلمات تعجز عن التعبير عن الأمور التي يتعذر وصفها.

عند ناصية زقاق صغير يضيئه وهج الفجر بشيء من الحياء، فتح السلطان الصندوق وأخرج الأفعى. وبعد شيء من التردد، واصلت الأفعى حركتها المعتادة. وبحركات جسمها رسمت على الأرض اسم «الرومي».

في سنة ٦٥٤ للهجرة (١٢٥٦)، هاجم القائد المغولي بايدو الأناضول، وحاصرت قوّاته قونية. كان أهالي المدينة يعرفون الأساليب التي يستخدمها المغول، فتوقّعوا أسوأ أشكال الموت، وتملكهم الخوف من التعرض للاغتصاب والخنق والحرق وهم أحياء، والتقطيع إرباً إرباً، بل حتى التهامهم. وتخيّل كلّ شخص الطريقة التي سيقتل بها. بدا الوضع ميؤوساً منه. توقّف الناس في السوق عن المساومة على أسعار البضائع، ولم يعد أحد يهتم بنظافة الحمّامات. وأهمل الجنائنيون العناية بالأزهار فذبلت، وهجر الطلاب المدارس، وأهمل المؤذّنون الدعوة إلى الصلاة، ورفض الأطفال الرضاعة من صدور أمّهاتهم، وأعاد اللصوص ما نهبوه إلى أصحابها الممتنين، ونبحت الفئران، وماءت الكلاب، وولدت امرأة وأنجبت سلحفاة. وبدأ تركي يتكلم الصينية فجأة. واختفت البقع من الملابس، وقفز السمك من النهر، وبدأت الأبقار تأكل اللحم. وتوجّه صراف عملة إلى السوق واشترى أقمشة مطرزة وراح يخيطها.

وعلى الجانب الآخر من الأسوار، بدأ المغول الغزاة يستعدون

لشنّ هجومهم. لم يشكّ أحد بأنّ النصر، مثل عشيقة مهجورة، سيجري لمعانقتهم. لكنّنا كنا نعرف أيضاً بأن المغول لا يرضون بغزو عدوهم فقط، لأن الحرب الحقيقية بالنسبة لهم، تبدأ بعد المعركة، وراء الجبهة، داخل المدن. فقد كانوا يشنّون حروبهم من أجل القتل والنهب والسلب فقط.

أما في المدرسة، فقد بدا كلّ شيء هادئاً. ولم أر قط مولانا يسأل صلاح الذي كان، بسبب مهنته، يعرف أكثر ما يجري وتهديد المغول. وارتفع سعر الذهب ارتفاعاً جنونياً، لكن ذلك أيضاً لم يدخل في أحاديث الحبيبين.

خلال تلك الأيام السوداء، جاء جمع من الناس إلى المدرسة ليسألوا مولانا كيف يمكنهم النجاة من المصير المشؤوم الشرّير الذي يخبئه لهم المغول.

غادر الرومي حجرته، وانتعل حذاءه، وسوّى عمامته التي تراخت بسبب دورانه المتواصل، وخاطب الناس المحتشدين في صحن المدرسة، من الشرفة الممتدة على طول الحجرة.

على الفور أخرجت ورقة وقلماً من كمّي لأدوّن كلماته:

«لا تخافوا، لأنكم هدية الله للشيخ صلاح. أما المدينة، فلن يلحق بها دمار ولن تمسّها سيوف المغول إلى يوم الدين. فمن يهاجم قونية لا يمكنه أن يتفادى الجروح التي سننزلها به، واعلموا أيضاً أنه ما دامت عظام أبي المباركة ثاوية في تراب قونية، فإن هذه الأرض محمية من الويلات. نعم، ستكون هذه المدينة واحدة من أشهر المدن في العالم، وسيعيش أحفادنا هنا بأمان إلى الأبد».

ثمّ عاد إلى حجرته، وخلع حذاءه، ونزع عمامته، وأخذ قطّته وداعبها ومسد فرائها، وقال لصلاح: «يعتقد هؤلاء الناس أن الدمار

والموت والفناء والفوضى والخوف هي من عمل المغول. لكنهم يجهلون الحقيقة».

ثمّ رأيت مولانا يستوي واقفاً، ويسند ذراعيه إلى الحائط، وأخذ يميل برأسه من جهة إلى أخرى، وقال الأبيات التالية التي يصبح فيها الكون والإنسان، عندما يحترقان، شيئاً واحداً:

إذا انبعث نَفَس الحبيب،
وأصاب الكونَ المصنوع من النار،
ذلك الكون الذي بلا أصل،
سيذوب ويغدو ذرات.

ويغدو الكون كله بحراً،
وقد يصبح البحر عدماً.
عندها لن يبقى ناس ولا حاكمون،
عندها يُسحق الإنسان.

ستصعد سحابة من الدخان إلى السماء،
ولن يبقى أناس ولا ملائكة،
وفجأة يضرب ذلك الدخان،
ذلك السقف العظيم بالنار.

وعندما تتمزّق السماء:
لن يبقى كائن ولا مكان،
والحركة في الكون،
ستصيب الحزن والألم.

أحياناً، النار تأخذ الماء،
وأحياناً الماء يلتهم النار،
من بحر العدم، الأمواج،
تضرب الأسود أو الأبيض.

وتصغر الشمس لانهائياً،
في نور نَفَس البشرية،
لا تنتظر شيئاً من المريد المبتدئ،
إذا كان الأستاذ جاهلاً.

فقد المريخ رجولته،
وكتاب المشتري يحترق،
لم تعد ثمة أبهة للقمر،
وبهجته تقرع إيقاعاً حزيناً.

عطارد يسقط في الطين،
واللهب يحيط بزحل،
ولن تعود الزهرة حزينة،
لأنها ستعزف إيقاعاً بهيجاً.

لم يعد قوس قزح، ولا سماءٌ،
لم تبق خمرة، ولا كأس،
ولا متعة ولا بهجة،
ولم يعد البلسم يشفي الجروح.

ولن يرسم الماء أشكالاً،
ولن تهب الريح،
ولن تصيح الحديقة: البهجة لك،
غيمة نيسان: لا قطرة واحدة.

لم يبق ألم ولا علاج،
لم يبق عدو ولا شاهد،
لا يوجد ناي ولا إيقاع،
ولا عود يعزف الألحان.

مُحِقَت جميع الأسباب،
والساقي يخدم نفسه،
النَفَس يقول: «يا إلهي العظيم!»
والقلب يقول: «يا إلهي من يعرف!»

رحت أراقب مولانا وهو يرقص ويدور على إيقاع هذه القصيدة الغزلية، إحدى أجمل قصائده التي كتبها حتى ذلك الحين. وفي الوقت نفسه، رأيت صلاح وأدركت بأن التهديد الحقيقي لن يأتي من حشود المغول التي تصرخ تحت أسوارنا، بل من نَفَس الحبيب الذي سيذيب الكون إلى ذرات ويسحق البشر والملائكة، بلا تمييز، وهم يقودون أنفسهم نحو العدم.

فصل أعقب فصلاً. ولم تتعرض قونية لهجوم المغول لأنها تمثّل هدية الله للشيخ صلاح. ومرة أخرى، نشر الشتاء عباءته الناصعة والباردة فوق أراضي وسهول الأناضول، ذلك البرد الذي نخر لحم

وعظم شمس - الرجل الذي كانت تسودّ أظافره وينحني ظهره - وراح الآن يتسرب عبر شقوق نوافذ غرف المدرسة، مباشرة إلى سرير صلاح.

بدا أن المرض سيودي بحياة صائغ الذهب. كنا نعرف ذلك جميعاً. وبينما كان ينتظر الموت، لم يكن أحد يزوره إلا شخص واحد فقط، وهو الرومي. أمضى مولانا ليلة كاملة مع الرجل المحتضر، يشاطره معجزات وأسرار غريبة. وعند الفجر، عندما غادر، مرهقاً وبائساً، الحجرة الموسومة بالموت، كنت أنتظره في الرواق الطويل المفضي إلى غرفة نومه، أحمل في يدي طاسة. تناول بضع رشفات من الشاي، ثمّ أمسك بأصابعي التي لا بد أنها كانت تبدو له، بالمقارنة مع أصابع الرجل المحتضر، تتوهج بالنار، ثمّ نظر إليّ بامتنان. خلال تلك اللحظات، لم يكن معنى للكلمات.

كان البهو قصيراً وأعرف أن خطواتنا كانت معدودة: لم تكن أكثر من ثلاث خطوات حتى يغدو باب غرفة نومه أمامنا. أدركت أنه بعد خمس عشرة سنة من الألفة اليومية، أردت، بل وصلّيت بحرقة بأن يتأخر وصولنا، بأن تمتد الخطوات الثلاث لتصبح أربعاً، بل حتى خمس أو ست خطوات؛ بأن يستجيب الله العلي القدير الذي أطعته طوال حياتي لأمنيتي.

عددت واحداً، اثنين، ثلاثة، وسدّ الباب المتصلّب طريقي. دخل سيدي حجرته ومشيت أنا إلى الفناء لأغادر المدرسة وأعود إلى بيتي وأسرتي.

في الطريق تذكّرت السنوات العشر التي أمضاها صلاح والرومي معاً. أحدهما سيغادر والآخر يقبل القدر الذي، مثل ريح الخريف، أصاب صلاح، «السروة الهائمة».

قبل عشر سنوات، كنت قد دوّنت مغادرة شمس في ليلة أخرى من ليالي البرد والثلج، بعد الإهانات التي تعرض لها.

بينما كنت أسير فوق الثلج، كنت لا أزال أستطيع سماع صوت شمس المرتعش من البرد في تلك الأيام العصيبة، عندما كان الرومي الذي تعمد إثارة فراقهما، يهيّئ احتراقه.

«في الحقيقة أنت، نعم أنت م، من قال إنني سيء الطبع، حاد المزاج. المعاناة تتدفق مني، لأنك جعلت روحي بلدك. إن الروح تغوي إذا تملكتها الرغبة في العناق والتقبيل والمداعبة، مقدّمة في شكل قصيدة. في داخلي إشارات الغفران. سرعان ما سأسقط على الجانب الآخر وأغرق في الغفران. إن الإشارات هناك. نعم، إني أراها، إنها هناك».

وقبل بضعة أيام من اختفائه، قال لي شمس، «الشتاء قادم. إن شمس بحاجة إلى معطف».

لا أذكر أنني اشتريت له المعطف الذي طلبه. كان همي الوحيد قبل رحيله هو أن أحميه من أي اعتداء، وأحرص على ألاّ تطأ قدمه خارج باب المدرسة وحده. نعم، كان معطفه مهترئاً لكنني لم أكن أفكّر إلا بتفادي الأحداث غير السارة. هل لا يزال يشعر بالبرد الآن؟ لماذا، أصبح عدم اكتراثي لشراء معطف جديد له يعذّبني فجأة الآن، وأنا أسير في الطريق المكسو بالثلج إلى بيتي؟ إن صلاح يُحتضر وأنا ألوم نفسي على هفوة سابقة ارتكبتها بحق شمس الذي ربما كان لا يزال حياً يرزق. وخلال سيري تذكّرت مغادرة شمس وقول سلطان ولد، «فجأة، لقد ضاع منّا»، وأتذكّر أن ذريانوس أضاف، «نعم، اختفى فجأة» وأنا الذي أحسست بأن البيت أصبح خاوياً من وجوده، سمعت الرومي يدندن:

أضاءنا كشمعة، أين ذهب؟
أين ذهب من دوننا؟
في كلّ يوم قلبي
يرتعش مثل ورقة شجر:

وحيداً، في منتصف الليل،
سارق القلب، أين ذهب؟
مثل مجنون أهيم في الصحراء:
في تلك الصحراء.

الأيّل، أين ذهب؟ إنه معنا،
حتى لو كان مع آخرين،
بما أنه ليس هنا،
فإلى أين ذهب؟

كان صلاح يُحتضر. في تلك الليلة، وبينما كنت أغذّ الخطى، رأيت، كما لو أن وميض برق أشعل النار فجأة في السماء المظلمة، فقط ذكريات عن لقاء سيدي الأول. غاصت قدماي في الثلج، وعبرت أزقة قونية المظلمة، واجتزت قططاً لم تكترث لوجودي، ونبحت كلاب، وسمعت صوت شمس يقول للرومي، «عقدت عهداً مع الفرح. عهدي هو أن يكون الفرح لي».

صرير الريح الجليدية، الريح التي كانت تمنع شمس من التجول خارج المدرسة أثناء فصل الشتاء، لم يمنعني من سماع موافقة مولانا:

إن كنت عاشقاً،
فاهجر الحزن؛
شارك في الزفاف والأعياد،
واهجر الندب.

ويمكنني أن أسمعه يقول:

إن قدر الزهرة ضحكة، ماذا يمكننا أن نفعل،
إن لم تكن لها دموع؟
بسببه، ينمو النرجس والأزهار
في قلبي المستيقظ.

إن قلبي هو بيت الفرح.
ماذا يمكنني أن أفعل إن لم أكن حزيناً؟
أتحاشى كلّ ما هو كئيب في العالم،
أمتعض من الكراهية.

في تلك اللحظة، كان صلاح يلفظ أنفاسه الأخيرة. قيل لي إنه قبل أن يُسلم الروح إلى بارئها، ذكّر الرومي بأنه عندما كان تحت تأثير شمس، قرّر أن يتوقف عن التعليم وعن الدعوة، وأن الشخص الوحيد الذي جعله يلقي خطبة أخيرة لم يكن السلطان ولا الوزير، ولا ابنه المحبوب، بل ابن صيّاد سمك بسيط من قرية كاميلاه أصبح بعدها صائغ ذهب في سوق قونية، صلاح نفسه. ثمّ أضاف:
«غطّ جثماني بكل أنواع الطبول: الطبلة والقوس والدف. اذهب إلى قبري مرحاً، واشرب، وصفّق. ارقص على الطريق إلى قبري».

ثمّ أغمض عينيه وسافر من «عالم الأشكال إلى اللا مكان الذي تقطن فيه الأرواح».

بفمه تلقى الرومي نَفَسَ صلاح الأخير. بقدمه قرع أغنية الحداد، وقال القصيدة التالية التي تختتم في كل بيت منها بكلمة «بكاء»:

في غيابك،
الأرض والسماء بكتا.
جالسين في الدم،
العقل والروح بكيا.

حزين،
لا أقوى على الكلام.
لأصف كيف،
أن كلّ هؤلاء بكوا.

كنتَ مائة كون،
ولم تكن كائناً واحداً.
البارحة رأيت العالم الآخر
لهذا العالم، يبكي.

ولىّ بعيداً عن البصر،
البصر تبعك.
الروح، تالية البصر،
دموعاً من الدم بكت.

أيها الملك صلاح،
لقد ذهبت،
نسر بحر سريع،
تعويذة حظّ سعيد،
طرت مثل سهم،
أجهش القوس في البكاء.

عليك لا يستطيع أي شخص أن يبكي،
فذلك الشخص يجب أن يعرف،
كيف يمكن للأرواح العظيمة
أن تبكي.

عندما دعيت في تلك الليلة بسرعة إلى المدرسة، كان العازفون لا يزالون متحلقين حول مولانا الذي كان ينشج ويرقص. وعلى الرغم من صوت الطبول والآلات الأخرى التي كانت تعلن «البشارة» لم يجرؤ أحد من الذين دعاهم الرومي على البدء بالرقص. وعندما أحسّ بترددنا، أمسك بيدي، ثمّ بيد سلطان ولد، ثمّ بيد ذريانوس، وسَحَبَنا إلى رقصة مجنونة طويلة. رقصنا حتى الفجر، حتى داعب أول وميض لنجم النهار وجه الرجل الذي أطلق عليه مولانا، خلال السنوات العشر الماضية اسم «مشرق النور».

في ١ محرّم سنة ٦٥٧ للهجرة (٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٥٨)، عندما كانت ندف الثلج تغطي ببطء المحفّة المكسوة بالمخمل التي يُحملُ عليها وجهاء المدينة، تبع مولانا، حاسر الرأس، حداداً، موكب الجنازة ومجموعات المنشدين الثمانية.

وبينما كانوا يسيرون، كان يرقص السّماع ويدور. كان الثلج تحت قدميه يشكّل كرات ودوائر. وببطء نزع النادبون أغطيتهم الثمينة، وقدموا اللباس والعمائم للمتسولين المتناثرين هنا وهناك بين الموكب.

في الضريح بالقرب من قبر والد الرومي، كان يوجد قبر ينتظر الجثمان. غطّت أصوات قرع الطبول وأصوات المنشدين همسات مولانا الذي كان يقيم صلاة الجنازة. وجثا حاملو المحفة والصاغة الذين لم يفوتوا فرصة أثناء حياة صلاح للنيل منه وتشويه سمعته، أمام شاهدة قبره يطلبون منه المغفرة.

ومثّل السلطان الجديد، ركن الدين (١٢٥٧-١٢٦٦)، الذي كان من أتباع مولانا، أشراف البلاط وكبار العسكريين، كان من بينهم ضابط عرفته على الرغم من نظرته الحزينة وتحفظه. نعم، إنه هو. فهذا الرجل الذي جاء لينقل تعازي سلطانه ويتظاهر بالحزن لوفاة صلاح، لم يكن سوى الرجل الذي أذلّه وأهانه قبل سنوات، وكان يتمنى أن يراه ميتاً.

كتاب حسام الدين

زِن الكلمات

حان الوقت الآن لكي أتكلّم عن نفسي، وهو أمر ليس من السهل القيام به. لقد محا موت صلاح اختفاء شمس. ولم يعد أحد، سوى مولانا، يذكر ذلك الشهر البعيد ببيرده وصقيعه، عندما نطق تلك العبارة البسيطة «يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد» وسلّم الرومي شمس إلى سكاكين أعدائه. إني على يقين اليوم، وأنا أكتب هذه السطور، بأن شمس التبريزي لم يُقتل في ذلك المساء. هل جُرح، أم ضُرب أم حُذِّر فقط؟ لن نعرف أبداً. لقد مضت عشر سنوات ولا نزال نجهل أين هو، ومع من، أو ما هي الأفكار المجنونة التي تستمر في تعذيبه.

أثناء دفن صلاح، وبينما كانت الطبول تقرع، تذكّرت شمس، لحيته الخفيفة المتناثرة الشعر، جسده النحيل الضعيف، مشيته الحيوية، نَفَسَه الحار، كلماته الحادّة، ثقته بنفسه، حتى صلفه. لقد ظهر واختفى على إيقاع الطبول. رأيت شمس عندما كان صامتاً، منكفئاً على نفسه، شهماً، لكني رأيته أيضاً عندما كان قلقاً، غاضباً، فظّاً. الرجل الذي كان يستطيع الجلوس ساعات طويلة دون أن ينبس ببنت شفة، لكنه يبدأ الكلام فجأة ولا يسمح لأحد أن يتفوه بكلمة واحدة. الرجل الذي كان يتكلّم بالألغاز ويترك انطباعاً قوياً لدينا

بحيث كنا نتساءل دائماً من أين جاء حقاً، أي جزء إلهي ينبض في داخله. لقد أظهر لي صوت الدف شمس الذي يثمّن العلم ويقدّره، لكنه لا يجد فائدة في البحث عن الحقيقة. شمس الذي رفض الاعتراف بطرق الصوفيين وشعائرهم مثل حلق الرأس وترديد اسم الله، وإقامة الخلوات، لكنه في الوقت نفسه، كان الرجل الذي ما فتئ يكرّر لي أن ارتياد الصوفية يتطلّب معلّماً، مرشداً، ولياً. لم يتوقف قرع الطبل ورأيت، على نحو عابر، الرجل الذي لا يحتمل إلا الطاعة والإذعان من أصدقائه الذين عاملوه بقسوة.

أتذكر الكلمات التي قالها قبل أن يغادر الرومي قونية بفترة قليلة: «لن يأتي شيء من أصدقائنا. فهم لم يبذلوا أي جهد. من الأفضل لو ذهبنا، بأسرع ما يمكن، إلى العالم الآخر حتى نخفف من عقوباتهم».

أهيل التراب على جثمان صلاح المدثر بكفن أبيض. لقد اتحّدت الطبول العديدة وأوصلتنا إلى بحران النشوة، وتلا مولانا آيات تتحدث عن الموت، ورافق حركات رقص السّماع الدائرية. أنا حسام، سألت نفسي فجأة لماذا لم يلفظ الرومي قط اسم شمس الحقيقي: محمد بن علي بن ملك داد من أهل تبريز. نعم، وبينما كان العمال يضعون الأحجار حول القبر، تناهى إليّ صوت مولانا وهو يسأل شمس، قبل سنوات عديدة، عن هويته:

«شمس التبريزي! قل لي من أنت».

فأجاب شمس، «أنا الرب. أنا الرب. أنا الرب».

إن الدموع التي انسكبت من عيني سلطان ولد في ذلك اليوم الحزين لم تحل دون أن أفهم المواهب الشاعرية التي داهمت مولانا بغتة، عندما أراد استخدام كلمة «الله» في قصيدة لوصف شمس،

ووجد صعوبة في ضبط القافية. وكما لو أنه كان يطيع أمره، ساعده الإلهام الرباني في إكمال القافية. تذكّرت، على الرغم من أنه لم يناده قط باسمه الحقيقي، قائمة لا تنضب ببعض الألقاب التي أطلقها عليه، : «نَفَس نَفَس الأنفاس. ملك الملوك. سرّ الحقيقة. دليل الله. الحبّ الذي لا ينضب. رسول اللا مكان. نور النبي. جوهرة البهجة. الروح النقية. نار العشق. رسّام الخزف. خلاصة الوجود. قمّة اللا مرئيين. فهم الحقائق. ملاذ عالم الاكتشاف». كنت قد أوردت بعض تلك الألقاب التي كانت بمثابة ابتهال لشمس. يمكنني أن أذكر المزيد.

بالنسبة للرومي، كان حبيبه شمس الذي أغرق، على مدى ستة قرون منذ اختفاء النبي وحتى ظهور شمس، عالم الأرواح بالخمرة. كان مكانه يقبع داخل كهف الوحي، بينما ظلت الحقيقة في الخارج، حارس أسرارها. ولبلوغ ذلك، كان على شمس، جسداً وروحاً، أن يسمو، أن يتجاوز حجاب العشق، أن يبحر في المثني المحطة. في مخيلتي، مررت عبر تلك المحطات العديدة عندما غادر آخر النادبين ضريح والد الرومي، وأطفأ الحارس الشمعة الأخيرة التي كانت تضيء الحجرة. وغاب القبر القابع وراء كومة من الآلات الموسيقية، عن عيوننا.

ماذا يمكن أن يوضح الحقيقة بأن الرجل الذي حلّ محله، الرجل الذي أصبح حسب أوامره المرشد والدليل وجسّد حبّ الرومي، بعد فترة قصيرة من موت صلاح، لم يكن إلا حسام الدين بن محمد بن حسن، الراوي المتواضع لهذا العمل؟

نعم، بعد فترة قصيرة من وفاة صلاح، دعاني الرومي إلى الحجرة ذاتها التي أمضى فيها خلوته التي دامت أربعين يوماً وأربعين

ليلة مع شمس، الحجرة المحرّمة، الحجرة التي جلبت فضول الذين بقوا، مثلي، خارجها، نحاول سماع أدنى صوت يصدر عنهما، أقلّ إشارة عن وجودهما. فجأة طلب مني أن أعبر عتبة الوحي والغموض.

عبرتُ وأنا أعرف أن وراء الباب الخشبي القديم، تنتظر عوالم أخرى - عالم الأسرار. عالم النور. عالم الأرواح من الأرواح. عالم الأجسام المادية. عالم سر الأسرار. عالم الظواهر. عالم الخلق. عالم الحتمية. عالم الإله. عالم النطاق المرئي. عالم الملكوت.

اعتراني شعور بأن الحجب ستسقط، وراء صرير ذلك الباب، وستُمنح لي الرؤية. الرؤية الحقيقية. رؤية القلب.

دلفت إلى الحجرة. رأيت مولانا جالساً كعادته، متّكئاً فوق كومة من الوسائد، مضاءاً بعدة شموع، محاطاً بآلات موسيقية، وكانت قطّته نائمة في حضنه.

دخلت إلى هذه الحجرة التي أعرفها جيداً كما لو أنني أراها للمرة الأولى. فأنا أعرف مولانا منذ اثنتي عشرة سنة، ورأيت شمس يظهر ويختفي. كنت أعرف أن شمس مقترن بالله. ورأيت أيضاً بأمّ عيني الشاعر يدخل حياة الرومي، وسمعت صلاح يلوم الله في بيت الخلاء. كنت قد دوّنت كل ذلك منذ أمد بعيد، كنت مراقباً، مستمعاً، ولم أكن قط واحداً من المختارين.

ما إن دلفت إلى الحجرة حتى نسيت خوفي وشكي فجأة. نسيت أن أعمق رغباتي، منذ اثنتي عشرة سنة، كانت تكمن في أن أجتاز هذه العتبة ذات يوم وأجد نفسي تماماً أين أنا. بدا أن كلّ شيء مرحبٌ به، ممكنٌ. كان بوسعي أن آمل أن يحبّني مولانا بعمق، حتى

أنني شعرت بأن الله، نعم الله، سيزورني، كما زار شمس وصلاح.

لا أستطيع أن أخبركم هل كان ذلك اليوم حاراً أم بارداً، لكنّي أعرف أن الشموع كانت مضاءة مثل ألف شمس. لهب واحد ولّد عشرات الهالات، وبدت الحجرة، الصغيرة جداً، المظلمة جداً، رحبةً تفيض بالنور. لم أر فرقاً بين مولانا وبيني. لم يعد للذات وجود. كنت أعرف أن هذا الشعور بالسكينة والطمأنينة لن يدوم طويلاً، لكن حتى ذلك، لم يزعجني.

بعد بضع لحظات- حتى أن الزمن قد تلاشى - قال الرومي القصيدة التالية:

سحابة المطر الوديع، تعالي!
سكر الأصدقاء، تعال!
ملك المزيفين، تعال!
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

أدهش، أزل الألم،
حطّم، وقدم كنوزاً،
جد الوزن الشعري للكلمات،
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

لقد أدهشتَ المدينة،
إنها تعرف كلّ شيء ولا تعرف أي شيء،
بسببك القلب زائق.
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

كان بإمكاني أن أكمل كل بيت حتى قبل انتهاء الشطر الشعري.
لقد انطلقت الكلمات التي يقصدني بها من فمه المبجل، وبدا لي أنني أنا الذي يتكلم، حتى ذلك لم يفاجئني.

ثمّ، أشاح مولانا بوجهه، وخاطب مستمعاً خفياً، وتابع:

قل للأمير القمري الوجه،
وقل لهذه العين السحريّة،
اذهب وقل للملك الرحيم:
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

قل لهذا الأمير المتمرد،
قل لهذا القلق، هذا الجزع،
قل لشجرة السرو الخضراء هذه:
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

قل لهذا النَفَس الفريد،
قل لفخّ المجنون هذا،
قل لهذه اللؤلؤة المخفية:
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

قل للهب أن يتوب،
قل لخيّاط خرقتي(*)،
قل لنور رحلتي:
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

(*) الخرقة: الثوب الذي يرتديه الدراويش.

قل لشمعة القرآن،
قل لعيد الأضحى،
قل لفخر الجنة:
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

ثم، مرة أخرى، نظر إليّ وواصل قائلاً:

الملك حسام،
فخر الأنبياء،
أنت الذي يطلق النَفَس!
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

في الحب كنتَ جلياً جداً،
أكثر مكراً من الآخرين جميعاً،
أكثر سعادة من الذين سرقوا قلبي!
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

انظر إلى خلجة الروح هذه،
وإلى ارتفاع مياه الفيضان،
انظر إلى الشمس الإلهية!
هؤلاء السكارى، يبلغونك السلام.

ارتميتُ عند قدميه. أفاقت قطّته، أو تظاهرت بأنها أفاقت، ووثبت من فوق حضنه. تمطّت وتثاءبت ثم قوّست ظهرها، وبحركة

رهيفة بقدمها، فتحت الباب، وحكّت جسدها بعضادته، ثم خرجت. أصبحت وحيداً مع سيد السادة لأرى اضطراب الروح. أحسستُ أن يدي أصبحت واحدة مع يده، وامتزج شعري بثيابه، وضاع نفسي في فمه، ودفنت أصابع قدمي نفسها في جوربه. أمضيت تلك الليلة بصحبته.

غادرت الحجرة في الصباح. رأيت ذريانوس، صديقي القديم، مستنداً إلى حائط الرواق. التقت عينانا. كنّا متقاربين في العمر. في حوالي الثلاثين، وكنا نجد متعة بممارسة الرياضة، وخلال الاثنتي عشرة سنة الماضية، تنفّسنا هواء المدرسة الجليل. عندما رآني أغادر الحجرة، عرف في الحال بأنني أصبحت شخصاً آخر. ومع أننا لم نتبادل كلمة واحدة، فقد قيل كل شيء.

عرفت أنني، من الآن فصاعداً سأواجه كراهية واستياء الذين كانوا يشكّلون عصبة ضد شمس وصلاح، الذين كانوا يشككون في أصول شمس، ذلك «الدرويش الذي لا اسم له ولا إشارة»، وكانوا يهينون صلاح بتذكيره بأنه يتحدّر من أسرة صيّاد سمك، لذلك عرفت أن الذين يلقون خطباً عن «الفقر» ليل نهار، ذلك النوع الذي يكتسب بعد جهد جهيد، هؤلاء الدراويش الذين يدّعون أن الملك الحقيقي هو الذي يهيمن على رغباته، ليس لديهم ما ينتقدونني به. فقد كان والدي، محمد آخي، رئيس طريقة الفتوة، محل تقدير كبير في أثناء حياته، ولا تزال ممتلكاته التي بعتها بعد وفاته من أجل زواج شمس وكيميا، تساعد في تمويل مدرستنا. أما بالنسبة للدراويش الذين يمتدحون، لكنهم يهينون الناس العاديين، فقد أتيت من عالم الثروة، لذلك لن يهاجمونني من هذا المنطلق.

واكتشفت احتراماً جديداً في موقف ذريانوس. فقد احتفظ من

ماضيه كسارق ومجرم بمفردات معيّنة كنت أسمعها أحياناً. كانت الكلمات التي يستخدمها مأخوذة من عالم الرجال الذي يطلق فيه على المرأة عبارة «أهل البيت»، وتعقد فيه العقود بترك شعرة من شارب الرجل كوديعة، عالم لا يكترث فيه الرجال إذا طعن أحدهم الآخر، لكنهم يجهشونَ في البكاء إذا رأوا طيراً يموت.

خلال السنوات الاثنتي عشرة تلك من الصداقة، جعلني ذريانوس أعتمد طريقة حياتهم، فأخذني إلى ناديهم، وعلّمني حركاتهم ولغتهم. وكنا عندما نكون وحدنا، كنا نعبّر عن أنفسنا في غالب الأحيان بهذه الطريقة.

في ذلك اليوم، عندما رأيت ذريانوس الأكثر فطنة، خيّل إليّ في البدء، أنه لكي ألغي المسافات بيننا، رحت أبحث عن كلمة تستخدم في تلك الأحياء الفقيرة. أمسكت نفسي. كان تقديره مخلصاً ومن واجبي أن أحترمه. في ذلك اليوم، جاء آخرون، بمن فيهم سلطان ولد، من دون أن يطلب مولانا منه ذلك مباشرة، ارتموا عند قدمي. نعم، رأيت ابن مولانا، حفيد سلطان العلماء، يسجد أمامي، ويقبّل قدمي.

هل تغيّرتُ؟ هل تأثرتُ بنعمة الله؟ لا أعرف. لكنّي شعرتُ بأنّني ولدتُ من جديد، بأنّني أنا أيضاً أحببتُ كلّ تفاصيل العالم، بأنّني أصبحتُ الآن كتلة من الأحاسيس النقية. لم تبرح شفتي الابتسامة، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنتُ قادراً على إدراك معاناة الأرض كلما سقطت ورقة شجرة.

من دون أن يغادر المدرسة، جمع مولانا مريديه الرئيسيين، وقال لهم إنني أصبحت مُقدَّما لحضرته، وقال:

عندما هربت الشمس
في تلك الليلة المظلمة،
حدث تغيير
عندما وصل المصباح.

وراء الغيمة،
يختبئ القمر،
ومن سوى النجمة
يمنح الضوء؟

من بين المقدَّمين الثلاثة، من هو الأكثر سموّاً، سأل أحد رفاقنا؟ فأجاب الرومي:

أيها الرفيق الجوّال،
كان شمس الشمس وصلاح القمر.

الملك حسام، سيف الحقيقة، هو النجمة.
فقد اتّحد مع الملك.

انظر إليهم ككائن واحد،
لأن كلّ واحد منهم سيساعدك على الوصول إلى الله.

مهما كان الذي تفضّله،
فإنك ستنجح ولن تموت.

أذعن له،
وافق على أن ينتف ريشك.

ثمّ وضع يده على رأسي، وأضاف:

من الآن أنت الخليفة المقدَّم،
لأنه لا ثنائية في هذه الدائرة.

استوى سلطان ولد واقفاً وأبدى موافقته أيضاً بالقول:

جعل والدي هذا الرجل يجلس في مكان الآخر،
وصبّ على رأسه نوراً على نور.

ذات ليلة، ذات يوم اختير لاستكشاف طريق العشق، أصبحتُ فجأة شيخاً، مرشداً، خليفة، موجّهاً، سيداً حامل راية العشق، ذلك الفرد، تلك الحزمة، تلك الذرّة التي ستنشر العشق فوق العالم الهائل، اللامحدود، غير المقيّد، غير المميّز، عشق لا يعرّف إلا نفسه.

نظر إليّ أصدقائي من خلال عيني الرومي نظرة كان بإمكاني أن أقرأ فيها معاني الحبّ الذي يكنّه لي، نظرة تعبّر من خلالي عن عشقه للكون برمته.

ثم وجّه سيدي انتباهي إلى المدينة والبلاط. وقد كرّر في ذلك، لكن على نحو مختلف، ما فعله قبل سنوات عديدة، في اليوم الذي افتُتحت فيه مدرسة قاراتاي لتعلم القرآن، عندما تجادلنا عن المراسم

وأماكن الشرف، ذهب وجلس في الزاوية غير الجديرة به، في المكان الذي يترك فيه الضيوف أحذيتهم حيث كان يجلس شمس التبريزي.

كان معين سليمان، المدير السابق لمدرسة تعلم القرآن وزوج الأميرة غوردجي، قد أصبح أمير بارفانيه، وأصبح يحكم السلطنة كلها بدلاً من الولاة، وعلى الرغم من قوّته، ظل مريداً متحمساً لمولانا. كان قد عقد في ذلك اليوم اجتماعاً في قصره ضم أكابر أهالي قونية، وبالطبع كان الرومي أحدهم. لم أدعَ في ذلك اليوم، وانتهزت تلك اللحظة النادرة من الراحة للبقاء في بستاني وتعليم أطفالي أصول الزراعة. ظهر رسل بعثهم الأمير في نهاية الزقاق، جاؤوا إليّ وطلبوا أن أرافقهم إلى القصر. في الطريق أخبروني أن مولانا بدا ضعيفاً منذ وصوله، فقرر الأمير استدعائي لإراحة مرشده الذي قال في غيابي:

الكلام يشبه الحليب
في صدر النَفَس.
إذا لم يكن هناك أحد يسحبه إلى الداخل،
فلن يتدفّق برفق.

عندما وصلت إلى القصر، قبّل الأمير يدي، وقادني إلى الرومي وهو يحمل شمعة بيده اليسرى - لا تتوقف سبابة يده اليمنى عن الانتقال بين فمه وأنفه. ما إن رآني الرومي حتى استوى واقفاً وقال موجهاً هذه العبارات لي: «أنت، روحي، إيماني، نوري، سيدي، حبيب الحقيقة، حبيب الأنبياء».

مذهولاً بما سمعته، تركت الجمع وانسحبت لأنفرد بنفسي.

عندما رآني جالساً في الفناء، وهو مكان يقع تراتبياً تحت *تالار*، قاعة الاستقبال، هبط مولانا الدرجات وجلس بجانبي. بتصرفه هذا، حوّل الزاوية التي يجلس فيها التابع إلى مكان شرف. تناهت إليّ همسات تنمّ عن الحسد، «لماذا يجلس هذا الرجل في مكان أقل مرتبة، وقد خصص لكلّ شخص مكانه وفق مقامه؟»

خيّل إليّ أنني الوحيد الذي سمع تلك الكلمات اللاذعة، عندما أشار الرومي إليّ، وأجابهم، «إن حسام هو مصباح. فإذا رغب في العلو، فليس ذلك لنفسه بل ليستفيد الآخرون من نوره. بعبارة أخرى، حيثما توجد شعلة، في الأسفل أو في الأعلى، فهو الشعلة».

في ذلك المساء، نظر إليّ وجهاء قونية، أنا حسام، بنفس الطريقة التي كانوا ينظرون فيها إلى شمس - نظرة مفعمة بالحسد والكراهية والفضول والإعجاب والاحترام - بينما ترك مولانا، على الملأ، مكان الشرف ليجلس بجانب صديقه.

اِستمعْ إلى أنين الناي

عادت الحياة إلى سابق عهدها في المدرسة، بفارق واحد وهو أنني حللت محل صلاح، حللت محل شمس التبريزي. مرّ الوقت رتيباً، وعلى الرغم من ذلك، ظل يساورني الشعور بالمفاجأة للحال الذي صرت فيه. جالت في رأسي آلاف الأسئلة دون أن أجد إجابة على السؤال الوحيد الحقيقي: «لماذا أنا؟»

ببطء، مع مرور الزمن، دائماً الزمن، توقّفت عن أن أصمّ نفسي بسيل الأسئلة، وتركت نفسي للاستمتاع بالوجود القدسي لمولانا. وكما كنت أفعل في السابق، واصلت تدوين قصائده، ومراقبة أعماله وتصرفاته اليومية. حاولت أن أستخدم كلمات بسيطة للتعبير عن حالة التحوّل الاستثنائي الذي طرأ على كائن عظيم من دون أن يخفي كيانه الإنساني، وحماسته الشديدة للثوم الذي يضيفه إلى الحليب المخثّر المرّ ويتناوله مع خبز بائت يعلوه العفن قبل أن يقيم رقص السّماع، وقدرته على أن يبقى لأيام في الحمّام تحت دفق الماء البارد، أو أن يغمر نفسه في حوض مياه ساخنة، وحبّه للصمت. فقد استخدم في قصائده كثيراً كلمة «خاموش» - الصمت - مشيراً إلى نفسه، نوع من اسم مستعار.

دوّنت كلّ شيء، لاحظت كلّ شيء، وكان من بين ذلك

الملاحظة بأن الرومي كان يحتفي بالجوع باستمرار ويقارن المعدة الفارغة بالناي الذي يطلق صيحات الرغبة.

يجب أن أذكر أيضاً قطّته وناياته وطبوله التي لا تعد ولا تحصى، والعدد الكبير من المحبّين الذين كنا قد فرّقناهم بوعود زائفة، والسلطان ركن الدين الذي أذعن، مثل طفل طيّع، لأوامره ودعاه «سيدي وأبي»؛ ومعين سليمان، المخلص بين المخلصين، الذي فاجأته وهو جاث أمام الرومي، مع أنه أصبح أقوى رجل في السلطنة؛ وأخيراً مدينة قونية التي أُنقذت من غزو المغول لأنها تمثّل هدية الله لصلاح، صائغ الذهب المتوفى.

في إحدى الليالي، بينما كنت أقرأ مرة أخرى على ضوء عدّة شموع كتاب «منطق الطير: مقامات الطيور» جاء مولانا. كانت بشرته شاحبة كما هي دائماً، لكن منذ وفاة صلاح، بدأت تظهر على وجهه أيضاً آثار المعاناة والألم على صديقه الراحل. قال ذريانوس إنه أصبح يشبه صلاح. وفي إحدى لياليها المؤرقة، ظنّت فاطمة، ابنة زوجة صلاح، أن الرومي والدها عندما رأته، فصاحت مذعورة وأغمي عليها.

بشحوب بشرته ووجهه الذي أصبح يشبه وجه صلاح، جلس الرومي بجانبي، على الرغم من أنه لم يكن بمقدور أي شعلة إنعاش بشرته. في اللحظة التي لامست ركبته ركبتي، خطرت لي أكثر الأفكار رعباً: أيّ خسارة كبيرة ستصيب الأدب الفارسي إذا توفي الرومي دون أن يخلّف وراءه عملاً واحداً؟

لقد رأى مولانا كلّ شيء، وفهم كلّ شيء. سألني عمّا يضايقني. لم أشأ أن أزعجه، لكني في الوقت نفسه، عرفت أنه لن

يسمح بأن ينجرف الحديث إلى موضوع آخر لأن «الفرصة تمرّ بسرعة كبيرة كالغيوم».

انحنيت نحوه، وقلت: «لقد تضاعفت دواوين الشعر كثيراً، وانتشر نورها عبر البر والبحر من الشرق إلى الغرب. لكن كلمات جميع الشعراء سيلغيها صوت آخر، الكلمات التي يُعبّر عنها في كتاب مثل كتاب «إلهي نامة» (الرسالة الإلهية) لسنائي، والأوزان الشعرية في كتاب «منطق الطير» «مقامات الطيور» للعطار. وإذا وجد مثل هذا الكتاب، فإن الإنسانية ستنعم به إلى الأبد، وسيصبح نَفَسَ العشاق. سيبلغ قمّة الشفقة والنعمة».

أعربتُ عن أشد رغباتي عمقاً، مثل رغبة امرأة لا أطفال لها تطلب من رجل أن يلقّحها. أشرت إلى الوزن الشعري لديوان «مقامات الطيور» وإلى محتويات كتاب سنائي، مع أنّني كنت أشعر، بكل كياني، عذاب امرأة، امرأة متشوقة لإنجاب طفل. حدّثته، سمعتُ صوتي ينطق كلمات ذات معنى، وفي الوقت نفسه، كان القلق ينهشني، أحسست برفضه. إنه نفس التخوّف الذي يعتري امرأة لا أطفال لها وهي تنتظر ردّ الرجل.

لم أكد أنهي كلامي حتى رفع مولانا ذراعه، واستلّ من طرف عمامته المباركة حزمة ملفوفة من الورق ومدّها إليّ. متفاجئاً، أخذتها منه ورحت أقرأها. كما كنت قد أشرت - لكنّي أريد أن أكررها - اكتشفت ثمانية عشر بيتاً من الشعر كتبها بخط يده على وزن أشعار «مقامات الطيور» لخّص معناها بالنسبة لي الكثير من الألغاز. عندما أدركت أنّني أحمل فجأة في يدي زبدة الأدب الصوفي، عرفت على الفور بأن هذه الأشعار ستصبح آياتنا القرآنية. قرأت وأعدت قراءة السطر الأول:

استمع إلى أنين الناي يأخذ في الشكاية
منذ أن اقتُلع من الغاب.

لقد لقّحني الرومي للتو. لقد غمرتني بهجة امرأة حبلى. قرّبت الأوراق من شفتيَّ، ثمّ من عينيَّ، وجثوت أمامه. ساعدني على النهوض على قدميَّ. أحسّ بالرعشة التي سرت في عمودي الفقري. لم يشعر جسدي قط بمثل هذه الرعشة عندما كنت أمارس رياضة الرماية والمبارزة والمصارعة. ولكي يهدّئ من روعي وضع يديه فوق بطني، وفي الحال أحسست بمولاي يتدفق في عروقي ويهدّئ من ارتعاشي. لقد أصبح الدم الذي يجري في عروقي، ثمّ قال: «حتى قبل أن تفكّر بهذا الطلب، حتى قبل أن تطلبه الطبيعة، دفع العالم المرئي والمخفي فكرة نظم هذا الديوان إلى قلبي. الآن، تعال، طر فوق قمم إلهامك، طر نحو ارتقاء الحقائق، مقلّداً النبي، واكشف عن نيته الحقيقة، لأن نوايا قلبنا تجعل عقلنا يهتز، وتقود عقلنا حتى يعثر على الكلمات التي نحتاج إليها».

توقّف لحظة، ثمّ واصل كلامه:

«إذا كتبتَ، سأنظم الشعر».

لم أكن أريد أكثر من ذلك. كانت تلك نيتي الحقيقية. لقد كُتبت حياتي الآن مع حياة المختارين. هل أستحق هذا الامتياز؟ لا أعرف. توقّفت عن طرح الأسئلة على نفسي. لقد أصبحت قلم مولانا، وسأنقل جوهر العشق إلى البشرية.

مرة أخرى، ارتعش جسدي. لم تفلح يدا الرومي اللتان كانتا لا تزالان تلامسان بطني في وقف ارتجافي. شعرت كما تشعر امرأة

مخضّبة، لكن في هذه المرة، لم أكن أيّ امرأة، بل كنت مريم التي انتقل إليها النفس الإلهي.

جثوت ثانية وقبّلت يَدَي الرومي وذراعيه. سالت دموعي على مرفقه الذي كنت أحبّه كثيراً، الذي كنت أتمسك به غالباً أثناء رقص السّماع.

في وضعيتي تلك، كان رأسي مدفوناً بين ركبتي، سمعته يتلو قصيدة حفظتها عن ظهر قلب. كانت موجّهة إليّ:

يا نور الحقيقة، يا سيف الإيمان،
بسببك سيتجاوز المثنوي القمر.
يا روح الرجاء الذي جعل طموحه النبيل،
هذا المثنوي يظهر ولا يعرف إلا الله من أين.

المثنوي، تحمله في داخلك،
باستمرار، تستله متى أردت.
المثنوي، المتدفّق، الجاذب، المخفي،
لكنه المخفي للأحمق الذي ليس له عينان.

لما كنتَ مصدر المثنوي،
فإذا كبر، كنت أنت من جعله كذلك.

كنّا سنطلق على العمل اسم «المثنوي» الذي يعني قصيدة مؤلفة من شطرين بقافية واحدة. منذ ذلك اليوم، وحتى وفاته، لم يتوقف الرومي عن نظمه. وسواء أكان يرقص، أم كان يستحم، أم يتحرك أم كان واقفاً لا يتحرك، كان ينظم الشعر وكنت أدوّنه بسرعة. وفي

بعض الأحيان، كان ينظم قصائد منذ بداية المساء حتى الفجر، بلا توقف، دون أن يدرك أن القصبات كانت تتكسر تحت ضغط أصابعي، لأنني كنت أكتب بسرعة محاولاً اللحاق به.

كان يطلب غالباً أن أعيد قراءة القصائد له. عندما اكتمل المجلد الأول، بعد أن صحّح الكلمات، وعدّل وزن العروض، قرأت الديوان كله له. هذه المرة أصبحت أمّاً ترى طفلها بافتخار.

عندما أنهيت القراءة، سمعته يقول لي: «أطْعِمْ طفل الروح».

في سنة ١٢٦٠، كدأبه كلّ سنة، كان مولانا يذهب إلى الينابيع الحارة. ولمّا كنت حزيناً آنذاك بسبب وفاة زوجتي، منذ قرّرت عدم مرافقته هذه المرة والبقاء في قونية لرعاية أطفالي، لكنّي كنت أعرف كيف ستكون رحلته لأنني كنت قد رافقته في السنوات الماضية. كان يمضي مدة تزيد على ستّة أسابيع بعيداً عن قونية، وعندما كان يغادر كان يقام احتفال عظيم. وبهذه المناسبة، كان الطريق نفسه يتحوّل إلى قاعة رقص السّماع، حيث تحل الجبال والأشجار والنباتات الخضر محل جدران الحجرة. وعلى امتداد الطريق كان المخلصون يرقصون والعازفون، سواء أكانوا راجلين أم راكبين، يقرعون طبولهم، والمنشدون يرددون الأناشيد والقصائد. في وسط تلك القافلة الاستثنائية، كان مولانا ينظم الغزليات أو يكمل كتاب «فيه ما فيه».

لكن في تلك السنة، امتدّت إقامته وتجاوزت الخمسين يوماً المعتادة. بدأ قلقي يزداد، لكن فجأة، في مساء أحد الأيام، اعتراني إحساس غريب بأنه سيعود في اليوم التالي. لم يساورني شكّ بدقة حدسي. كنت متيقناً من ذلك. نظّفت المدرسة، وعطّرت الحجرات، واشتريت كمية من الثوم، وأرسلت النساء إلى الحمّام، وطلبت من أصدقائه المقرّبين أن يرافقوني إلى خان روزبيه لاستقبال مولانا.

في صباح اليوم التالي، أقيم موكب ضخم. فقد اصطف عدد كبير من الناس، صغارا وكباراً، شابّات ودراويش مسنين، جنوداً وشعراء، يحمل كلّ منهم هدية في يده. غادرنا قونية، وبعد عدّة ساعات وصلنا إلى الخان، ثم نصبنا خيمة للرومي في الحقل. انتظرنا. مضت ساعات. لم يأت. كان الهدوء يسود كلّ شيء. كانت العنزات ترعى في الحقول، والمزارعون يقطفون القطن. كان الحدث الوحيد الذي وقع خلال ذلك الانتظار الطويل هو ظهور سرب من الأوز يطارد أحد المريدين. أخيراً بدأت أتساءل هل يعقل أن أقود مئات الصحاب إلى هذا المكان البعيد عن المدينة نتيجة حدسي فقط.

بدأت الشكوك تساورني. قفزت على ظهر حصان وسرت على طول الطريق الذي خيّل إليّ أن الرومي سيسلكه. كان صوت داخلي يطمئنني أحياناً، فلم تكن نزواتي قط هي التي تدفعني إلى التصرف. ففي المدرسة، كنت أعمل بدأب كمحاسب وكاتب ومساعد، وكنت بعيداً جداً عن تقلبات مزاج شمس وغرابة أطوار صلاح، ولم يظهر لي الله في شكل زوجتي، ولم يثر غضبي في بيت الخلاء. هذا البشير الذي جاءني الليلة الماضية يخبرني بوصول مولانا لا يمكن إلا أن يكون حقيقياً. بعد ساعة أو ساعتين وأنا على صهوة حصاني، عدت أدراجي إلى خان روزبيه.

هناك رأيت خيمة الرومي مليئة بمقامه القدسي. كان هناك. لا بد أن صيحتي كانت صيحة فرح، لكنها كانت أيضاً صيحة ارتياح. صيحة مفعمة بالرضا. أدركت بغتة أنني أنا، الناسخ، الكاتب، الخازن، يمكنني أن أتلقّى أيضاً رسائل من الغيب.

خرج من الخيمة وأول ما رأيت عينيه المخططتين بكحل شديد

السواد، وبسرعة لاحظت أن صحته جيدة وقد خفّ شحوبه كثيراً. ترجّلت من على حصاني وارتميت عند قدميه. كان حافياً. كانت ذراعاه جاهزتين لمعانقتي.

لا أعرف كم طال عناقنا. بعد قليل أحسست أن قدميه الحافيتين فوق العشب الرطب ترتجفان. دخلنا الخيمة التي حرصت على تزيينها بنفسي. أضاءت الشموع الوسائد والبطانيات والسجاد وبعض الآلات الموسيقية الملقاة على الأرض.

جلستُ أمامه صامتاً. ثمّ سمعت بوضوح العقل، طير روحي - إن كان بإمكاني أن أطلق عليه ذلك - في قفص صدري، يهدل في حضور روح مولانا. تغلغل صوت روح الرومي في روحي وسلبني عقلي، منعني من الكلام. تذكّرت فقرة من المثنوي، كتبها مولانا في صباح أحد الأيام عندما كان يفرك أسنانه بمزيج من أمّ اللؤلؤ وقشور البيض ومسحوق الفحم:

نَغَم الأغنية الذي ينطلق من الجسد النقي،
في كلّ لحظة، يصل الأذن الرهيفة.

يتبع طريقاً مجهولاً بالنسبة للبشر،
وهو ليس من العالم الذي له مسكن.

الرفاق لا يسمعونه. إنه، إنه يسمعه،
سعيدة هي الروح التي تمنح نفسها للغيب.

أنا أيضاً بدأت أمنح نفسي للغيب. فقد تملكني إحساس داخلي

بقدوم مولانا مع أنه لم تصلنا أخبار عنه، وسمعت صوته دون أن نتبادل كلمة واحدة. كنت حاضراً في ولادة «الأذن المرهفة».

تواصلت كتابة المثنوي، بالرغم من انقطاع دام سنتين بعد وفاة زوجتي. عندما كانت على قيد الحياة، لم أكن ألاحظ وجودها. لكن بعد أن توفيت، صار غيابها لا يطاق. لقد تزوّجتها وأهملتها. فخلال فترة زواجنا كنت أمضي معظم وقتي مع مولانا. كنت أعرف التجربة التي أتاحها لي، والامتياز العظيم لمرافقة الرجل الذي تغار منه الملائكة نفسها، منحني نوعاً من العظمة مختلفاً عن حياتي الزوجية. لقد حدث كلّ شيء أدهشني وحوّلني وأسكرني في رفقة الرومي، في المدرسة أو في الأماكن الأخرى. لم يحدث شيء كهذا كما حدث في بستان فاليراس حيث كنت أعيش، محاطاً بعائلتي. في البستان، باستثناء زيارات الرومي، كانت الحياة تسير هادئة، طبيعية، لكن موت زوجتي عكّر صفو الحياة المعتادة، ثم أدركت، ولو في وقت متأخر جداً، أنني كنت أحبها.

بعد وفاتها، بدأت أسأل فاطمة، زوجة سلطان ولد، وكذلك كيرا، زوجة مولانا. أردت أن أعرف كيف تمكنتا من احتمال زوجيهما وغيابهما عنهما لفترات طويلة. فبعد كل تلك السنين، لم تعتد أي منهما على ذلك. فقد أشغلت فاطمة نفسها في الدراسة، ولجلب انتباه سلطان ولد، كانت تختلق خلافات ومشاجرات باستمرار. أما كيرا التي كنت أكنّ لها احتراماً عظيماً، وكنت أيضاً أشعر بالذنب تجاهها لأنني حرمتها من زوجها، فكانت أكثر ثقة. ففي البداية، عندما جاء شمس، كانت تلوم زوجها وتصرّ على أن يوليها اهتماماً أكبر. في الحقيقة، تذكّرت كيف أنها، بعد فترة من هجرها، تمَسَّكت بالرومي كما يتمسك حيوان جائع بفريسته، وجعلته

يكرّمها أكثر من سبعين مرة في ليلة واحدة - لقد ذكرت ذلك من قبل، لكنّي أكرّره هنا لأن الرقم يبدو مبالغاً فيه كثيراً.

مع مرور الوقت، أدركت أن جلال الدين محمد الرومي يضع نفسه فوق الزواج وعدم الإخلاص، وأن الرجل الذي لامته لعدم اهتمامه بها، يكلّم الله ذاته.

حزنت على زوجتي طوال سنتين حاولت خلالهما الانقطاع عن مولانا لأمنح زوجتي المرحومة الوقت الذي حرمتها منه عندما كانت حيّة: وقد فهم الرومي هذه الحاجة وتوقّف مؤقتاً عن كتابة المثنوي.

عندما استيقظت في أحد الأيام، شعرت بالانفصال عن الفكرة التي ربطتني بزوجتي. لم أنسها، لكن ذلك الشعور بالثقل والخدر تلاشى. وفي الليالي القليلة التالية، أحسست أن عقلي لم يعد يعذّبني من أجلها، وبدأت أستيقظ وأشرب كوباً من الماء أو أتبوّل من دون التفكير في كلماتها، أو تقليد حركاتها. لقد تحررت منها أخيراً.

عندما عدنا إلى كتابة المثنوي وإلى ممارسة عاداتنا السابقة - مضغ الثوم وقضاء ساعات في الحمّام والتحدّث إلى الأشجار، والرقص إلى حدّ الوجد - نظم الرومي الأبيات التالية كمقدّمة للمجلد الثاني من المثنوي:

لقد تأخر هذا المثنوي فترة من الزمان،
فالمهلة واجبة حتى يتحول الدم إلى حليب.

وما لم يلد إقبالك مولوداً جديداً،
فإن الدم لا يتحوّل إلى حليب حلو،
فأحسن السماع.

وعندما لوى حسام الدين عنانه من أوج السماء،
ولأنه كان قد مضى إلى معراج الحقائق،
فإن البراعم لم تتفتح في غيبة ربيعه.

وعندما عاد من البحر إلى الشاطئ،
جعل صنج شعر المثنوي في اتساق وتناغم.

على الرغم من أن شعوراً بالحمق قد تملكني تجاه زوجتي، وضعني الرومي في ذروة السماء، «لأنه كان قد مضى إلى معراج الحقائق». كتبت هذه الأبيات ورأيت أنه هو أيضاً اعتبر المثنوي الطفل الذي كنت أتوق إليه. قارن بين الزمن الممتد من الحداد إلى الزمن الذي احتجته لتحويل الدم إلى حليب.

مرة أخرى، كنت أكتب بينما الرومي يرقص أو يستحم أو يمشي أو يغفو. وكان أحياناً يبث في قصائده الأسئلة التي كنت أطرحها عليه، سواء أتكلّم عن جوعه، أو عن رحلاته، أو عن أحداث يومية. لذلك كنت على الدوام متأهباً للكتابة، وطلبت من أفضل صانع جلود في قونية أن يصنع لي محفظة جلدية كبيرة، أكثر مرونة من صندوقي الخشبي القديم الذي أضع فيه الأوراق وقناني الحبر وقصبات الكتابة.

حلمت ذات ليلة ببلال، مؤذّن النبي، وهو يضع القرآن على رأسه، ورأيت النبي نفسه وهو يحمل المثنوي على صدره. ما إن صحوت حتى سألت مولانا عن الحلم، فقال لي:

«إن القرآن يعني زوجة جميلة ذات جبهة أنيقة، مزدانة بالجواهر، خالية من أي عيب، لكنها محجّبة ومقنّعة، ولا ترفع هذه الزوجة

حجابها إلا لتكشف عن عاصمة الإيمان الخالية من الناس. والمثنوي هو سارق القلب الروحاني. إنه يشبه حديقة مصقولة. إنه يشبه طبقاً سهل الهضم معدّاً للرجال ذوي القلوب النقية، للعشاق ذوي الأكباد المحترقة. سعيد هو النَفَس المزدان برؤية ذلك الجمال الخفي. يجب أن يكون لدى حسام الذي يريد أن يفهم المثنوي، والذي يطوف في أرجاء مظاهره ويدرك أسرار أسراره، إيمان عظيم. يجب أن يكون عاشقاً راسخاً، صادقاً بحق، مسالماً في قلبه، في غاية الذكاء، وعليه أيضاً أن يتقن العلوم. لكن حتى بدون هذه الأشياء، بالرغم من كلّ ذلك، إذا كان عاشقاً صادقاً، فإن حبّه سيمكّنه من أن يصبح مرشداً ودليلاً».

في ذلك اليوم فهمت أن العشق هو المفتاح الذي سيفتح المثنوي.

في أحد أيام الشتاء، زارني في بيتي في فاليراس وطلب مني أن أُعِدَّ له حجرة لقضاء بضعة أيام دون أن يزعجه أحد. خصصت له حجرة مضيئة لها نوافذ عريضة تطلّ على الحديقة. نفس الحجرة التي أجد فيها نفسي اليوم، بعد عشرين عاماً، القصبة القلم في يدي، كاتب طاعن في السن، ضعيف، يحاول أن يجعل الموتى يتكلّمون.

دخل الرومي وأمرنا بتغطية الأبواب والنوافذ، ثمّ أضاف، واثقاً من أنني سمعته، «ولا طعام».

صرفتُ الطاهي، وغطيتُ نوافذ الحجرة الواسعة بقطعة كبيرة من الخيش.

استمرّ ذلك عشرة أيام بلياليها. غادر الرومي في فجر اليوم الحادي عشر، أكثر شحوباً ونحولاً، وفي الحال طلب كمية من الورق المصنوع في بغداد. أخرجت من جيبي بضع ورقات. تمشى

عدّة خطوات لتليين عضلات ساقيه، وأدار وجهه نحو أشعة الشمس. تناول قليلاً من الخبز الذي نُثرت عليه بذور الخشخاش، ورشف بضع رشفات من الشاي. ثم نظم بعض القصائد بالعربية والفارسية. رحت أدوّن من دون أن أفهم جيداً ما كان يقوله. في بعض الأحيان، كان يبدو أن أفكاره تخاطب عالماً ليس عالمنا، تتناول أموراً لا يمكن تناولها. عندما توقّف، استأذنته أن يسمح لي في قراءتها بصوت عال. كنّا على الشرفة قبالة الأشجار العتيقة المكسوة بالثلج. سمعتُ صوتي ينطق كلمات أصلية، أزلية، كلمات حتى رقاقات الثلج يمكن أن تنحني أمامها.

عندما أنهيت قراءة القصائد، قادني الرومي إلى المطبخ وطلب إشعال الفرن. عندما أشعلته أخذ الأوراق المسوّدة بالأحرف التي كتبتها وألقى بها، الواحدة تلو الأخرى، في النار. ثمّ نظر إلى النار الجائعة، وقال: «لأنها جاءت من الغيب، تعود هذه الكلمات إلى الغيب، بدون عيب».

من أجل الحظّ السعيد، أردت أن أحتفظ بصفحة أو بصفحتين. أوقفني وقال إن بكارة تلك الأسرار لا تلائم آذان أفضل الناس على الأرض. ولا يمكن لأحد أن يسمع هذه الكلمات إلا أرواح المختارين التي هي غذاؤهم الروحي.

وعندما غادر المطبخ، تناول فصّ ثوم نيئاً كبيراً، وقال:

طبيعتك من طبيعة الله،
عندما تدخل أحد القلوب،
تكشف تألق جبل سيناء،
من خلال قلبك.

طبيعتك من طبيعة المصباح،
الذي يدخل البيت في الليل،
والبيت كله مضاء،
بوهج ذلك الضوء.

طبيعتك من طبيعة تلك الخمرة،
في أي مجموعة كنت،
من وجهك الوسيم ينطلق،
ألفا انفجار وثورة.

عندما يعوق الخوف الفرح،
عندما تطير الرغبة،
ما هي الزهور والنباتات التي ستنمو،
من الماء الذي سترشه.

عندما يكون العالم حزينا،
عندما تكون البهجة ميتة،
أنت، من الغيب،
أي عوالم أخرى تفتح.

يأتيك هذا النداء
من القلقين،
وإلا، فكيف ستنعم
قطعة الطين السوداء تلك بالبهاء؟

كلماتي تغذّي الملائكة،
لكنني إذا بقيت بدون كلام،
سيقول لي الملاك الجائع:
«تكلّم، لماذا تظل صامتاً؟»

أكمل غزليته هذه وطلب مني أن أرافقه إلى حمّام زيرفا. في الحمّام غطسنا في بركة من الماء المغلي مكث فيها فترة طويلة. وتقول الإشاعة أو الأسطورة أنه لم يعد إلى المدرسة إلا بعد سبعة أيام. وخلال فترة غيابه، أعدت قراءة مخطوط المثنوي، محاطاً بالملائكة الجائعة.

في تلك السنة نفسها (١٢٦٢) مات ابن مولانا علاء، الذي دفعته غيرته من شمس إلى اضطهاده ومهاجمته، من مرض وهو لا يزال في السادسة والثلاثين من العمر. وبعد أن طرده مولانا من البيت بعد اختفاء شمس، لم يشارك الرومي في جنازته وحرمه من صلاة الجنازة؛ وباستثناء سلطان ولد، لم يرافق أحدٌ الميّت إلى الضريح الذي يرقد فيه جدّه، سلطان العلماء. نهاية مشؤومة لرجل شائن.

دأبت على الذهاب، مرة في اليوم، لزيارة ضريح سلطان العلماء وضريح صلاح. ومن شدة حبّي لشمس، كنت أتحاشى النظر إلى شاهدة قبر علاء حتى لا تضطرني عاطفتي إلى تلاوة الفاتحة على روحه. فقد أردت أن تهيم الروح التي عذّبت شمس في الهيولى والكرب إلى الأبد.

في أحد الأيام، بعد أن قرأت الفاتحة عند القبرين، نظرتُ عرَضاً إلى قبر الابن المنفي. وخيّل إليّ لوهلة أنني رأيت ملائكة

العذاب وهي تقيّد يدي علاء وقدميه بسلاسل ثقيلة وتقتاده بعيداً. رأيته يبكي وينشج، وينذب بحرقة. اشتعل قلبي وسمعت نفسي أتضرع إلى الله بأن يغفر له، ثمّ رأيت الملائكة نفسها تفك قيود علاء وتتركه حيثما كان، ثم اختفى.

بعد أسبوع، زار مولانا ضريح العائلة. ذهبتُ معه وساعدته في إشعال البخور لدرء العين الشريرة، وغسل القبور ورشّها بماء الورد. قرأ دعاء الميت، ثمّ طلب مني حبراً وقلماً مبرياً. حتى ذلك الحين، لم يكن قد نظم شيئاً في مكان محاط بالموتى. قدمت له صندوق كتابتي. أخذه واقترب من قبر علاء الذي لم يكنّ له سوى الكراهية والاحتقار، وكتب على الحجر المغطّى بطبقة من الجص.

إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ،
فبمن يلوذ ويستجير المجرم؟

اقتربتُ وقرأتُ السطرين، وفهمت أن فكرة المغفرة لامست قلب مولانا أيضاً. سيُغفر لعلاء. ودون أن أسأله، قال لي الرومي: «رأيتُ في عالم الغيب أن شمس التبريزي سامحه. نعم، عفا عنه شمس وتوسط له. الآن أصبح علاء من الذين نحزن عليهم. أصبح واحداً من الذين تحميهم الرحمة الإلهية».

على الرغم من شرّه، حصل علاء على السلام الأبدي لأن شمس شفع له. الرجل الذي طارد لياليه، الذي جعله ينضح عرقاً من شدة الغضب، الرجل الذي أراد أن يعذبه ويجرحه ويقتله، شفع له في العالم الآخر وغفر له.

غادرت المقبرة وأنا أنصت إلى مولانا وهو يدندن:

البضاعة التي لا يريدها أحد،
اشتُريت بسبب هذا الرجل المحسن.

أشحتُ بوجهي نحو قبر سلطان العلماء وقبر صلاح، صائغ الذهب، المحاطين بآلات موسيقية، وعمائم ملتوية، وأزهار. فكّرت بالقدر العظيم الذي مُنح لرجلي الله هذين. وقفت وحيداً في وسط الضريح واعتراني إحساس فجأة بأن مولانا سيرقد ذات يوم في المكان الذي أقف فيه. حاولتُ أن أتخيّل ماذا سيحلّ بي بعد موته. تملكتني فكرة اختفائه السقيمة. ماذا سيحصل لي بدونه؟ هل سيبلغ طفلي المثنوي مرحلة النضج؟ أغمضتُ العينين اللتين رأتا، هناك أمامي مراسم الدفن، وتذكّرت لقاءنا قبل اثنتين وعشرين سنة. عندما كنت حزيناً بعد وفاة أبي، اكتشفت الرومي عندما كان مرتبطاً بشمس. في تلك اللحظة، ألقيت بنفسي عند قدميه، فأمسك بيدي وضغط عليها. ثمّ داعب لحيتي الخفيفة وطلب مني أن أطلقها.

لا تستطيع أي مفكرة أن تسجّل ذلك اللقاء، ولن تشهد أي سيرة ذاتية على تلك المداعبة التي غيّرت في لحظة، حياتي كلها.

أنا منتهاك

لم أتحدّث حتى الآن عن طاعة بلاط السلطان لمولانا. فلم يكن يمر يوم من دون أن يأتي فيه أمير أو حاكم أو سيدة من سيدات القصر إلى المدرسة لزيارة مولانا الذي لم يكن يقابلهم جميعاً، بل كانوا يعتبرون مجرد وجودهم بالقرب منه شكلاً من أشكال التطهير.

لم تفوّت الأميرة غوردجي، ابنة وأخت سلاطين وزوجة معين سليمان، حاكم وأمير قونية، أي لقاء مع الرومي، فقد رأيتها عدة مرات في المدرسة متنكّرة في شكل امرأة عادية برفقة خادمة واحدة. وكان مولانا يسمح لها بالمشاركة في خلواته، وكانت تمكث عنده عدة ساعات، ثم يأتي حارس سلطاني ومبعوثين آخرين لمرافقتها إلى القصر.

ولكي لا تبتعد عن مولانا، قرّرت ألاّ تغادر قونية. وفي إحدى المرات اضطُرت إلى السفر إلى قيصرية، وأمرت أعظم رسّام في السلطنة أن يرسم الرومي حتى تحمل رسمه معها ويكون رفيقها الروحي في حلّها وترحالها. كنت قد حكيت هذه القصّة، لكنني لا أعرف ماذا حلّ باللوحة.

كانت الأميرة تقدمُ لنا دعماً مالياً. فعندما أردنا تزويج ابنة صلاح ونظام الخطاط، توجهنا إليها، وقد حكيت ذلك أيضاً.

ولكي أبيّن كرم هذه المرأة الشريفة، لا يمكننا أن نغفل قصّة الياقوتة وحلم المعماري. فقد انضم إلينا معماري يدعى بدر ذاع صيته منذ أن شيّد مدرسة تعلم القرآن ومدرسة قاراتاي، لإقامة جلسة السّماع في بيتي في فاليراس. وكان المعماري قد رمّم بضع غرف وحوّلها إلى *السماع خانة*.

بدأت أخوّتنا، مثل أيّ طريقة أخرى، تطبّق بعض الطقوس والقواعد. وكان الدوران الذي يفضي إلى حالة من الوجد والتحرر من بين الطقوس التي أرسيناها. لذلك، عندما أردت بناء السماع خانة، أجبرني ذريانوس الذي كان قد عاد من عند الحلاق وقد قصّ له شعره وشذّب له لحيته، على تطبيق كلّ قاعدة بدقة. فقد كان علينا إقامة حاجز مثمن الأضلاع في وسط الحجرة، ومحراب باتجاه مكة المكرمة على الجدار الخلفي، ومنبر على الجانب الأيمن من الجدار نفسه، قبالة باب المدخل.

في اليوم الذي وصل فيه المعماري المعروف، كنا ثمانية عشر شخصاً نقيم رقصة السّماع. ومنذ أن أشرت إليه بعبارة تلقيحي في الثمانية عشر بيتاً من أشعار المثنوي، أصبح هذا الرقم يمثل طريقتنا. ولكي نقيم رقصة السّماع حسب القواعد التي أرسيناها، اتخذ كل منا مكانه في الحجرة. وأضاء أحد الدراويش المصابيح، وفرش أمام المحراب قطعة حمراء اللون من صوف الغنم ترمز إلى شمس التبريزي، جلس عليها مولانا. ثم وصل العازفون حاملين آلاتهم الموسيقية: الدف والناي والرباب، وجلسوا على امتداد الجدار الشمالي قبالة المحراب.

اعتمرنا جميعاً قبعة «سيكة»، وارتدينا تنورة بيضاء طويلة. وأصبح يُطلق علينا نحن الدراويش «الدوّارون». وتمثّل القبعة أو

السيكة شاهدة القبر، ويمثّل بياض التنورة الكفن. وارتدينا فوق التنورة عباءة سوداء، *الخرقة* الثقيلة السميكة.

بدأت رقصة السّماع بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ثم تلتها أدعية وأناشيد تمجّد الرسول وآل البيت، ثمّ بدأ قرع الدف وعزف الناي، الناي الذي يرمز في قصائد الرومي إلى الفراق.

ثمّ وقفنا على أقدامنا ودرنا حول الحجرة ثلاث دورات، من اليمين إلى اليسار. وترمز كلّ دورة إلى الطرق الأربعة لديننا الحنيف: الطريق الظاهري *للشريعة*، والطريق الباطني *للطريقة*، والطريق العرفاني *للمعرفة*، *والحقيقة*، طريق الاتحاد.

ثمّ نزعنا عباءاتنا السود لتظهر أثوابنا البيض الطويلة، وهي إشارة إلى التحرر من الأمور المادية وانبعاث الروح. ثم سار أمامنا رئيس السّماع، أذرعنا مشبوكة. ثم اقتربنا من مولانا وانحنيا نحوه ولامست شفاهنا يده اليمنى، فتلقينا، كإشارة على الموافقة، قبلة منه على السيكة التي نعتمرها.

ثمّ أخذنا ندور، راحة يدنا اليمنى منبسطة نحو السماء، وهي إشارة إلى شكر النعم الإلهية، وراحة يدنا اليسرى منبسطة ومتجهة نحو الأرض، إشارة إلى تقديم تلك النعم إلى مخلوقات الأرض.
عندما دخل الرومي إلى دائرة الرقص، في وسط الدائرة، لم نكن سوى حركة. لم نكن إلا هو. لقد سمعته ينشد:

عجلة السماء تقول لي إني ضعيف أمام رقصتك،
وأقول لها: من خلال هذه النقطة أصيرُ بوصلة.

بعد مضي ساعة، أوقف الرومي الدوران. توقّفت الموسيقى.
جلس على الأرض. عدنا إلى أماكننا حريصين على أن لا نولي

ظهورنا له وارتدينا عباءاتنا. وقبل أن نغادر السماع خانة، راح مولانا ينطق الاسم الإلهي «هو» حتى انقطعت أنفاسه، ورحنا نردد جميعاً، عازفين ومنشدين ودراويش، «هو» حتى أصبحنا نشعر بأن رئاتنا ستنفجر.

في الخارج، تفرّق الدراويش وذهب كل واحد في حال سبيله. منهكاً من رقصة السّماع، غفا المعماري على الأرض مع رفاقنا الآخرين، ثم صحا فجأة وفي يده اليسرى ياقوتة.

مدهوشاً، أطلق صيحة، وركض نحو مولانا وطلب مغفرته. فقد كانت الياقوتة هي جواب الرومي على الشكّ الذي كان يساور الحالم: لأن المعماري شكّ في حلمه بالقدرة العجيبة لمولانا مما أدّى إلى اضطرابه عندما أفاق وتوسل إليه ليصفح عنه.

لم أعرف قط من أين جاءت الياقوتة، لكنها قُدِّمت لاحقاً للأميرة. وبناء على نصيحة الرومي، ذهب المعماري إلى القصر وقدّم الحجارة الكريمة إلى السيدة العظيمة، فأغدقت الأميرة الهدايا عليه وعلى رفاقه.

ظللت مرتبكاً ولا زلت أتساءل عن مصدر تلك الحجارة الكريمة. وقد ذكّرني مولانا بحكاية من المثنوي يحوّل فيها درويش أغصان شجرة إلى ذهب. إني أتذكّر ظروف تأليفها بدقة. فقد كنّا في الريف، منهمكين في شتل أبصال الزعفران في صفوف، عندما قال لي الرومي:

«إن جميع قصصي، كما هي أوصافي للأشخاص الآخرين، تصف حالة أصدقائنا. فعلى الرغم من أن أسلافنا استخدموا الخيمياء لتحويل المادة، فإني أجد أن الخيمياء الحقيقية، هي الخيمياء التي تثير الدهشة حقاً، هي التي تغيّر الفهم والفكر».

في نظره، لم تمثّل الياقوتة التي كان المعماري يحملها في يده اليسرى شيئاً ما لم تتحول إلى فكره ويفهم مغزاها.

كان شقيق الأميرة، السلطان ركن الدين قد تبوأ العرش قبل سنة من وفاة صلاح بواسطة تدخّل القائد المغولي بيدجو الذي، بعد أن سحق تمرّداً بالقرب من قونية، حرّره من السجن ونصّبه على رأس البيت الحاكم. وفي الوقت نفسه، عُيِّن الأمير معين سليمان، زوج الأميرة، رئيساً للوزراء.

كعهده، لم يكن موقف مولانا من هذه الأحداث متوقّعاً. فمن الطبيعي أنه يكون سعيداً لأن معين عُيِّن في منصب رفيع لكونه أحد مريديه المتحمسين، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون سعيداً للخضوع الروحي الذي كان يبديه له السلاطين والأمراء المتعاقبون. وخلال فترة الاتحاد مع صلاح، أبدى السلطان عز الدين، في مناسبات عديدة، احترامه له، لكن زيارة سلطان له أو خنوع أمير له لم تكن تثير إعجابه حقاً، بل كان يستمد إعجابه من جداول أخرى. ومنذ أول يوم من حكمه، أبدى السلطان ركن الدين تواضعاً شديداً أمام مولانا، وكان يدعوه «أبي» علناً. وكان يحرص على تنفيذ كل طلباته. لكنه تأثّر بعد عدّة سنوات بعدد من أفراد حاشيته الذين درسوا على يد زاهد عجوز يدعى الشيخ بابا، فبدأ يبتعد عن الرومي شيئاً فشيئاً، حتى خضع أخيراً بالكامل لمرشده الجديد.

في ذلك اليوم، كان السلطان قد دعانا لإقامة جلسة سماع في مبنى سوق النحاسين حيث يصنعون القدور النحاسية. وكالعادة، ذهبت مع مولانا. فقد أشيع أن مولانا لا يذهب إلى أي مكان بدون مرافقتي له، وإذا ذهب، فإنه لا يتحدث ولا يضحك ولا يرقص.

وكان من المفترض في ذلك اليوم أن يخرج ويضحك ويتكلّم ويرقص، لذلك رافقته.

كعادته، كان مولانا آخر الواصلين احتراماً للأشخاص الأدنى أهمية الذين قد يتأخرون في المجيء. وبما أنني وصلت قبله، فقد رأيت رجلاً طاعناً في السن، ضئيل الجسم، ضعيفاً وضامراً. كان يرتدي جبة زرقاء داكنة من القماش الخشن تصل إلى تحت ركبتيه، ويضع حول خصره حزاماً من الخيش الخشن. كان لون الجبة التي يرتديها غامقاً، وقد لفت انتباهنا التناقض الشديد بين مظهره ومظهر السلطان الذي كان يرتدي ثياباً مطرزة بخيوط من الذهب والفضة ومزينة بالأحجار الكريمة. كانت شهرة الرجل العجوز، الزاهد المعروف بالشيخ بابا، تطبق الآفاق، وكانت قصّة تنسكه معروفة للقاصي والداني في قونية.

أبدى جميع الحاضرين احتراماً عظيماً. فقد سجد أتباع السلطان أمامه ودعوه للجلوس في مكان الشرف. ترك السلطان عرشه وجاء وجلس بجانبه على مقعد بسيط. ورأيت بأمّ عيني كلّ إشارات خضوع السلطان لشيخه وأدركت أن ولاء ركن الدين، مثل طير يطير بعيداً، قد ترك أغصان الرومي، واستقرّ على غصن بابا. كان ذلك جلياً بالنسبة لمولانا. لأنه عندما دخل، حيّا السلطان وانسحب إلى زاوية في القاعة. ثم تلا المقرئون آيات من القرآن الكريم، ثم خاطب ركن الدين الرومي وقال: «ليعرف السيد والحكماء العظماء بأنني، من اليوم فصاعداً، سأكون خادم الشيخ بابا، لقد اخترته أباً لي وقد قبلني ابناً له».

هنّأ جميع الحاضرين الناسك. في غمرة هذا المديح سمعت صوت مولانا يقول: «إذا كان السلطان قد جعل الشيخ بابا والده،

فأنا سأختار ابناً آخر». ونهض وغادر مبنى سوق النحاسين حافياً.
وهنا توقّف التصفيق.

بينما كان مولانا يغادر المبنى، التفتُّ لأنظر إلى السلطان. في تلك اللحظة، جاءتني رؤية مريعة مفاجئة عن السلطان من دون رأس، مقطوع الرأس. ظلت هذه الصورة تلاحقني حتى عندما تحلّق أصدقائي حولي، وطلبوا مني أن أذهب وأبحث عن الرومي لأعيده. لم يكن ذلك مجدياً، لأني أعرف أنه لن يعود. وخلال حديثنا لا بد أن مولانا كان يحلّق فوق مروج الملائكة. تفرّق الحاضرون، وذهب بعضهم يبحث عن الرومي، ورافق بعضهم الآخر الناسك العجوز، والد السلطان الجديد، إلى بيته المتواضع جداً.

مرت أيام لم نعرف فيها كيف ستكون ردة فعل السلطان على سلوكنا هذا، فلم يغادر التلاميذ المدرسة، ولم نقبل مرشحين جدداً لإقامة رقص السّماع.

في أحد الأيام جاء السلطان، وأظهر وجهه الذي يكون عادة حليقاً وناعماً، آثاراً من الشعرات المنفلتة وعلامات ليلة مؤرقة. وأبدى للرومي مظاهر احترام شديدة بالسجود له أمام الجميع، ثمّ انسحب الاثنان إلى غرفة منعزلة. بقي السلطان مع مولانا لفترة قصيرة، ثم غادر وقد بدا عليه القلق.

توجهت مباشرة إلى الرومي وسألته عن سبب زيارة السلطان. فقال لي إن الأمراء دعوه إلى أكساراي لتشكيل تحالف مع المغول، وأن ركن الدين سأله هل يذهب أم لا، فقال له الرومي ببساطة: «من الأفضل ألاّ تذهب».

لكن ركن الدين ذهب. وعندما وصل إلى أكساراي، قاده

المتآمرون إلى بقعة معزولة لا يطرقها إلا المجانين، فخنقوه وراح يصرخ: «يا رومي! يا رومي!»

في تلك اللحظة، كنّا في السماع خانة، منهمكين في رقصة سماع روحية. بغتة، توقف مولانا عن الدوران، ووضع سبابتيه في أذنيه، وأمر بإحضار الناي وآلات أخرى تستخدم عادة للاحتفال بخبر سعيد. ونفذ طلبه. ثم وضع طرفي نايين في أذنيه وراح يصيح، ثمّ نظم القصيدة التالية، وهو يدور ويدور:

ألم أقل لك: «لا تذهب إلى هناك فأنا أعرفك؟»
وفي سراب الفناء هذا، أنا نبي الحياة.

قد أغفر لك وأتركك تهيم مائة ألف سنة،
وفي النهاية، ستعود إليّ، فأنا منتهاك.

ألم أقل لك: «لا ترضَ بغايات هذا العالم»،
فأنا من ينظّم سرداق رضاك.

ألم أقل لك: «إنني المحيط وما أنت سوى سمكة؟»
لا تخرج إلى اليابسة لأنني أنا بحرك الصافي.

ألم أقل لك: «لا تقع في الفخّ كالطيور»،
وتعالَ، فأنا قوّتك على الطيران، وجناحك وقوادمك.

ألم أقل لك: «لقد سُلبت، وأنهم يحطون من عزمك».
فأنا نار رغبتك وخفقانها ودفئها.

ألم أقل لك: «إنهم يقولون إن لديك صفات خسيسة؟»
وتنسى أنني نبع صفاتك.

فإن كان لك قلب كالمصباح، فاعرف أين الطريق إلى البيت.
وإن كنت رباني الصفات، فاعلم أنني سيدك.

عندما توقّف الرقص، رمى الرومي رداءه إلى محراب الصلاة وقال: «النقم صلاة الميت الآن».

أطعناه من دون أن نفهم سبب هذا السلوك الغامض، ومُنح سلطان ولد مسؤولية شرح الأمر. لكن حتى قبل أن يسأل والده، قال الرومي: «بينما كانوا يخنقون المسكين ركن الدين، في تلك اللحظة صاح باسمي. لم أستطع أن أقف في وجه القدر الإلهي، لكنني لم أرد أن يصل صوته إلى أذني ويزعجني، فوضعت طرف الناي في أذني حتى لا أسمع صراخه».

هكذا عرفنا قصة موت السلطان. وعلم البلاط بموته من الجنود الذين كسا الدم أجسادهم والذين دخلوا قصر الوزير الأعظم لإخبار الأميرة غوردجي بأن عليها أن تلبس ثياب الحداد على أخيها. ولم تعرف سيدة القصر أن الشخص الذي أمر بقتله لم يكن سوى زوجها معين سليمان، التابع المخلص لمولانا.

وبخلاف شمس وصلاح، فإن كراهية الحاسدين لم تتجلّ في شكل مؤامرات أو محاولات لقتلي، بل تجلت في شكل بوادر عدوانية من رجل يدعى «أخي أحمد» أراد أن يُحدث فتنة في حفل تنصيبي رئيساً لخانقاه ضياء.

فقد قرر المسؤول عن العقارات الملكية، وهو رجل يدعى تاج، توليتي مسؤولية إدارة الخانقاه، لعدم وجود من يديرها منذ وفاة الرئيس السابق. لم أكن أبحث عن تسلم مسؤولية من هذا القبيل، ولذلك أجبت بأنني أريد أن أستشير مولانا وأبين له هواجسي: الفراق الحتمي، غيابي، والتوقّف عن كتابة المثنوي. وعلى الرغم من الحجج التي سقتها والتي وجدتها مقنعة، فقد شجعني مولانا على أن أقبل هذا المنصب وأن أكرّس له نفسي جسداً وروحاً.

بعد عدّة أيام، أقام تاج بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً دعا إليه أعيان المدينة. طلبتُ من الرومي ألاّ يذهب لأني كنت أعرف أنه سيشعر بالملل ولأنه سينقل سَأَمَه إليّ. مرة أخرى فاجأني، وأصرّ على الذهاب. فلم نكن عادة نقيم أو نحضر مثل هذه الاحتفالات.

في يوم الاحتفال بتنصيبي، ذهبت إلى خانقاه ضياء في وقت مبكر. وقفت طويلاً أمام الشجرة الضخمة التي تظلل الفناء وحيّيتها كما يحيي الرومي الأشجار في أحيان كثيرة. لم تكن الشمس قد ظهرت في السماء بعد، بل كانت قد ألقت نوراً باهتاً على الضريح الذي ووري فيه عدد من سادة الأخوّة. فتحت الباب الخشبي فصرّ قليلاً. تسلل معي الضوء إلى الحجرة الباردة وأنار الكلمات المحفورة على قبر قديم. أزلتُ الغبار الذي حجب نصف اسم المتوفى فاكتشفتُ أنها امرأة، وهذا أمر نادر، بل أمر فريد. تذكّرت القصص التي تروى عن حياة الصوفية العظيمة رابعة، الصوفية التي جاءت الكعبة للقائها في وسط الصحراء، فصاحت، «ماذا أفعل بالكعبة؟ إن ما أطلبه هو سيد الكعبة»، وسلكت طريقاً مختلفاً ولم تكلف نفسها عناء إلقاء نظرة على المكان المقدّس الذي جاء إليها.

أثناء قراءة الفاتحة على روح المرأة الراقدة عند قدمي، تساءلت

عما إذا كانت توجد أي صلة تربط بين هذه المرأة والمرأة التي ذهبت قبلها والتي طبقّت شهرتها الآفاق منذ عدة قرون.

وعلى الجانب الآخر، انتصبت نافورة من الحجارة البيض تحيط بها جدران مخصصة للوضوء. توضأت ودلفت إلى الحجرة الرئيسية للخانقاه المضاءة بالفوانيس المعلقة على أعمدة كثيرة. وعلى العرش رأيت اسمي، حسام حسن جلبي بن محمد بن حسن، منسوجاً بخيط ذهبي على القماش الأسود. تناهى إليّ صوت وقع خطوات. كانت تلك خطوات قيّم الخانقاه الذي جاء ليعطيني الثياب المخصصة للاحتفال: رداء أبيض يتدلى من الرقبة أعرض عند الخصر إلى الأسفل، وصدرية بيضاء وحزام أسود معقود على الجانب الأيسر وقبعة مخروطية من اللباد عسلية اللون. ارتديتها وانتظرت وصول الآخرين.

كان أول من وصلوا هم بعض أصدقاء والدي الذين كنت قد نسيت أسماءهم تماماً. فعندما توفى والدي، وحللتُ الأخوّية التي كان يرأسها وبعت كلّ مقتنيات البيت لتسديد تكاليف زفاف شمس وكيميا، لامني أصدقاؤه. وها هي تعود إليّ الآن إدارة الخانقاه، التي لم تكن أيّ خانقاه، بل خانقاه ضياء، الوزير. ها هم قد عادوا الآن، وسواء أرغبوا أم لم يرغبوا، فقد كانوا يحاولون العثور على أوجه تشابه بيني وبين والدي الشهير أو تذكّرها. كانوا كلهم يعرفون مدى صداقتي مع الرومي، لكن بعضهم تظاهروا، بدافع الغيرة، بأنهم يجهلون ذلك. وبدافع الفضول، أراد آخرون معرفة تفاصيل غير عادية عن الحياة اليومية في المدرسة، وحاول آخرون، بإبداء لامبالاة واضحة، عدم إظهار حماستهم.

ووصل أيضاً جميع أصحاب الرؤى والصوفيين والدراويش

والزاهدين والناسكين والرهبان، وجاء كذلك رجال البلاط بمن فيهم تاج.

ثم وصل مولانا أخيراً. هرعت إليه وسجدت عند قدميه، لكنه أنهضني بيديه، وأخذ سجادة صلاتي من على كتفه ومدّها فوق العرش الذي سأجلس عليه. لقد زادت هذه الإشارات من مرتبتي الروحية أمام الحاضرين. لم أكن قد تجاوزت الخامسة والثلاثين من العمر في ذلك الوقت. كنت أريد أن أشجّع مولانا على إكمال المثنوي، وعلى مساعدة سلطان ولد في كتابة «فيه ما فيه»، وإكمال جمع «مقالات شمس» وأبذلَ كل ما بوسعي للإبقاء على حبّ مولانا لي. في ذلك الحين، لم أفكّر قط بالزمن بعد الرومي، لكن الرومي كان يفكّر بذلك. لذلك شجّعني على ترؤس الخانقاه، ورفض السماح لي بالسجود أمامه، ووضع سجادة صلاتي على كتفه. بهذه الإشارات عيّنني على الملأ، لكن من دون أن يقول ذلك، وريثاً له.

وصل المقرئون ورتلوا آيات من القرآن الكريم، ثم أجلسني تاج على العرش. أطعت محاولاً تحاشي النظر في عيني الرومي. في أعماق قلبي أحسست بأنه الرجل الوحيد الجدير بهذا العرش. وعندما تهيأت لكي أؤم الصلاة بناء على طلب تاج، نهض فجأة رجل يدعى أخي أحمد، كان ذريانوس قد حذّرني منه، ودفعني جانباً وقال: «أنا وإخوتي لا نقبلك شيخاً لنا».

في الحال، تحوّلت الخانقاه، المكان المخصص للتأمل والخلوة، إلى ساحة حرب. واستلّ أعضاء الأخوّة الذين كانوا يتحلّون بالهدوء والسكينة خناجرهم، وتحدّوا المنتقدين. لكن رفاق أخي أحمد كانوا مسلحين بالخناجر والسيوف. وتعالت أصوات الرجال، وسالت الدماء، وتركز همي على حماية مولانا لكي لا

يصاب بمكروه. وبقوتي الجسدية وببضع حركات مني تمكنت من إبعاد الرومي عن المتشاجرين وأخذته إلى شرفة تطل على القاعة.

انتظرت أن يقول شيئاً، لكنه لم يفه ببنت شفة وراح يراقب المعركة الدائرة في الأسفل. أخيراً، عندما انهار المتشاجرون الأكبر سناً من شدة الإعياء، بحث أعقلهم عن وسيلة لوقف القتال. ثم قال يخاطبهم: «عندما أنظر إليكم، أرى رجالاً يدمرون بيوتهم بأيديهم».

ومن الشرفة، ولكي يراه الجميع، وضع يده على رأسي وقال القصيدة التالية الموجهة إليّ:

جاء حبّك أخيراً، لكنه سيكون أعظم من الأول،
لأن الله نفسه قال إن الأخير سيكون الأول.

وأضاف قائلاً وهو ينظر عند قدميه إلى مشهد لا يمت بصلة إلى اجتماع وقور، حيث اختلط الدراويش ذوو الوجوه الدامية مع الصوفيين الآخرين الممددين على الأرض، خناجرهم في أيديهم وشعورهم منكوشة: «تذكّروا نبي الإسلام. ألم يكن آخر المرسلين. ألم يقل إنه الأخير الذي سيكون الأول؟ كذلك، فإن الشيخ حسام هو الأخير وسيكون الأول في قلبي، في قلوبكم، كما في قلوب الكون كله».

ثمّ نزل من الشرفة، متكئاً على كتفي، وخرج حافياً كما يفعل دائماً عندما يكون غاضباً. رافقته وتركت ذريانوس يهدئ الجمع.

عندما سمع السلطان أن أخي أحمد هو من أشعل فتيل الشجار، دعا وزير العدل وأمره بمحاكمة المتهم وإعدامه بأسرع ما يمكن، لكن الرومي تدخّل شخصياً وأنقذ حياة أخي أحمد.

ثم جاء إلى المدرسة ليشكر مولانا، لكن مولانا طرده ورفض رؤيته وقال: «إنه ليس منا».

ومنذ ذلك اليوم، نبذ الجميع أخي أحمد، حتى سفلة القوم. وأصبح الناس يتحاشونه أو يغيرون طريقهم كلما رأوه عند ناصية شارع. وكان الرجال يسرعون ويصيحون، «لا تقربوه! لا تقربوه!» ويتحاشون أيّ اتصال بالمنبوذ.

بعد فترة أقام تاج مراسم تتويج جديدة، أصبحتُ بموجبها رسمياً رئيس خانقاه ضياء. ولاحقاً، بينما كنت لا أزال منهمكاً في تدوين المثنوي الذي كان يمليه عليّ مولانا، أُوكلت إليّ كذلك مهمة إدارة خانقاه آخر، وهو خانقاه لالا. ومرة أخرى، طلب مني الرومي أن أقبل هذه المسؤولية. لم يحضر مولانا هذا الاحتفال لكنه هنّأني بحرارة. وبإصراره هذا، شعرت أنه يريد أن يضمن لي مستقبلاً مستقراً ومريحاً. لقد أصبح رجل الفراق والهجران والصدمات المفاجئة والغموض، قلقاً الآن على شيخوختي، وهذا أمر غريب أيضاً.

الهجران

بعد خمس عشرة سنة كاملة، أنجزت مهمّتي التي تمثلت في كتابة المثنوي وقراءته وتصحيحه وإكماله. وعندما نظم الرومي آخر قصيدة في المجلد السادس - حوار بين أمّ تقول لابنها إذا رأيت شبحاً أسود شديد الحقد فكن شجاعاً واهجم عليه، فإنه يتحول عنك سريعاً - لم أشعر أننا أكملنا عملنا بعد.

كنّا في خان تجار السكّر حيث تم، قبل تسع وعشرين سنة، اللقاء - أو ينبغي أن أقول الصدام - بين شمس والرومي. كنّا نتفرج على شتى أنواع السكّر وأشكاله: متبلور، كتل، سائل، عندما أنهى مولانا القصيدة الأخيرة للمثنوي بهذين البيتين:

وأن ذلك الكلام البهيج في قلبي،
ذلك أنه من القلب إلى القلب كوَّة.

قال كلمة «كوَّة»، وقال لي: «انتهى».

فجأة، انتهت خمس عشرة سنة من الحماسة والشغف والنشوة والهذيان والتسامي. لقد ولد طفلنا بكلمة «استمع» وسينتهي بكلمة «كوَّة». كان طفلنا صوت العشق الذي أطلقته صيحة فراق، اختار، بعد خمس عشرة سنة من التجوال والنكسات، كوَّة القلب.

تملّكني إحساس بالمرارة وبنفس القدر بالبهجة. شعرت بالفخر لأنني تمكنت من إكمال هذا العمل العظيم، من رؤية طفلنا ينمو ويكبر. لكن إنهاء المثنوي كان يشير أيضاً إلى خمولي وعدم الفائدة مني. وكنت أسأل نفسي طوال الوقت عن طبيعة المحبة التي يكنّها لي الرومي. وجدت الجواب في مفهوم المثنوي، وأدركت أن نهاية القصيدة العظيمة تختتم تاريخنا وفراقنا.

كنت محقاً في مخاوفي. فبعد فترة قصيرة من انتهاء القصيدة، دعانا الرومي، أنا وسلطان ولد وذريانوس ومعين سليمان والأميرة غوردجي وكيرا وفاطمة معاً.

سرت في جسدي قشعريرة. كان الثلج يغطي الفناء، وتسللت ريح قونية اللاسعة في أرجاء البيت عبر الشقوق في الأبواب القديمة. بينما كنت أخلع نعلي للدخول إلى الحجرة، تذكّرت أنني فعلت ذلك مئات المرات لحضور لقاءات في هذه الحجرة. كان لقاء واحداً من تلك اللقاءات يكفي حتى تتفتح فيه حياة كاملة.

بعد أن اجتزت عتبة الحجرة، بدأ العرق فجأة يتفصد مني بغزارة. ماذا لو كان يريد أن يعلن عن فراقنا؟

عندما وصل، انحنينا له. أمرنا بأن ننهض، ثمّ، في اللحظة التي التقت فيها عيناي بعينيه، شعرت أن قلقي من أن أُرفض لم يكن سوى قشّة صغيرة بالمقارنة بما سيقوله لنا. كانت بشرته أكثر شحوباً من أي وقت مضى، ويداه ترتجفان قليلاً، وصوته يرتعش، وقال:

«لا تخافوا إذا رحلتُ لأنكم ستبقون معي في جميع الأحوال والظروف. فكّروا بي وسأظهر لكم. مهما ارتديتُ من أردية فإني سأعود إليكم دائماً، وسأملأ أفكاركم بالمعاني السرية».

توقّف لوهلة، ثمّ تابع قائلاً:

«إن حياتي مفيدة لكم، وسيكون موتي مفيداً لكم أيضاً».

أجهشت الأميرة غوردجي بالبكاء، وصرخت فاطمة للمرة الثانية والأخيرة في حياتها - فقد كانت المرة الأولى عندما صرخت غاضبة في وجه زوجها سلطان ولد، وضرب الأمير معين سليمان رأسه بقوة في الحائط وسال منه الدم، وخمش سلطان ولد وجهه، وبدأ ذريانوس فجأة يتكلم باليونانية، وألقت كيرا بحجابها ومزّقت ثيابها وكشفت عن أجزاء من لحمها، وقالت، «يا نور الكون! يا نَفَس البشرية! يا سرّ هذا النَفَس! لمن سندور؟ إلى أين ستذهب؟»

فأجاب الرومي، «لن أبقى خارج دائرتكم».

وواصلت كلامها ولحمها لا يزال مكشوفاً أمام أعيننا، «هل سيظهر أحد غيرك؟»

خلع الرومي عمامته، ومدّها وغطى بها برقّة جسد كيرا، وقال: «إذا ظهر، فإنه سيظل أنا! ففي الكون، لديّ جسدان: واحد لك والآخر لي. وعندما سأتعرّى من هذا الجسد الذي ترينه هنا بفضل الملك الوحيد، فإن الآخر سيبقى لك».

في اضطرابي، قرّرت أن أتضرع إلى الله بأن يأخذ من عمري عشر سنين ويعطيها للرومي ويمدّ بحياته بضعة أشهر أخرى. فالله الذي لامه صلاح، والذي اعتنقه شمس، والذي كان فمُ الرومي لا يملّ ترديده، يستطيع أيضاً أن يلبي طلبي هذا. لكن ذلك لم يحدث.

قبل انتهاء اللقاء، لامس مولانا بجبهته جبهة كلّ واحد منا وبقينا هكذا طويلاً. عندما لامس جبهة ذريانوس، كان لا يزال يتكلّم باليونانية.

كنت على وشك أن أغادر الحجرة عندما طلب مني الرومي أن أرافقه إلى غرفة نومه.

في الحجرة تلفّع ببطانية وراح يحدثني عن الأوقات التي أمضيناها معاً، ثم حكى لي قصّة النحوي الذي سقط في البئر، وحاول درويش أن ينقذه مستخدماً عبارات غير صحيحة نحوياً، وسألني هل لا أزال أتذكّر نهاية القصّة. طبعاً لم أنسها، فقد راح النحوي يصحّح أخطاء الدرويش وهو في قاع البئر، فغضب الدرويش وترك النحوي في البئر وقال له: «ابق هناك حتى أتمكن من تصحيح النحو لدي».

وتحدّث أيضاً عن اليوم الذي شعر فيه أن النبي الخضر الذي كان يدعوه «أخي» حرمه من التحدث إليه لأنه أخذ وقتاً طويلاً وهو يضع عمامته ويلفّها. هذه أيضاً لم أنسها، ومنذ ذلك الوقت، لم يعد مولانا يلفّ عمامته، وأصبح رفاقه يفعلون له ذلك ويضعونها على رأسه.

حلّ الليل ببطء. تجمّع وراء الباب كبار أطباء السلطنة، وراحوا ينتظرون بلا جدوى. فلم يكن بوسع الطب أن يفعل شيئاً لمولانا. فصرف هؤلاء الأطباء الذين أحضرهم الأمير من المستشفيات ومن جانب أسرّة المرضى الآخرين. من وراء الباب، سمع أصوات بكاء، وصوت أشياء تكسر، وخطوات سرعان ما خفت سماعها. وفي الحجرة، غطّ الرومي في النوم ببطء، مسنداً رأسه إلى ركبتي.

سمعته يردد بصوت واهن خافت أدعية غريبة:

«يا الله العظيم! إني مستعد لأن ألقى أيّ رعب، أيّ عبء، أيّ حزن، أيّ فرحة، أيّ أعجوبة، أيّ ذنب، أيّ مصيبة، أيّ طاعة، أيّ عصيان. يا الله العظيم! ضع نوراً في قلبي، نوراً في قبري، نوراً في أذني، نوراً في عيني، نوراً في شعري، نوراً في جلدي، نوراً في لحمي، نوراً في دمي، نوراً في عظامي، نوراً أمامي، نوراً خلفي،

نوراً تحتي، نوراً فوقي، نوراً إلى يميني، نوراً إلى يساري. يا نور الأنوار! اجعلني نوراً».

لم يفاجأ عندما رآني أدوّن ما يقوله، لأنني دأبت على تدوين كل ما يقوله منذ خمس عشرة سنة.

أنهى دعاءه الطويل وانتصب في جلسته. ظل هكذا، مستنداً إليّ، متلفعاً ببطانيته. عندما همّ لتغيير وضعيته، خيّل إليّ أنني رأيت شاباً يظهر، كاد جماله يجعلني يغمى عليّ. قرأت في قصص الحب عن عشاق يغمى عليهم.لم يدر ببالي أن رؤية بسيطة كهذه يمكن أن تهز كياني هكذا. استقبل مولانا الشاب بترحاب شديد وطلب مني أن أنزع عنه ثياب نومه. ساعدته على خلعها، ثمّ، عندما رأيت أن مولانا والشاب لم يأتيا بحركة. تقدّمت نحوه وسألته من هو هذا الشاب، ولماذا أتى إلى هنا. فأجاب الشاب:

«أنا ملاك الموت. جئت نزولاً عند أوامر العلي الكريم لأسمع وصية مولانا».

ثمّ سمعت صوت الرومي يقول له:

«تقدّم! تقدّم! يا نَفَسي! الرسول القادم من بلاط سلطاني!»

ثمّ أضاف بهدوء، «نفّذ الأمر الذي صدر لك».

اختفى الطيف.

لقد رأيت ملاك الموت. أبواب العالم الآخر. العالم الذي يوجد فيه الرومي وشمس وصلاح مع الله. العالم الذي تتشكل فيه الأفكار. تلك الأبواب المشتهاة بشوق شديد، فتحت أمامي للتو.

عاد مولانا وارتدى ثيابه وطلب مني أن أحضر له طشتاً مليئاً بالماء نقع فيه قدميه. بصمت مسحت جبهته وصدره وهو يدندن قصائد حاولت أن أحفظها عن ظهر قلب:

حمل الصديق كوباً مليئاً بالسمّ،
ورغم ذلك شربناه، لأن يده قدمته لنا.

إننا، من داخلنا، في أعالي السماء.
المادة تضعنا تحت الأرض.

من خلال صفاتنا سنصعد.
ورغم ذلك سيبدو علينا مظهر الأموات.

من الخارج، سمعت صوت جميع أفراد الأسرة والمريدين وهم ينوحون ويبكون بصوت عال. أمرني الرومي أن أطلب منهم أن يصمتوا. «قل لهم إني أتفهم حالتهم، لكن ما نفع كل هذا الصراخ العالي؟» ثمّ قال لي: «إن أصدقائي يشدونني من هذا الجانب، وشمس يناديني من الجانب الآخر. يجب أن أذهب».

لم أتوقف عن تجفيف وجهه من العرق الذي بدت عليه تعابير لا إرادية. كنت أعتصر ألماً، لكنني لم أبك. إن مولانا يموت أمام عيني. بنَفَسه، همس قائلاً: «ضع جثماني فوق القبور الأخرى لأنني سأكون أول من يصعد».

كنت أهمّ بالخروج من الحجرة تنفيذاً لرغبته عندما دخل سلطان ولد الذي أضناه الحزن. داعبه الرومي طويلاً، ثمّ طلب منه أن يذهب ويرتاح. خرج سلطان ولد. عند عتبة الباب، طلبت منه أن يغيّر ترتيب القبور داخل الضريح.

غطّ الرومي في سبات عميق، قدماه لا تزالان في الطشت. برفق، فركت حاجبيه ويديه.

عندما أفاق، طلب مني أن أقترب منه أكثر، أن أضع وجهي على وجهه، شفتي على شفتيه، عيني في عينيه، وقال لي:

ضع رأسي على الوسادة،
امض، واتركني وحدي،
اتركني، أنا المتعب،
الساهر، المبتلى.

وحيداً من أول الليل حتى طلوع النهار،
مع موجة العشق،
إن شئت، فتعال واصفح،
وإن شئت، فاجعلني أتألم.

ابتعد عني لكي لا تقع أنت أيضاً،
في البلاء، في اليأس،
اختر طريق السلامة،
واترك طريق البلاء.

صمت لبرهة، ثم بدأت أنفاسه تتسارع. أشاح بوجهه. عاد صوته، أضعف الآن، كما لو كان لديه شيء يريد أن يقوله أخيراً:

أنا هناك، ماء يغشى بصري،
أزحف ببطء في زاوية الغم.
فوق ماء بصري،
أقم مائة طاحونة.

الحرون الذي يهلكنا،
له قلب قُدَّ من صوان.
وإذا قتل، فلن يقول له أحد:
«تذكّر الديّة».

إن مليك الوجوه الجميلة،
ليس عليه واجب الوفاء،
فيا أيها العاشق الأصفر الوجه،
كن صبوراً، وكن وفياً.

بالإضافة إلى الموت،
هناك ألم لا علاج له.
فكيف أقول أنا:
جِد علاجاً لهذا الألم؟

الليلة الماضية في شارع العشق،
حالماً، رأيت حكيماً مسناً.
أشار إليّ بيده وقال:
اعزم وتعال معنا.

إذا ظهر تنين في الطريق،
فالعشق مثل زمردة.
بنور تلك الزمردة،
اِمْضِ وطارد التنين.

كانت هذه آخر قصيدة في حياة الرومي. لقد اختطفه الموت وهو لا يزال يتكلّم. كان ذلك يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرى سنة ٦٧٢ للهجرة (١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٧٣).

وضعت فمي على فمه وشهقت نَفَسه الأخير. خلعت عنه ثيابه. نزعت عنه ثياب الحداد التي دأب على ارتدائها منذ اختفاء شمس، وألبسته ثياباً عادية. ثمّ، فتحت الباب وتركت الرفاق يدخلون إلى الحجرة.

جثا الأمير أمام جثمان الرومي، ولبث هكذا ساعات عديدة. وقفت خلفه زوجته، الأميرة غوردجي، هادئة صامتة، ولم ترفع عينيها عن الرومي المتوفى. جلستُ، مسنداً ظهري إلى الحائط، وحاولت، بجهد مزّقني إرباً إرباً، أن أعترف بأنه لم يعد وجود للرومي. قلت لنفسي إننا يجب أن نقوم بمراسم الدفن بأسرع ما يمكن ونختار موضع القبر، وأن نضع قبره، كما طلب مني، فوق القبور الأخرى، ونؤدي صلاة الجنازة، ثم لا أعرف ماذا يجب أن نفعل. لوهلة خطر لي أن أسأله.

أكّد لي الموت أنني لن أتلقى منه جواباً بعد الآن.

في الصباح، دعونا إماماً يكنّ له الجميع الاحترام. جلس الرفاق على الأرض. عندما بدأ الإمام يغسل جسد مولانا وعندما صبّ الإمام الماء على الجثمان المسجى على نقالة، شربنا كلّ نقطة من الماء الذي تدفّق فوق جسده.

فجأة، أطلق الإمام صرخة وترك رأسه يسقط فوق رأس مولانا. ثم أخبرني أنه بينما كان يغسل صدره، تحرّك الرومي.

جرى ذريانوس إلى الحلاق، ثمّ التقى بالمسؤولين عن الجنازة.

كنت أتمشى حول الفناء عندما أشار إليّ صديقي اليوناني بأن لا

أنظر إلى الجثمان الذي نقل من البيت على نقالة مغطّاة. أبقيت عيني مغمضتين وتخيّلت مولانا يرقص السّماع ويدور حتى يشعر بالدوار. وقف ذريانوس وسلطان ولد عند الباب بينما مرّ الموكب. علمت لاحقاً أن ذريانوس، عندما رأى جسد مولانا ملفوفاً بالكفن وهم يضعونه العربة، قال: «مولانا يغادرنا».

فهمت أن الموت هو المغادرة.

فتحت عيني وشاهدت الرجلين يقتربان مني. عانق أحدنا الآخر. فهمت أن الموت اتحاد من جديد.

كل لدى كلّ منّا شيء يفعله. وكمحاسب المدرسة، كان عليّ أن أدفع نفقات الدفن، وكان على سلطان ولد الاعتناء بمسألة الخلافة. وكان على ذريانوس إعلام المريدين الأجانب بخبر وفاته. فهمت أن الموت مسؤولية أيضاً.

عندما انتهى تغسيل جثمان الرومي، رافق موكب تتقدمه سبعة ثيران، الجثمان إلى ضريح والده، سلطان العلماء، حيث دفن صلاح. في الشارع، تحلّق حول الموكب رجال ونساء وعلماء وصوفيون وحرفيون وأناس عاديون وموظفون حكوميون ويونانيون وإيرانيون وأتراك ورومان ومسيحيون ويهود. وقرأ رهبان يحملون في أيديهم الكتاب المقدس، آيات من الإنجيل، وتقدم أحبار ورتلوا آيات من التوراة.

دعا الأمير الأسقف والحبر الأكبر الحاضرين أيضاً، وسألهما عن سبب هذه الحماسة، فأجابا، «لقد فهمنا حقيقة موسى، وحقيقة المسيح، وحقيقة الأنبياء جميعاً من تعاليمه. لقد رأينا فيه ما قرأنا عنه في الكتب عن سلوك أنبيائنا. إننا نعتبره موسى والمسيح في عصرنا هذا».

وأضاف الحبر اليهودي، «إن الرومي هو شمس الحقائق، وجميع المخلوقات تحب الشمس».

وقال الراهب المسيحي: «إن الرومي مثل الخبز. لا يستطيع أحد أن يعيش بدون خبز. هل رأيت جائعاً يتحاشى الخبز؟ أيها الأمير إنك لا تعرف من هو حقاً»، فصمت الأمير.

وتلا المقرئون آيات من القرآن، وأنشد المؤذّنون ابتهالات، وأنشدت عشرون فرقة أناشيد عن الموت نظمها الرومي نفسه، وقرع العازفون الطبول وعزفوا على الناي.

بدأ المساء يهبط عندما وصل الموكب إلى الضريح. انتظر الشيخ صدر الذي سمّاه الرومي في حياته، إقامة صلاة الجنازة. لم يكد يكون هناك مجال للتنفّس في الحجرة التي تعجّ بالناس. حيّيت الشيخ. ذكّرني بلقائه الأخير مع الرومي، الذي وافق فيه الرومي، بعد أن رفض تناول أيّ دواء آخر، على ألاّ يأخذ إلا بنصيحة صدر. فبينما كان يشرب العصير، قال له إنه، منذ ذلك الحين، لا يبقى بين العشيق والمعشوق، شيء سوى عباءة منسوجة من الأشعار، وأن النور سينضمّ إلى النور مرة أخرى.

لم أنس. تذكّرت ذلك أيضاً في اليوم الذي رفض فيه الرومي تناول كلّ الأدوية التي قدمتها له.

انتظر الشيخ صدر حتى همدت الضوضاء قبل أن يقول: «لا يوجد إلا شيخ واحد في العالم، وقد ذهب. الآن خيط اللقاء سينقطع، إبزيم قلادة الفكر سيضيع. الآن، ستضعف الأعمال، وسينحدر النظام. الآن، لن يعود هناك أي أثر آخر للأخوّة أو للبهجة، وسيطأ المغول عرش ثروة السلاطين والأمراء وستنقل كنوز

ورؤوس بعيداً، وستتحول المدارس والتكايا إلى نُزُل وخانات، وستزول البركة، وسيخيّم ظلّ الاستبداد على العالم، وسيتحطم الكون».

أجهش الشيخ بالبكاء، وبكى كلّ من سمع خطبته، بينما سمعنا من الخارج صيحة حزن عالية.

وجدت نفسي واقفاً بجانب سلطان ولد وكيرا، عندما قالت لي بصوت منخفض إنها رأت للتو زوجها يحلّق في السماء، جناحاه ممدودان واسعاً، كما لو كان يريد أن يحمينا.

اقترب صديقي سراج، الرجل الذي انتظر، قبل سنوات، طوال الليل للقاء الرومي، وقال لي وهو يفتل شاربيه الطويلين: «لقد تكلّمت مع مولانا الآن، وسألته عن العالم الذي انتقل إليه، فقال لي: لم أعد معروفاً كثيراً في العالم الآخر كما كنت في هذا العالم».

لم أر شيئاً، لم أسمع شيئاً.

عندما ووري جثمان مولانا الثرى، لمستُ حاجبيه للمرة الأخيرة. قبّلت البقعة التي يلتقي فيها حاجباه لكي أحتفظ بخشونة شعره على شفتي إلى الأبد.

أسندت رأسي إلى قلبه، وسمعته يخفق. قبّلت جبهته وتذكرتُ شمس الذي قال ذات يوم: «المصباح المطفأ سيشعل المصباح ويرحل».

ثمّ ووري جسده في مثواه الأخير، ووضعت عمامته على شاهدة القبر.

انتظرت حتى غادر الجميع الضريح، ومضت ساعات قبل أن تُطفأ الأضواء، وعندها غادرت.

في داخل المدرسة، رفضت قطّة مولانا أن تأكل أو تشرب وماتت بعد أسبوع. ووجدت ملكة، ابنة الرومي وكيرا، القطة الميتة فغسلتاها ولفّتاها في شرشف ودفنتاها تحت ضريح مولانا.

كلما توجهت إلى المقبرة، أتذكّر شيئاً قاله شمس: «على قبر، كتب أحدهم: ليست الحياة أكثر من ساعة». لقد دامت حياتي ساعة فقط لكني أمضيتها مع الرومي.

الخاتمة

شمس التبريزي، عرفتَ العشق، ولم تعرف العقل

استغرقتُ أربع سنوات في كتابة هذه الرواية. خلال تلك الفترة، توفيت أمّي، وبعد عشر سنوات من المحاولة في كتابتها، أنجبتُ ابنتي التي سمّيتها *كيارا* على اسم جدة الرومي. وقد تخللت كتابة هذه الرواية فترات انقطاع من الحزن والولادة والتربية.

وغالباً ما كان زوجي الذي هو كاتب أيضاً ولا يتوقف عن العمل، ينتقدني على فترات الانقطاع تلك، وكنت أجيبه بشطر من أشعار الرومي الذي يقول: «لقد تأخر هذا المثنوي فترة من الزمان» (إن المثنوي هو أعظم أعمال الشاعر الرومي وأعظم الأعمال في الأدب الفارسي). وأعترف أنني كنت أتجاهل الشطر الثاني من البيت الذي نسيته. حتى أنه كان يبدو لي غامضاً جداً. في الحقيقة، نسيته تماماً. كنت في تلك الفترة أُرضع ابنتي، وكانت أيامي مقسّمة إلى فترات مدة كل منها ثلاث ساعات، وهي ساعات إرضاعها. وفي أحد الأيام، فتحت المجلد الثاني من المثنوي، وقرأت البيتين الافتتاحيين:

لقد تأخر هذا المثنوي فترة من الزمان،
فالمهلة واجبة حتى يتحول الدم إلى حليب.

«حتى يتحول الدم إلى حليب». إن هذه الكلمات موجّهة إليّ. أغلقت المثنوي، ووضعته على شفتي وعيني - كما أضع القرآن - وشعرت أنني اتخذت القرار الصائب، وأن الرومي معي.

يرتبط هذا الكتاب ارتباطاً وثيقاً بذاكرة أمّي، ماهين جاهانبيغلو تجّدد. فعندما كانت حاملاً بي، كانت تدرس الأدب الفارسي في جامعة طهران. وحتى بعد أن حصلت على الدكتوراه، دأبت على حضور المحاضرات التي كان يلقيها البروفسور بديع الزمان فرو زانفر، الاختصاصي العظيم في الرومي. كانت تذهب صباح كلّ يوم خميس إلى أن وضعت وفاة البروفسور المشهور نهاية لهذه المحاضرات الهامة.

عندما كنتُ أنا وأمّي وزوجي نعمل على ترجمة مائة قصيدة من «ديوان شمس التبريزي»، كانت معرفتها العميقة بشعر الرومي تستند أساساً إلى حضورها تلك المحاضرات التي كان يلقيها بديع الزمان، وعندما كانت تعترضنا أي مشكلة، وعندما لم تكن ملاحظاتها القديمة تكفي لحلّ تلك المشكلة، كانت تتصل بصديقها في طهران، محمد رضا شافعي الكادكاني، أحد أبرز طلاب البروفسور بديع الزمان الذي كان جوابه جاهزاً دائماً.

حلّ البروفسور شافعي الكادكاني محل أستاذه في كلية الآداب بجامعة طهران. وفي إحدى المرات، أثناء إحدى المحاضرات - كان ذلك بعد إنشاء جمهورية إيران الإسلامية - التي لم يكن يحضرها طلابه فقط، بل كذلك أساتذة ومحاسبون ومئات من

الأشخاص المتلهفين لمعرفة ودراسة الصوفية، قال: «لقد أخطأ الله عندما خلق الرومي».

لم أشأ أن أكتب أطروحة دراسية عن حياة الرومي، لأني، على الرغم من خلفيتي الأكاديمية، لم أجد أن هذا النهج - الكامل، الدقيق، المتعمّق - ينطوي على أيّ أثر للجمال أو المشاعر.

سجّلت في «المدرسة التطبيقية للدراسات العليا» في فرنسا للعمل على أطروحة دكتوراه شملت دراسة نصّ من الصينية المانوية يعود إلى القرن الثامن عشر. وفي أحد الأيام، عندما تمكن الأستاذ بصعوبة أخيراً من فك رموز مخطوطة مانوية كتبت باللغة القبطية، سألني عن رأيي فيها، فأجبت تلقائياً بأنني وجدتها «جميلة». فحدّق بي الطلاب الخمسة أو الستة الآخرون في الحجرة، لأنه لا يسمح باستخدام هذه العبارة داخل الجدران الأكاديمية.

ثم بدأت تعترضني ذات المشكلة. يجب البحث عن الجمال خارج جدران الجامعة. لذلك قرّرت أن أحكي هذه القصّة بصيغة ضمير المتكلم، لكن ذلك لم يحرّرني من الحاجة إلى الدقة والصرامة العلمية. ففي رواية *الرومي: نار العشق*، جميع العبارات المتبادلة بين الشخصيات هي عبارات وكلمات قالتها تلك الشخصيات حقاً، ولم أختلق شيئاً، وأرضيت نفسي بتهيئة وخلق ظروف وحالات لشخصياتي، واحتفظت بنسخة مشروحة عن كلّ المراجع النصّية.

لذلك، فإن هذه الرواية ليست سيرة ذاتية علمية. ولو أردت ذلك لاستخدمت أسماء وألقاباً رسمية: جلال الدين محمد بلخي، المعروف كذلك باسم خداوندكار (السيد)، وخاموش (الصامت) ومولانا ثم الرومي.

لو كانت هذه سيرة ذاتية علمية، لكنت قد زوّدت بقائمة شاملة

عن أعماله ولم أقتصر على المثنوي وديوان شمس التبريزي؛ ولكنت أضفت أن المثنوي هو شكل شعري لكل شطرين فيه قافية واحدة ووزن واحد، ويبلغ العدد الإجمالي للأبيات في مثنوي الرومي: ٢٦٠٠٠ بيت شعري؛ ولكنت كتبت عن *رباعياته*، وعن *فيه ما فيه* الذي جمعه ابنه سلطان ولد؛ ولكنت عرضت سلسلة لقاءاته مع مريديه، لاسيما مع الوزير السلجوقي القوي، معين الدين سليمان: *رسائل المنبر*، *والمجالس السبعة*، التي تشكل مجموعة خطبه؛ ولكنت أوردت معاصريه، الشاعر العظيم سعدي، بالإضافة إلى فخر الدين العراقي، تلميذ السهروردي، وهو من أهالي قونية، وهو الذي قال عن الرومي، «جاء إلى العالم غريباً، وعاش غريباً، ومات غريباً». وكان من الممكن أيضاً أن أورد اسم صفي الدين هندي، العالم الديني الكبير، الذي كان هدفه الوحيد منع صوت الرباب الذي كان الدراويش يستخدمونه في جلسات السّماع، والذي قال له الرومي إن اعتناق ألف كافر مسيحي الإسلام أسهل من أن تنسب النقاوة إلى صفي الدين، لأن صفيحة روحه أصبحت مثل لون الواجب المدرسي لطفل، سوداء ومبهمة؛ ولكنت أوردت أيضاً أسماء وتواريخ السلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى: علاء الدين كيقباذ (٦١٧-٦٣٤ هـ/ ١٢١٩-١٢٣٦م) الذي دعا والد الرومي، بهاء ولد، إلى قونية وأراد أن ينزله في بيته؛ والأخوين عز الدين كيكاوس (٦٤٣-٦٥٥ هـ/ ١٢٤٥ - ١٢٥٧ م) وركن الدين قلج أرسلان الرابع (٦٥٥-٦٦٤ هـ/ ١٢٥٧- ١٢٦٦ م)، اللذين كانا كلاهما من مريدي الرومي، ويكنّان له احتراماً عظيماً. ولكي أختتم ذلك، كان من الممكن أن أبحث في أولاده: ثلاثة أبناء وابنة: بهاء الدين محمد، المعروف بسلطان ولد (٦٣٢-٧١٢ هـ/ ١٢٢٥ - ١٣١٤ م)، وعلاء

الدين محمد (٦٢٤ -٦٦٠ هـ/ ١٢٢٦- ١٢٦٢م) ومظفر الدين أمير العلم (+ ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٨م)، وملكة خاتون (+ ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٥ م). وغيرهم.

لقد كتبت الرواية بصيغة ضمير المتكلم - المذكر - ووضعت نفسي مكان الرجل الثالث الذي كان له دور هام وكبير في حياة الرومي، وهو حسام، أو بدقة أكبر، حسام الدين جلبي حسن بن محمد بن حسن، بسبب سطر كنت قد قرأته في سيرته الذاتية، كُتب بعد وفاته بين الأعوام ١٣١٨ و ١٣٥٣، وهو سطر بسيط ورد في نص من القرن الرابع عشر - لم تتغير اللغة الفارسية كثيراً منذ ذلك الحين. كان ذلك السطر موجهاً مباشرة إليّ، ولم يكن بحاجة إلى تعليق. جملة بسيطة واحدة تقول إن مولانا (الرومي) عشقني (حسام)(*).

قبل حسام، كان هناك صلاح، وقبل صلاح، كان هناك شمس الشهير جداً، شمس، الجمرة. لكن لم يرد أي سطر بمثل هذا الوضوح يفسر علاقتهم - الباطنية، الرمزية، المخصصة لفئة خاصة من العلماء - بهذه الطريقة الإنسانية. وخلال قراءتي، جمعت معلومات عن خلواتهم الروحية، رغباتهم - حتى الجسدية من دون أيّ إشارة واضحة تتيح لي أن أصف تلك الليالي المشهورة والالاحظ «الأحبة» مباشرة.

«وكان الرومي يعشق حسام». هذا السطر جعلني أتماهى مع حسام، لأن أكون حسام، ولأن أشعر كما كان يشعر حسام بتجربة العشق الجسدي في ضمير المتكلم المذكر. كما أتاح لي إمكانية الدخول إلى الحجرات والحمامات والمحلات في السوق، وإلى

(*) الأفلاكي، مناقب العارفين، الجزء الثاني، ص. ٧٣٧.

الخانات التي كان الرومي والآخرون يترددون عليها. كما تطلب مني بحث ومحاولة فهم كيف ولماذا كان كلّ ذلك ممكناً. فلا يمكن لتلك «الأنا»، ضمير المتكلم المفرد المذكر إلا أن تعرف.

لماذا قال الرومي فجأة لشمس، أكثر الرجال الذين أحبهم في العالم بضرورة أن يغادر، أن يعرضه للموت؟ لماذا هذا الفراق المفاجئ؟ لماذا، منذ تلك اللحظة، نشهد ولادة أحد أعظم الشعراء في العالم؟ ما الدور الذي أدّاه العشق في ألم الفراق والإبداع؟

إن «أنا» التي اخترتها اضطرتني لأن أجد جواباً.

لقد اقترح زوجي علي بأن أحتفظ بوجهة نظر معاصرة، تتيح لي أن ألاحظ تلك الأحداث «الأسطورية»، أساس الأدب الفارسي، بموضوعية أكبر. لكن فات الأوان على ذلك. إن «الأنا» كانت قد انطلقت في إثر الرومي، محاولة اكتشاف كيف ولد شاعر من خضم العشق.

المحتويات

كتاب شمس التبريزي

كتاب صلاح الدين

كتاب حسام الدين

هذا الكتاب

إذا ظهر تنين في الطريق،

فالعشق مثل زمردة.

بنور تلك الزمردة،

اِمْضِ وطارد التنين.



